

الأعمال الكاملة
انطون تشيكوف

الأعمال الكاملة

انطون تشيكوف

الجزء الثالث

القصص القصيرة

أسامة عبد الرحمن





مقدمة

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلومات والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسات الأمة العربية إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسات برنامج ترجم، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم ومن التبشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية



خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد .

وتأمل المؤسسات في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيدا عملياً لرسالة المؤسسات الثقافية المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات .

وعلى هذا النهج سرت بدعم من الدار الذهبية ولقد قمت باستبعاد بعض الأعمال التي توسمت فيها ما لا يليق بالأخلاق الاسلامية كما لم اقم بعمل المسرحيات .

أسامة عبد الرحمن



حكاية مملة من مذكرات رجل عجوز

يوجد في روسيا أستاذ بارز هو نيقولاي ستيبانوفتش (الفلاني)، وهو مستشار سرى وحامل أوسمة ولديه العديد من الأوسمة الروسية والأجنبية، حتى إنه عندما يضطر إلى حملها يقبه الطلبة بالحاجز الأيقوني ومعارفه من أرقى الأوساط الأرستقراطية وعلى أية حال فخلال الخمسة والعشرين أو الثلاثين عاما الأخيرة لم يوجد في روسيا ولا يوجد عالم شهير إلا يعرفه الأستاذ معرفة قريبة أما الآن فليس هناك من يصادقه، ولكن إذا تحدثنا عن الماضي فإن قائمة أصدقائه العظام تنتهي بأسماء مثل: بيروجوف، وكافيلين، والشاعر نيكراسوف، الذين وهبوه أخلص وأحر صداقة وهو زميل في جميع الجامعات الروسية وفي ثلاث جامعات أجنبية، وهلم جرا كل هذا، وكثير غيره مما كان يمكن أن يقال، يشكل ما يعرف باسمى رتبة مدنية في روسيا القيصرية تعادل رتبة الجنرال ونيقولاي بيروجوف 1810 - 1881 جراح شهير وعالم كبير وضع أسس الجراحة الميدانية الحربية وقسطنطين كافيلين (1818 - 1880) مؤرخ وقانونى وكاتب برجوازي، ونيقولاي نيكراسوف 1821 - 1878 شاعر ثورى



كبير صور بؤس الفلاحين ونادي بالثورة على الحكم المطلق.

واسمي هذا مشهور على نطاق واسع ففي روسيا يعرفه كل شخص متعلم، وفي الخارج يذكرونه من فوق منصات الجامعات مقروناً بنعت: شهير وموقر وينتمي هذا الاسم إلى عداد تلك الأسماء المحظوظة القليلة التي يعتبر سبها أو ذكرها بسوء بين الناس أو في الصحف دليلاً على قلة الذوق وهذا هو المفروض فباسمي يرتبط أوثق ارتباط مفهوم الإنسان الشهير، السخي المواهب والمفيد بلا شك وأنا دوؤوب وذو جلد كالجمال، وهذا مهم، وموهوب، وهذا أهم وفوق ذلك، وبالمناسبة، فأنا مهذب، متواضع، وإنسان شريف لم أحشر أنفي أبداً في الأدب والسياسة، ولم أبحث عن الشهرة في مجادلة الجهلاء، ولم ألق خطباً في المآدب أو على قبور رفاقي وعموماً فاسمي لا تشوبه أية شائبة وليس له أن يشكو من شيء إنه محظوظ.

وحامل هذا الاسم، أي أنا، أبدو رجلاً في الثانية والستين، أصلع الرأس، بأسنان صناعية وعرة لا براء منها وبقدر ما اسمى باهر وجميل بقدر ما أنا نفسي كاب وقبيح فرأسي ويبدأ ترتعش من الضعف وعنقي، كعنق إحدى بطلات تورجينيف، يشبه ذراع الكونتراباص، وصدرى غائر وظهري ضيق وعندما أتحدث أو أقرأ ينحرف فمى جانباً، وعندما أبتسم يمتلئ وجهي كله بتجاعيد شيخوخة ميتة وليس



هناك أي شيء مهيب في هيئتي التعيسة، اللهم إلا عندما تتابني العزة فيظهر على وجهي تعبير خاص، لا بد أنه يثير في نفس كل من ينظر إلى فكرة مهيبة قاسية: يبدو أن هذا الرجل سيموت قريباً .

وما زلت، كما في السابق، ألقى المحاضرات بصورة لا بأس بها وكما في السابق أستطيع أن أشد انتباه السامعين على مدى ساعتين فحراستى، ولغة عرضي الأدبية، وروح الفكاهة تجعل عيوب صوتي غير ملحوظة تقريبا، فصوتي جاف، حاد، أحن منفر كصوت المنافق وأنا أكتب بصورة سيئة فذلك الجزء من محياى الذي يشرف على الملكة الكتابية قد توقف عن العمل وضعفت ذاكرتى، نتيجة صدمة نفسية أو مرض في الجهاز العصبي.

وتفتقر أفكارى إلى المنهجية اللازمة، وعندما أصوغها على الورق يبدو لي دائماً أنني فقدت الإحساس بترابطها العضوي، وتأتى التراكيب رتيبة، والعبارة شحيحة مترددة وكثيراً ما أكتب غير ما أريد، وعندما أكتب النهاية لا أعود أذكر البداية وكثيراً ما أنسى الكلمات العادية، ودائماً أضطر إلى بذل جهد كبير كى أتجنب في الكتابة العبارات الزائدة والجمل التمهيدية التي لا ضرورة لها، فهذه وتلك تدلان بوضوح على انحطاط النشاط العقلى ومن الملفت للانتباه أنه كلما كانت الكتابة أبسط ازداد توترى إرهاقاً وعندما أكتب مقالة



علمية أشعر أنني أكثر حرية وذكاء بكثير مما عندما أسطر رسالة تهنئة أو مذكرة تقريرية وهناك أمر آخر: فمن الأسهل بالنسبة لي أن أكتب بالألمانية أو الإنجليزية من أن أكتب بالروسية.

أما بخصوص نمط حياتي الحالي فينبغي أن أشير قبل كل شيء إلى الأرق، الذي أعاني منه في الآونة الأخيرة ولو سئلت: ما الذي يشكل الآن القسمة الرئيسية والأساسية لوجودك؟ لأجبت: الأرق فكها في السابق، وحسب العادة أخلع ملابسني في منتصف الليل تماما وأوي إلى الفراش وأنعس بسرعة ولكنني أستيقظ والساعة تدور في الثانية بإحساس كأنني لم أنم أبداً وأضطر إلى النهوض من الفراش وإشعال المصباح وأمضى أذرع الغرفة من ركن لركن ساعة أو ساعتين وأتفحص اللوحات والصور المعروفة لي منذ زمن بعيد وعندما أمل من المشي أجلس إلى مكتبي أجلس بلا حراك، دون أن أفكر في شيء أو أشعر بأية رغبات وإذا كان هناك كتاب أمامي، أقربه مني آليا وأقرأ دون أدنى اهتمام وهكذا قرأت اليا منذ فترة قريبة، في ليلة واحدة، رواية كاملة بعنوان غريب: عمغنت السنونوة أو أذهب، لكي أشغل نفسي، أعد حتى ألف، أو أتصور وجه زميل من زملائي وأمضى أتذكر: في أية سنة، وفي أية ظروف التحق بالوظيفة؟ وأحب الإصغاء إلى الأصوات فتارة تهذى ابنتي ليزا بشيء ما في الحلم بسرعة على بعد غرفتين مني وتارة تعبر زوجتي



الجزء الثالث

الصالة حاملة شمعة، ولا بد أن تسقط منها علبة الكبريت، وتارة يصير صوان جف خشبه، أو تطن فجأة ترمسة المصباح ولست أدري لماذا تهيجني هذه الأصوات.

ألا تنام ليلاً يعني أن تدرك كل لحظة أنك لست طبيعياً، ولذلك أنتظر بفارغ الصبر مجيء الصباح والنهار حيث يكون من حقي ألا أنام ويمر وقت مرهق طويل قبل أن يصبح الديك في الفناء وهذا أول بشير لي فما إن يصبح حتى أعرف أنه بعد ساعة سيستيقظ البواب في الطابق الأسفل، ولغرض ما سيعصده الدرج وهو يسعل بغضب وبعد ذلك يبدأ الهواء خلف النوافذ في الشحوب شيئاً فشيئاً، وتتردد الأصوات في الشارع.

ويبدأ نهاري بمجيء زوجتي تدخل غرفتي مرتدية تنورة، غير مصففة، ولكنها مغتسلة، وتفوح منها رائحة كولونيا الزهور، ويبدو على هيئتها كأنها دخلت عرضاً، وفي كل مرة تقول نفس الشيء: عفا، سأبقي دقيقة واحدة مرة أخرى لم تتم؟ وتطفئ المصباح، وتجلس بجوار المكتب، وتشعر في الكلام وأنا لست نبياً ولكني أعرف مسبقاً عم سيدور الحديث كل صباح نفس الشيء فعادة، وبعد الأسئلة القلقة عن صحتي، تتذكر فجأة ابننا الضابط الذي يخدم في وارسو فبعد اليوم العشرين من كل شهر نرسل له خمسين روبلاً،



وهذا في الأساس ما يشكل موضوع حديثنا .

تقول زوجنى متتهدة: طبعاً هذا مرهق لنا، ولكن واجبنا أن نساعدده طالما لم يقف بعد على قدميه تماماً فالولد في بلد غريب، والراتب قليل وعموما فإذا شئت، يمكننا أن نرسل له في الشهر القادم أربعين روبلاً بدلاً من خمسين.

ما رأيك؟ كان من الممكن أن تستخلص زوجتي من الخبرة اليومية أن النفقات لا تصبح أقل بسبب كثرة الكلام عنها، ولكن زوجتي لا تعترف بالخبرة، وتتحدث كل صباح بانتظام عن ابننا الضابط، وعن أن الخبز، والحمد لله، أصبح أرخص، أما السكر فارتفع سعره كوبيكين تقول كل ذلك بنبرة كأنها تفضي إلى بخبر جديد .

وأصغى إليها وأومئ آليا، وربما لأنني لم أنم الليل تتنابني أفكار غريبة لاداعي لها أنظر إلى زوجتي وأدهش كالطفل وأسأل نفسي في حيرة: أصحيح أن هذه المرأة العجوز، البدينة جدا، الخرقاء الهيئة، التي يلوح على وجهها تعبير الهموم الصغيرة والخوف على لقمة الخبز، والنظرة الغائمة من التفكير الدائم في الديون والحاجة هذه المرأة التي لا تجيد الكلام إلا عن النفقات والابتسام فقط لرخص الأسعار، أصحيح أنها كانت في وقت ما هي فاريا الدقيقة القوام، تلك التي أحببتها بهيام لعقلها الصافي الطيب، وروحها الطاهرة وجمالها، وكما



أحب عطيل ديدمونة، لشفقتها على علمي؟ أصبح أن هذه المرأة هي نفسها زوجتي فاريا، التي أنجبت لي في وقت ما ابناً؟
وأتفحص بتوتر وجه العجوز الخرقاء المترهلة، وأبحث فيها عن فاريا ولكن لم يبق من الماضي فيها سوى الخوف على صحتي وعادة أن تسمى راتبي راتبنا، وقبعتي قبعتنا وأتألم وأنا أنظر إليها، ولكي أعزيها ولو قليلاً، أسمح لها بأن تقول أي شيء، بل حتى أصمت عندما تظلم أحداً في أحكامها أو تبكتني لأنني لا أمارس العلاج ولا أوّل كتباً مدرسية.

وينتهي حديثنا دائماً بنفس الصورة فجأة تذكر زوجتي أنني لم أتناول الشاي بعد، فتفرع وتقول ناهضة: مالي أجلس هكذا؟ الساور على الطاولة من زمان وأن أثرر هنا يا إلهي، كم أصبحت بلا ذاكرة وتمضي بسرعة، ثم تتوقف عند الباب لتقول: إننا مدينون ليجور براتب خمسة أشهر هل تعرف؟ كم مرة قلت لك، لا يصح أن نتأخر في سداد رواتب الخدم الأسهل كثيراً أن نعطي كل شهر عشرة روبلات من أن نعطي خمسين روبلا لخمسة أشهر .

وبعد أن تخرج من الغرفة تتوقف عند الباب مرة أخرى وتقول:

- لا أرثي لأحد مثلما أرثي لابنتنا ليزا المسكينة البنت تدرس في الكونسرفتوار، وتتحرك دائماً في وسط راق، ولكن أية ملابس



ترتديها، الله أعلم شيء مخجل الظهور في الشارع بمعطف كمعطفها لو كانت ابنة أحد آخر، ولكن الجميع يعرفون أن أباهما أستاذ مشهور، مستشار سرى .

وبعد أن تعيرني باسمي ورتبتى تتصرف أخيراً هكذا يبدأ نهاري. ويستمر بصورة ليست أفضل.

عندما أجلس لتناول الشاي تأتي إلى ابنتى ليذا في المعطف والقبعة، حاملة نوت الموسيقى، ومستعدة تماماً للذهاب إلى الكونسرفتوار إنها في الثانية والعشرين وتبدو أصغر من ذلك، جميلة، تشبه قليلاً زوجتي في شبابها. تقبلني في صدغي وتلثم بدى قائلة: - مرحبا يا بابى، هل أنت بخير؟.

كانت في طفولتها تعشق الأيس كريم، فكنت آخذها كثيرا إلى محلات الحلوى.

وكان الأيس كريم بالنسبة لها معيارا لكل ما هو رائع فإذا أرادت أن تمتدحنى قالت: أنت يا بابا مثل الكريمة وكان أحد أصابعها يسمى كريمة والثاني فستق، والثالث فراولة حسب أنواع الأيس كريم وفي العادة، عندما كانت تأتي في الصباح لتسلم على، كنت أجلسها على ركبتى وأقبل أصابعها مردداً: الفستق الكريمة الليمون.



والآن أيضاً، كما في أيام زمان، ألتئم أصابع ليذا وأدمدم: الفستق...
الكريمة.. الليمون.. ولكن ذلك يصدر عنى بصورة أخرى تماماً إنى
بارد كالآيس كريم، وأشعر بالخجل وعندما تأتي ابنتي وتمس صدغى
بشفتيها أنتفض كما لو أن نحلة لسعتني في صدغى، وأبتسم بتوتر،
وأدير وجهى فمنذ أن أصبت بالأرق وهناك مسألة تنتصب في ذهنى
كالمسمار: إن ابنتي كثيراً ما تراني، أنا الرجل العجوز، الشهير،
أتعذب خجلاً من أنني مدين للخادم: وهي كثيراً ماترى أن هموم
الديون الصغيرة تضطرنى إلى أن أترك عملي وأذرع الغرفة ساعات
طويلة وأفكر، فلماذا لم تأت مرة واحدة، خفية عن أمها لتهمس: يا
أبي،خذ هذه ساعتى، وأساورى، وأقراطى، وفساتينى أرهن هذا كله
فأنت بحاجة إلى نقود؟ ولماذا، وهي ترى أنى وأمها، وقد استسلمنا
لإحساس كاذب، نحاول أن نخفي فقرنا عن الناس،لماذا لا تتخلى
عن هذه المتعة المكلفة: دراسة الموسيقى؟ وما كنت لأقبل منها لا
الساعة، ولا الأساور، ولا التضحيات، حاشا لله، فليس هذا ما أحتاجه
وبهذه المناسبة أتذكر ابنى، الضابط العامل في وارسو إنه إنسان
ذكى و شريف وراجح التفكير ولكن ذلك قليل عندى إننى أفكر: لو كان
لدى أب عجوز أو لو كنت أعرف أنه يواجه لحظات خجل من فقره،
لأعطيت مكانى كضابط لأي شخص آخر والتحقت بعمل ما أجيراً
ومثل هذه الأفكار عن أبنائى تسمم حياتى فما جدواها؟ فالإنسان



الضيق الأفق أو الحاقده هو وحده الذي يكن مشاعر الكراهية للأناس العاديين لأنهم ليسوا أبطالاً ولكن دعونا من هذا وفي العاشرة إلا ربعاً ينبغي أن أذهب إلى أبنائي الأعرء لأقرأ المحاضرة. أردي ملابسي وأسير في الطريق الذي أعرفه منذ ثلاثين عاماً والذي له عندي تاريخه الخاص هاهو ذا البيت الرمادي الكبير وبه الصيدلية في وقت ما كان هنا بيت صغير به حانة بييرة وفي هذه الحانة كنت أفكر في رسالة الدكتوراه، وكتبت أول رسالة حب إلى فاريا كتبتها بالقلم الرصاص، على ورقة مطبوع أعلاها: ها هو ذا دكان البقال في وقت ما كان صاحبه يهودياً صغيراً يبييعنى السجائر بالدين، ثم حلت محله امرأة بدينة كانت تحب الطلبة لأن كلا منهم لديه أم والآن يجلس تاجر أحمر الشعر، رجل غير مبال تماماً، يشرب الشاي من إبريق نحاسي، وها هي ذي بوابة الجامعة القائمة، التي لم ترمم منذ زمن بعيد، والبواب السأمان في معطف فروى ضخم، والمكنسة، وأكوام الثلج إن مثل هذه البوابة لا يمكن أن تترك انطباعاً طيباً في نفس الصبي الطازج، القادم من الأقاليم، والمتصور أن محراب العلم هو حقاً محراب وعموماً فقدم المباني الجامعية، وظلام طرفاتها، والسناج على جدرانها، وضعف الإضاءة، ومنظر الدرجات والمشاجب والأرائك الكئيبة تحتل في تاريخ التشاؤم الروسي مكانة كبيرة .



تاريخ المرض

إحدى المراتب الأولى بين الأسباب المساعدة عليه وها هي ذي حديقتنا ومنذ أن كنت طالبا لم تصيح، على ما يبدو، أفضل أو أسوأ أنا لا أحبها فقد كان من الأصوب كثيرا لو نمت هنا، بدلا من أشجار الزيزفون المسلوثة والأكاسيا الصفراء والبنفسج المقصوص المتناثر، أشجار الصنوبر الفارعة والبلوط القوي إن الطالب، الذي يتأثر مزاجه في معظم الأحوال بالوضع المحيط به، ينبغي ألا يرى أمامه حيث يدرس، وفي كل خطوة، إلا الأشياء السامة، القوية، الرشيقة وليحفظه الله من شر الأشجار الهزيلة، والنوافذ المكسورة، والجدران الرمادية، والأبواب المبطنّة بمشمع ممزق.

وعندما اقترب من مدخلنا يفتح الباب على مصراعيه، ويستقبلني زميلي القديم في العمل وتربى وسمير الحاجب نيقولاوي وبعد أن يدخلني يزحر

ويقول: - صقيع يا صاحب المعالي فإذا كان معطى مبتلا يقول: - مطر يا صاحب المعالي ثم يركض أمامي ويفتح جميع الأبواب في طريقي.



وفي غرفة المكتب ينزع عني بحرص معطف الفراء، وأثناء ذلك يتمكن من الإفضاء إلى بخبر من أخبار الجامعة فبفضل المعرفة الوثيقة القائمة بين جميع حجاب الجامعة وحراسها، يعرف نيقولاى كل ما يحدث في الكليات الأربع وفي الإدارة وفي مكتب مدير الجامعة وفي المكتبة وما أكثر ما يعرف فمثلا عندما تصبح مسألة إحالة مدير الجامعة أو العميد إلى المعاش قضية الساعة، أسمع نيقولاى، وهو يتحدث مع الحراس الشبان، يذكر أسماء المرشحين، ويوضح على الفور أن فلان الفلانى لن يعتمد الوزير ترشيحه، أما فلان الفلانى فسيعتذر هو نفسه، ثم يتطرق إلى تفاصيل خرافية عن أوراق غامضة وردت إلى الإدارة، وعن حديث سرى، جرى، كما يدعى، بين الوزير وأحد الوكلاء... إلخ وإذا استبعدنا هذه التفاصيل فإن تقديراته بشكل عام تكون دائما سليمة والتشخيصات التي يضعها لهذا المرشح أو ذاك ذات طابع خاص، ولكنها أيضا صادقة ولو أردت أن تعرف من ناقش رسالة الدكتوراه وفي أي عام، ومن التحق بالوظيفة، ومن أحيل إلى المعاش أو توفي، فلتستن بذاكرة هذا الجندي الهائلة، وعندئذ لن يذكر لك السنة والشهر واليوم فحسب، بل والتفاصيل المحيطة بهذا الطرف أو ذاك إن من يحب هو وحده الذي يستطيع أن يذكر بمثل هذه القوة.



وهو حافظ الأساطير الجامعية فقد ورث عن أسلافه الحجاب كثيراً من أساطير الحياة الجامعية، وأضاف إلى هذه الثروة من عنده الكثير مما حصل عليه أثناء الخدمة، وإذا شئت فسوف يروي لك العديد من الحكايات الطويلة والقصيرة وبوسعه أن يحكي عن الحكماء الأفاضل الذين كانوا يعرفون كل شيء، وعن الكادحين الرائعين، الذين لم يناموا أسابيع، وعن شهداء العلم وضحايا العديدين والخير عنده ينتصر على الشر، والضعيف يتغلب دائماً على القوى، والحكيم على الأحمق، والمتواضع على المتكبر، والشاب على العجوز ولا حاجة للتسليم بصحة كل هذه الأساطير والخرافات، ولكن لو رشحتها فسيترسب لديك في المرشح الشيء المطلوب: تقاليدنا الطيبة وأسماء الأبطال الحقيقيين المعترف بهم من الجميع.

وفي مجتمعنا تنحصر كل المعلومات عن دنيا العلماء في بعض النكات عن شرود ذهن الأساتذة العجائز غير العادي، وفي مزحتين حادثتين أو ثلاث، تنسب إما إلى جروربر وإما إلى، وإما إلى بابو خين وهذا قليل بالنسبة للمجتمع المثقف ولو كان هذا المجتمع يحب العلم والعلماء والطلبة كما يحبهم نيقولاي، لكان لدي أدبه منذ زمن بعيد ملاحم وروايات وسير كاملة ليست لديه الآن للأسف.

بعد أن يفضي إلى نيقولاي بالخبر، يرتسم على وجهه تعبير صارم



ومن ثم يبدأ بيننا حديث العمل ولو سمع شخص غريب في تلك اللحظة كيف يتعامل نيقولاي بطلاقة مع المصطلحات فربما ظنه عالماً متكراً في هيئة جندي وبالمناسبة فالشائعات عن معارف الحراس الجامعيين مبالغ فيها إلى حد كبير صحيح أن نيقولاي يحفظ أكثر من مائة تسمية لاتينية، ويعرف كيف يركب الهيكل العظمي، وأحياناً يعد أحد المستحضرات، ويضحك الطلبة بالاستشهاد بمقطع علمي طويل، ولكن نظرية الدورة الدموية البسيطة مثلاً ما زالت بالنسبة له حتى الآن مجهولاً كما كانت منذ عشرين عاماً.

وفي غرفة المكتب يجلس إلى الطاولة مساعدي في التشريح بيوتر أجناتيفتش منحنيماً بشدة فوق كتاب أو مستحضر وهو رجل دؤوب، متواضع، ولكنه غير موهوب، في حوالي الخامسة والثلاثين وقد أصبح أصلع وبكرش كبيرة وهو يعمل من الصباح إلى المساء، ويقرأ كمية هائلة من الكتب، ويذكر جيداً كل ما قرأه، ومن هذه الناحية فهو كنز وليس رجلاً أما فيما عدا ذلك فهو حصان جر، أو كما يقال بتعبير آخر، بليد عالم إن الملامح الأساسية التي تميز حصان الجر عن الموهبة الحقيقية هي أن أفقه ضيق ومحدود جداً بحدود التخصص؛ وهو خارج تخصصه ساذج كطفل وأذكر أنني دخلت مرة ذات صباح غرفة المكتب وقلت تصوروا، يا للمصيبة يقال



إن سكوليف توفي.

فرسم نيقولاى علامة الصليب، أما بيوتر أجناتيفتش فقد التفت نحوى وسأل: - من هو سكوليف هذا؟ توفي مرة أخرى وكان ذلك قبلها بقليل - أعلنت أن الأستاذ بيروف توفي، فسألني بيوتر أجناتيفتش العزيز: ميخائيل سكوليف (1893 - 1882) جنرال روسى أصبح ذائع الصيت بعد الحرب الروسية - التركية 1877 - 1878 فاسيلى بيروف (1833 - 1882) رسام روسى شهير، كان أستاذا بمدرسة التصوير والنحت والعمارة بموسكو.

- وفيم كان يحاضر؟

ويبدو لو أن باتى غنت فوق أذنه تماماً، ولو هجمت جحافل الصينيين على روسيا ولو وقع زلزال، فلن يتحرك فيه عضو، وسوف يواصل النظر في مجهره بهدوء وبعين مزرورة وباختصار فلا يهمله من أمر الكون شيء إنني مستعد أن أدفع غالباً كى أرى كيف يضاجع هذا البارد زوجته.

ولديه سمة أخرى: الإيمان الأعمى بعصمة العلم وبالدرجة الأولى كل ما يكتبه الألمان هو واثق من نفسه، ومن مستحضراته، ويعرف غاية الحياة، لكنه لا يعرف أبداً الشكوك وخيبة الأمل التي تشيب



منها المواهب ثم التبجيل الذليل للأسماء الشهيرة وانعدام الحاجة إلى التفكير المستقل ومن الصعب أن تقنعه بالعدول عن رأي ما، ومن المستحيل أن تجادله فلتحاول أن تجادل شخصاً يؤمن إيماناً عميقاً بأن أفضل العلوم: الطب، وأفضل الناس: الأطباء وأفضل التقاليد: التقاليد الطبية فمن الماضي الطبي السيئ لم يبق إلا تقليد واحد: رباط العنق الأبيض الذي يحمله الأطباء الآن وبالنسبة للعالم، وللشخص المتعلم عموماً لا يمكن أن تكون هناك تقاليد سوى التقاليد الجامعية العامة، دون تقسيم لها إلى طبية وحقوقية.. إلخ، ولكن من الصعب على بيوتر أجناتيفتش أن يسلم بذلك، وهو مستعد أن يجادلك إلى يوم القيامة.

وأتصور مستقبله بوضوح فخلال حياته كلها سيعد بضع مئات من المستحضرات الفائقة النقاء، وسيكتب الكثير من الدراسات الجافة، المعقولة جداً، وسينجز حوالي عشر ترجمات متقنة، ولكنه لن يخترع البارود فالبارود يحتاج إلى الخيال والابتكار والقدرة على التخمين، أما بيوتر أجناتيفتش فليس لديه شيء من هذا وباختصار فهو في العلم ليس بسيد، بل عامل أجير.

تحدث أنا وبيوتر أجناتيفتش ونيقولاي بصوت خافت ونشعر بقليل من الانزعاج ويراود النفس إحساس خاص عندما تهدر القاعة



خلف الباب باتى أديلينا (1883 - 1919) مطربة إيطالية زارت روسيا عدة مرات حيث أحيت حفلات غنائية.

كالبحر خلال ثلاثين عاماً لم أعود على هذا الإحساس، وأشعر به كل صباح أزرر سترتي بعصبية، وأوجه إلى نيقولاى أسئلة لا داعي لها، وأغضب وأبدو وكأنني أجبن، ولكن هذا ليس جبناً، بل شيئاً آخر أعجز عن أن أصفه.

وأطلع إلى الساعة دون أي داع وأقول: حسنا ينبغي أن نذهب.

ويتحرك ركبنا بهذا الترتيب: في المقدمة يسير نيقولاى حاملاً الجرمطاً رأسه بتواضع؛ أو، إذا لزم الأمر، يسير حاملاً الجثة في المقدمة، وخلف الجثة نيقولاى، وهكذا ولدي ظهورى يقف الطلبة ثم يجلسون، ويهدأ هدير البحر فجأة ويحل السكون.

وأنا أعرف عم سأحاضر، ولكني لا أعرف كيف سأحاضر وبم سأبدأ وكيف سأنتهي وليس في رأسي جملة واحدة جاهزة لكن ما إن أطوف بنظراتي على القاعة وهي مشيدة على شكل مدرج، ما إن أتفوه بالعبارة التقليدية فالمحاضرة الماضية تناولنا حتى تطير العبارات من صدرى صفاً طويلاً وتتطلق العجلة أتحدث بسرعة



جارفة، بحماسة، ويبدو أنه لا توجد قوة تستطيع أن توقف مجرى حديثي ولكي تحاضر جيداً، أي دون ملل، وبفائدة للسامعين، ينبغي أن يكون في حوزتك، بخلاف الموهبة، البراعة والخبرة، وأن يكون لديك أوضح تصور عن قواك، وعن أولئك الذين تحاضرهم، وعن مادة حديثك وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أن تكون حويطاً وتراقب بيقظة وألا يغيب عنك مجال الرؤية ثانية واحدة.

إن قائد الأوركسترا الجيد، إذ ينقل فكرة الموسيقار، يقوم في وقت واحد بعشرين أمراً: فهو يقرأ أدوار النوتة، ويلوح بعصاه، ويتابع المغني، ويأتي بحركة تارة في اتجاه الطبل، وتارة في اتجاه البوق وغير ذلك ونفس الشيء أفعله أنا عندما أحاضر فأمامي مائة وخمسون وجهاً لا يشبه أحدها الآخر، وثلاثمائة عين تحدد مباشرة في وجهي وهدفي أن أهزم هذا الوحش الخرافي المتعدد الرؤوس وطالما كان لدي في كل دقيقة من محاضرتي تصور واضح عن درجة انتباهه ومدى فهمه، فهو إذن تحت سيطرتي أما غريمي الآخر فيقع داخلني أنا إنه التنوع اللامحدود للأشكال والظواهر والقوانين والكثير من أفكاره وأفكار الآخرين المرتبطة بها وفي كل لحظة ينبغي أن تكون لدى المهارة لكي أنتشل من هذه المادة الضخمة أهم شيء وألزمه وبنفس السرعة التي يتدفق بها حديثي أصوغ فكرتي في شكل يكون



في تناول فهم الوحش ويثير اهتمامه، وأن أراعي بانتباه ألا تنتقل الأفكار حسب تراكمها، بل وفق نظام محدد لا غنى عنه لتكوين لغتي صحيح للصورة التي أرغب في رسمها ثم إنني أحاول أن تكون لغتي أدبية، والتعريفات موجزة ودقيقة، والعبارة بسيطة وجميلة ما أمكن وكل لحظة ينبغي أن أكبح نفسي وأن أذكر أنه ليس في حوزتي سوى ساعة وأربعين دقيقة وباختصار فهناك عمل كثير وفي وقت واحد يكون عليك أن تجعل من نفسك عالماً ومربياً وخطيباً، والمصيبة لو انتصر الخطيب فيك على المربي والعالم، أو العكس.

أقرأ ربع ساعة، نصف ساعة، وها أنا ذا ألاحظ أن الطلبة بدأوا يتطلعون إلى السقف، وإلى بيوتر أجناتيفتش، ويستخرج أحدهم منديله، ويعتدل الآخر في جلسته، ويتسمم الثالث لأفكاره الخاصة وهذا يعني أن الانتباه قد ضعف ينبغي اتخاذ الإجراءات اللازمة واستغل أول فرصة مناسبة وأطلق مزحة ما وتبتسم الوجوه المائة والخمسون كلها ابتسامات عريضة، وتلمع العيون بمرح، ويتردد هدير البحر لفترة قصيرة وأضحك أنا أيضاً لقد تجدد الانتباه، وبوسعي الآن أن أستم.

إن أي نقاش، وأية تسلية أو ألعاب لم تمنحني أبداً مثل هذه المتعة التي يمنحني إياها إلقاء المحاضرات ففي المحاضرة فقط أستطيع



أن أستسلم كلياً للشغف، وأدرك أن الإلهام ليس بدعة الشعراء بل يوجد فعلاً في الواقع وأعتقد أن هرقل، لم يشعر بعد أكثر مآثره إثارة بمثل هذا الوهن اللذيذ الذي كان ينتابني بعد كل محاضرة.

كان ذلك فيما مضى أما الآن فلا أشعر في المحاضرات إلا بالعذاب فما إن يمر نصف ساعة حتى أبدأ أحس بضعف لا يقهر في ساقى وكتفى؛ فأجلس على الكرسي، بيد أنني لم آلف الإلقاء جالساً؛ فأنهض بعد دقيقة، وأواصل الإلقاء واقفاً، ثم أجلس ثانية ويجف حلقي، ويبح صوتي، ويدور رأسي ولكي أخفى عن السامعين حالتى أكثر من شرب الماء، وأسعل، وأتمخط كثيراً كأنما يزعجني الزكام، وألقى مزاح في غير مناسبة، وفي النهاية أعلن الاستراحة مبكراً عما ينبغي ولكني في الأساس أشعر بالخجل.

ويقول لى ضميرى وعقلى إن أفضل ما يمكن أن أفعله الآن هو أن أقرأ للأولاد محاضرة الوداع، وأقول لهم كلمتي الأخيرة، وأباركهم، وأترك مكانى لشخص أصغر وأقوى منى ولكنى، وليحاسبني الله، لا أجد في نفسي الشجاعة لكي أتصرف كما يملئ ضميرى.

ولسوء الحظ فأنا لست فيلسوفاً ولا عالم لاهوت وأنا أعلم تمام العلم أنني لن أعيش أكثر من نصف عام؛ إذن فقد كان من المفروض الآن أن تشغلني أكثر من أي شيء آخر مسائل مثل ظلال العالم



الأخر والرؤى التي ستراودني في نومة القبر ولكن روحي لا تبغي، لست أدري لماذا، أن تعرف هذه المسائل، رغم أن عقلي يدرك مدى أهميتها ومثلها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، لا يشغلني الآن، قبيل الموت، إلا العلم وحده وحتى عندما أَلْفِظُ آخر أنفاسي فسوف أظل مؤمناً بأن العلم هو أهم وأروع وألزم شيء في حياة الإنسان، وأنه كان وسيظل دائماً أسمى مظاهر الحب، وبه وحده سينتصر الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه وربما كان هذا الإيمان ساذجاً وغير محق في أساسه، ولكنني لست مذنباً في أنني أؤمن بهذه الصورة وليس بصورة أخرى؛ ولا أستطيع أن أقهر في نفسي هذا الإيمان.

ولكن ليست هذه هي القضية كل ما أرجوه أن تتسامحوا مع ضعفى وتفهموا أن انتزاع شخص تهمة مصائر النخاع الشوكي أكثر مما تهمة الغاية النهائية للكون، أن انتزاع هذا الشخص من كرسيه وتلاميذه يعادل تماماً لو أنكم وضعتموه في تابوت وأغلقتم عليه دون أن تنتظروا حتى يموت.

وبسبب الأرق، ونتيجة الصراع المجهد ضد الضعف المتزايد يحدث لي شيء غريب ففي وقت المحاضرة تمسك الغصّة فجأة بحلقى، وتقترب الدموع من مآقي، وأشعر برغبة لاهبة هستيرية في أن أمد ذراعي إلى الأمام وأشكو حالى أود أن أصرخ بصوت



عال بأن القدر قد حكم على، أنا الرجل الشهير، بالإعدام، وأنه بعد فترة لا تتجاوز نصف عام سيتصرف في هذه القاعة شخص غيري أريد أن أصرخ بأنني مسموم؛ وأن أفكاراً جديدة، لم أعرفها من قبل قد سممت آخر أيام عمري، وما زالت تلدغ دماغى كالبعوض وفي تلك اللحظة تبدو لي حالتي فظيعة إلى درجة أود معها أن يفرع كل سامعي، ويقفروا من أماكنهم في هلع مجنون، ويندفعوا إلى الأبواب بصيحات يائسة ما أصعب معايشة هذه اللحظات.

بعد المحاضرة أجلس إلى مكتبي في البيت وأعمل أقرأ المجلات العلمية ورسائل الدكتوراه، أو أعد المحاضرة التالية، وأحياناً أكتب شيئاً ما أعمل على فترات متقطعة لأنني أضطر لاستقبال الزوار .

يدق الجرس إنه زميل جاء يتحدث في أمر ما يدخل بقبعته وعصاه، فيمد إلى هذه وتلك قائلاً: - جئتك لدقيقة، لدقيقة واحدة لا تنهض وقبل كل شيء نحاول أن نظهر أحداً للآخر أننا مهذبون للغاية وسعداء جداً برؤية بعضنا بعضاً أجلسه في الفوتيل وهو أيضاً يجلسنى؛ وأثناء ذلك يمسح كل منا بحرص على خصر الآخر، ولنلمس أزرارنا، ويبدو كأننا نتحسس بعضنا البعض ونخشى أن تكوى أصابعنا ونضحك كلانا، رغم أننا لا نقول ما يضحك وبعد أن نجلس نقرب رأسينا نحو بعضنا البعض ونشرع في الحديث بصوت خافت



ومهما بلغت درجة المودة التي نكنها لبعضنا لبعض فإننا لا نستطيع ألا ننمق حديثنا بشتى عبارات التهذيب الصيني مثل: لقد تفضلتم فأشركم عن حق أو: كما سبق وتشرفت فأبلغتكم، لا نستطيع ألا نقهقه عندما يمزح أحدنا، حتى لو لم تكن مزحة موفقة وبعد أن يفرغ زميلي من حديثه في الأمر الذي جاء من أجله ينهض دفعة واحدة ويلوح بقبعته نحو كتبي ومجلاتي ويودعني ومرة أخرى نتحسس بعضنا بعضاً ونضحك وأصعبه إلى ردهة المدخل وهنا أساعده على ارتداء معطفه، ولكنه يحاول أن يتصل من هذا الشرف الرفيع بكل وسيلة وبعد ذلك، وعندما يفتح يجور الباب، يؤكد لي زميلي أنني سأصاب بالبرد، أما أنا فأتظاهر بأنني مستعد أن أرافقه حتى إلى الخارج وعندما أعود، أخيراً، إلى غرفة مكنتي يظل وجهي مستمراً في الابتسام، بقوة القصور الذاتي فيما يبدو.

وبعد قليل يدق الجرس ثانية ويدلف أحد ما إلى ردهة المدخل وينزع معطفه فترة طويلة ويسعل ويبلغني يجور أن طالباً جاء فأقول له: أدخله وبعد دقيقة يدخل غرفتي شاب لطيف الهيئة منذ عام وعلاقتنا مشدودة: فهو يجيب على أسئلة الامتحانات بصورة فظيعة، وأنا أضع له درجة واحد وكل عام يتجمع عندي حوالي سبعة من أمثال هؤلاء الشطار الذين ألهبهم وأسقطهم، كما يقول الطلبة والذين



يرسبون منهم في الامتحان بسبب ضعف قدراتهم أو بسبب المرض عادة ما يحملون صليبهم في صبر ولا يفاصلونني الذين يفاصلون ويترددون على في البيت هم فقط الدمويو المزاج ذوو الطباع الحية الذين يفسد عليهم تأجيل الامتحان شهيتهم ويعوقهم عن التردد على الأوبرا بانتظام أما الفريق الأول فأتساهل معهم، وأما الفريق الثاني فألهبهم طوال العام.

وأقول للضيف: اجلس ماذا تريد أن تقول؟

فيبدأ الحديث متلجلجاً ودون أن ينظر في عيني: - معذرة يا أستاذ على الإزعاج ما كنت لأجرؤ على إزعاجكم لولا أنني. لقد تقدمت لامتحانكم خمس مرات ورسبت أرجوكم، لو سمحتم أعطوني مقبول لأن.

والحجة التي يوردها جميع الكسالى للدفاع عن موقفهم هي دائماً نفس الحجة: فقد أدوا امتحانات جميع المواد بصورة رائعة ولم يرسبوا إلا في مادتي، وهذا أدعى إلى الدهشة لأنهم كانوا يدرسون مادتي دائماً باجتهاد، ويعرفونها معرفة رائعة، ولم يرسبوا إلا بسبب التباس غير مفهوم.

وأقول للضيف: - معذرة يا صديقي أنا لا أستطيع أن أعطيك



مقبول اذهب وذاكر المحاضرات قليلاً ثم تعال وعندئذ سنرى .

فترة صمت وتراودنى رغبة في تعذيب الطالب قليلاً لأنه يحب البيرة والأوبرا أكثر من العلم، فأقول له : في رأيي أن أفضل ما تستطيع أن تفعله الآن هو أن تترك تماماً كلية الطب فإذا كنت لا تستطيع أن تؤدي الامتحان ولديك هذه القدرات، فمن الواضح إذن أنه ليست لديك لا الرغبة ولا الاستعداد لأن تصبح طبيباً .

فيستطيل وجه ذي المزاج الدموي ويقول مبتسماً بمرارة معذرة يا أستاذ، ولكن ذلك يكون من جانبي أمراً غريباً على أقل تقدير .
أدرس خمس سنوات ثم فجأة أترك .

- ولم لا؟ الأفضل أن تهدر خمس سنوات على أن تظل طوال حياتك تزاول عملاً لا تحبه .

ولكني على الفور أرق لحال الطالب فأسارع إلى القول:

- وعموماً كما تشاء حسناً، فلتذاكر قليلاً ثم تعال فيسأل الكسول بصوت أصم: - متى؟ - متى تشاء ولو غداً وأقرأ في عينيه الطيبيتين: طبعاً من الممكن أن أتى، ولكنك أيها الوغد ستطردني فأقول له:

- بالطبع لن تزداد علماً لمجرد أنك ستقدم إلى الامتحان خمس عشرة مرة أخرى، ولكن ذلك سيربى فيك الصلابة حسناً، لا بأس



حتى بهذا .

ويحل الصمت أنهض وأنتظر انصراف الضيف، أما هو فيقف ويتطلع إلى النافذة، ويحك لحيته الصغيرة ويفكر وأشعر بالضجر .

صوت ذي المزاج الدموي لطيف، ريان، وعيناه ذكيتان ساخرتان، ووجهه بشوش، ذابل قليلاً من كثرة شرب البيرة والاستلقاء الطويل على الكنبه يبدو أنه يستطيع أن يروى على الكثير من القصص الطريفة عن الأوبرا، وعن مغامراته العاطفية، وعن رفاقه الذين يحبهم، ولكن العرف لم يجبر بذلك للأسف أما أنا فعلى استعداد لأن أسمعه عن طيب خاطر.

- يا أستاذ، أعدكم بشرفي أنني لو أعطيتموني مقبول فسوف .

ما إن تصل الأمور إلى أعدكم بشرفي حتى أشيح بيدي وأجلس إلى المكتب.

ويفكر الطالب دقيقة أخرى ثم يقول باكتئاب:

- إذن وداعاً ومعدرة -وداعاً يا صديقي تصحبك السلامة ويمضي نحو المدخل بتردد، وهناك يرتدي معطفه ببطء، وعندما يخرج إلى الشارع لابد أنه يفكر ثانية فترة طويلة، ودون أن يتفتق ذهنه عن شيء، اللهم إلا: يا للشيطان العجوز، موجهة إلى، يمضى إلى



مطعم سيئٍ ليشرب البيرة ويتغدى، ثم إلى منزله لينام عليك الرحمة أيها الكادح الشريف.

ويدق الجرس لثالث مرة ويدخل طبيب شاب في حلة سوداء جديدة، ونظارة مذهب، وبالطبع في رباط عنق أبيض ويقدم نفسه وأدعوه إلى الجلوس وأسأله عما يريد ويبدأ كاهن العلم الشاب يحدثني بشيء من الانفعال عن أنه في هذا العام نجح في امتحان الدكتوراه ولم يبق إلا أن يكتب الرسالة وهو يود أن يعمل تحت إشرافي، وسيكون مديناً لى بالكثير لو أعطيته موضوعاً للرسالة.

فأقول له:

- يسعدني جداً يا زميل أن أكون ذا فائدة لك، ولكن دعنا نتفق أولاً على مامعنى الرسالة من المتعارف عليه أن المفهوم من هذه الكلمة أنها مؤلف يمثل نتاجاً للإبداع المستقل أليس كذلك؟ أما المؤلف المكتوب حول موضوع يقدمه آخرون، وتحت إشراف آخرين، فله اسم آخر.

ويلوذ الطبيب بالصمت، فأنفجر، وأقفز من مكاني وأصرخ بغضب:

- ما لكم تتأتون إلى جميعاً، لا أفهم هل أنا صاحب دكان أم ماذا؟ أنا لا أتاخر بالمواضيع للمرة الواحدة بعد الألف أرجوكم جميعاً أن تدعوني



وشأني أرجو المعذرة على هذه الخشونة، ولكنني سئمت كل هذا .

يلوذ الطبيب بالصمت، فقد تحمر وجنتاه ويعبر وجهه عن الاحترام العميق الاسمي الشهير ومكانتي العلمية، ولكنني أرى في عينيه أنه يحتقر صوتي وهيئتي البائسة، وحركاتي العصبية وأبدو له في غضبي هذا غريب الأطوار.

وأقول بغضب:

- لست صاحب دكان، شيء عجيب، لماذا لا تريد أن تكون مستقلاً؟ لماذا

تتفر من الحرية إلى هذا الحد؟.

وأقول غير ذلك الكثير، ولكنه يلوذ بالصمت وفي النهاية تهدأ ثائرتي شيئاً فشيئاً، وبالطبع أستسلم سيحصل الطبيب مني على الموضوع الذي لا يساوي خردة، وسيكتب تحت إشرافي رسالة لا حاجة إليها، وسينجح بجدارة في المناقشة المملة، وسيحصل على الدرجة العلمية التي ليس بحاجة إليها.

ويمكن أن تتوالى الأجراس تباعاً بلا نهاية ولكنني سأكتفي هنا بأربعة منها ها هو ذا الجرس الرابع يدق، وأسمع وقع الخطوات المألوفة، وحفيف الفستان، والصوت الرقيق..



منذ اثنتي عشر عاماً مات رفيقي أخصائي العيون وترك ابنة في السابعة تدعى كاتيا، وحوالي ستين ألف روبل وفي وصيته اختارني وصياً على ابنته، وعاشت كاتيا معنا في البيت حتى العاشرة من عمرها، ثم أرسلناها إلى المعهد، وأصبحت لا تقيم عندي إلا في شهور الصيف أثناء العطلات ولم يكن لدى الوقت لأهتم بتربيتها، ولم أتابعها إلا لماماً، ولذلك لا أستطيع أن أذكر عنظفولتها إلا القليل جداً.

وأول ما أذكره وأحبه من الذكريات عنها الثقة والبراءة غير العادية التي دخلت بها بيتي، وتعالجت بها عند الأطباء، والتي كانت تتهلل دائماً على وجهها الصغير كان يحدث أحياناً أن تكون جالسة في ركن، معصوبة الخد، ولا بد أن تنظر إلى شيء ما باهتمام وسواء كانت تراني في هذا الوقت وأنا أكتب وأقلب صفحات الكتب، أم ترى زوجتي وهي تسعى في شئون البيت، أم الطاهية وهي تقشر البطاطس في المطبخ، أم الكلب وهو يلعب، فإن عينيها كانتا تتطقان دائماً بشيء واحد، ألا وهو: إن كل ما يجري في هذه الدنيا لرائع وحكيم كانت محبة للاستطلاع وتهوى الحديث معي وكان يحدث أن تجلس قبالي إلى المكتب تتابع حركاتي وتوجه إلى الأسئلة وكان يهتمها أن تعرف ما الذي أقرأه، وماذا أفعل في الجامعة، وهل أخاف الجثث، وماذا أصنع براتبى.



وتسألني:

- هل يتشاجر الطلبة في الجامعة؟ .
- نعم يا عزيزتي، يتشاجرون.
- وهل تجعلهم يركعون على ركبهم؟ .
- نعم أجعلهم.

كان من المضحك بالنسبة لها أن الطلبة يتشاجرون، وأني أجعلهم يركعون على ركبهم، فتضحك كانت طفلة وديعة صبورة، وطيبة وأحياناً كان يحدث أن أراها وقد انتزع منها شيء ما، أو عوقبت ظلماً، أو لم يشبع حب استطلاعها؛ وعندئذ يمتزج تعبير الثقة والبراءة الدائم على وجهها بالحزن، ولا شيء أكثر ولم أعرف كيف أناصرها، و فقط عندما كنت أرى حزنها كانت تراودني الرغبة في أن أضمها إلى وأواسيها بنبرة مربية عجوز: يا يتيمة الحبيبة .

وأذكر أيضاً أنها كانت تحب الثياب الجميلة والتطيب بالعطور ومن هذه الناحية كانت تشبهني فأنا أيضاً أحب الثياب الجميلة والعطور الجيدة.

ويؤسفني أنه لم يكن لدى لا الوقت ولا الرغبة في متابعة بداية وتطور ذلك الشغف الذي استولى على كاتيا تماماً عندما بلغت



الرابعة عشرة أو الخامسة عشر وأقصدحبها الجارف للمسرح فعندما كانت تأتي إلينا من المعهد في العطلة وتعيش عندنا، لم تكن تتحدث عن شيء بمثل هذه المتعة وهذه الحرارة كما كانت تتحدث عن المسرحيات والممثلين وقد أرهقتنا بحديثها الدائم عن المسرحولم تكن زوجتي والأولاد يصغون إليها أنا الوحيد الذي لم تواتني الشجاعة لكي أرفض إيلاءها انتباهي وعندما كانت تشعر بالرغبة في الإفصاح عن إعجابها كانت تدخل غرفة مكثبي وتقول بصوت ضارع:

- نيقولاي ستيبانو فتش، اسمح لي أن أتحدث معك عن المسرح فأشير لها إلى الساعة قائلاً: -

سأمنحك نصف ساعة. هيا تكلمي.

فيما بعد كانت تأتي معها بعشرات من صور الممثلين والممثلات الذين كانت تعبدهم ثم حاولت عدة مرات أن تشارك في الحفلات التمثيلية للهواة، وفي نهاية المطاف، عندما أنهت دورة المعهد، أعلنت إلى أنها ولدت لكي تصبح ممثلة.

لم أشاطر كاتيا أبداً ولعها بالمسرح ففي اعتقادي أنه إذا كانت المسرحية جيدة فلا حاجة لإرهاق الممثلين لكي تترك الانطباع



اللازم، ويمكن الاكتفاء بقراءتها فقط أما إذا كانت المسرحية سيئة فلن يستطيع أي أداء أن يجعلها جيدة.

كنت أتردد كثيراً على المسرح في شبابي، والآن كذلك تحجز أسرتي مقصورة مرتين في السنة وتأخذني كي أتهدى بالطبع هذا لا يكفي لإعطائي الحق في الحكم على المسرح، ولكنني سأحدث عنه قليلاً في رأيي أن المسرح لم يصبح أفضل مما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. فكما في السابق، لا أستطيع أبداً أن أحصل لا في طرقات المسرح ولا في ردهاته على كوب ماء. وكما في السابق يغرمني الحجاب عشرين كوبيكا «ضريبة» نزع المعطف، بالرغم من أنه ليس هناك ما يعيب في ارتداء الملابس الثقيلة شتاء. وكما في السابق تعزف الموسيقى في فترات الاستراحة بلا أي داع، فتضيف إلى الانطباع الذي تتركه المسرحية انطباعاً جديداً غير مطلوب. وكما في السابق يذهب الرجال أثناء فترات الاستراحة إلى البوفيه لتناول المشروبات الروحية. فإذا لم يكن التقدم ظاهراً في الجزئيات الصغيرة فمن العبث أن أبحث عنه في الأشياء الكبيرة. فعندما يحاول الممثل، المكبل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بالتقاليد المسرحية والأحكام المسبقة، أن يلقي المنولوج البسيط العادي «أنا نكون أم لا نكون» لا ببساطة، بل ولست أدري لماذا، بفحيج وتشنجات في جسده



كله، أو عندما يحاول أن يقنعني مهما كلف الأمر أن تشانسكي، الذي يتحدث كثيرا مع الحمقى ويحب فتاة حمقاء، هو شخص ذكي جدا، وأن «ذو العقل يشقى» ليست مسرحية مملة، فإنه تهب تشانسكي هو بطل مسرحية «وذو العقل يشقى» الشعرية للأديب الروسي ألكسندر جريويدوف (1790 - 1829)، وهي كوميديا هجائية حادة تهاجم الحياة الإقطاعية ومجتمع النبلاء، وكان الشاعر مقربا من أوساط النبلاء الأحرار (الديسمبريين) ونفي سفيرا في إيران حيث قتل هناك. (المعرب).

على من خشبة المسرح نفس رائحة الروتين التي كانت تثير في المل منذ أربعين عاما مضت، عندما كانوا يضيفوننى عواء كلاسيكيا ودقا على الصدر. وبعد كل زيارة للمسرح أخرج أكثر محافظة عما كنت عليه عند دخولى.

والجموع العاطفية، الميالة إلى التصديق، يمكن إقناعها بأن المسرح، في صورته الحالية، هو مدرسة. ولكن الذي يعرف ما في المدرسة بمعناها الحقيقي، لا يمكن اصطياده بهذا الطعم ولست أدري ما الذي سيكون بعد خمسين أو مائة سنة، ولكن المسرح، في ظل الظروف الراهنة، لا يمكن أن يكون إلا تسلية. بيد أن هذه التسلية جد مكلفة لكي يواصل المرء تمتعه بها. إنها تحرم الدولة من آلاف



الرجال والنساء الأصحاء الموهوبين، الذين لو لم يكرسوا أنفسهم للمسرح لكان من الممكن أن يصبحوا أطباء أو زراعة أو مدرسات أو ضباطاً جيدين وهي تنتزع من الجمهور ساعات المساء، أفضل وقت للعمل الذهني والتبادل الأحاديث الودية هذا فضلاً عن النفقات المالية والخسائر الأخلاقية التي يتكبدها المشاهد، عندما يرى على المسرح جريمة قتل، أو زنى أو افتراء، معللة تعليلاً خاطئاً.

أما كاتيا فكان لها رأي آخر تماماً، كانت تؤكد لى أن المسرح، حتى في صورته الراهنة، أسمى من قاعات الدراسة، والكتب، أسمى من أي شيء في الوجود المسرح هو القوة التي تجتمع فيها وحدها جميع الفنون، أما الممثلون فمبشرون وليس بوسع أي فن أو أي علم أن يؤثر بمفرده في روح الإنسان بتلك القوة والإيجابية التي تؤثر بها خشبة المسرح، ولهذا فليس من الصدفة أن يحظى الممثل المتوسط القدرات في البلاد بشعبية أكثر من أعظم عالم أو مصور. وليس بمقدور أي نشاط اجتماعي أن يوفر مثل تلك المتعة والارتياح للذين يوفرهما النشاط المسرحي.

وذات يوم انضمت كاتيا إلى إحدى الفرق المسرحية، ورحلت إلى مدينة أوفا على ما أعتقد، حاملة معها الكثير من النقود، وما لا يحصى من الأحلام الوردية، والأراء الأرسقراطية حول القضية المسرحية.



وكانت رسائلها الأولى المرسلة من الطريق مدهشة. قرأتها مذهولا، إذ كيف يمكن أن تتضمن هذه الوريقات الصغيرة كل هذا الصبا والطهارة والسذاجة البريئة، وفي الوقت نفسه هذه الأحكام الحصيفة المرهفة التي يمكن أن يتشرف بها أي عقل رجالي جيدلم تصف بل مجدت الفولجا، والطبيعة، والمدن التي زارتها، وزملاءها ونجاحاتها وإخفاقاتها، وكان كل سطر ينبض بتلك البراءة الطفولية التي اعتدت أن أراها على وجهها وبالرغم من هذا، كمية من الأخطاء النحوية، أما علامات التتقيط فلم يكن لها وجود تقريبا .

ولم يمر نصف سنة حتى تلقيت منها رسالة تطفح إعجابا وشاعرية إلى أقصى حد، تبدأ بكلمتين: لقد أحببت وكانت مع الرسالة صورة لرجل شاب، بوجه حليق، وقبعة عريضة الحواف، وحرام يمر عبر كتفه أما الرسائل التالية فكانت رائعة كما في السابق، ولكن ظهرت فيها علامات التتقيط، واختفت الأخطاء النحوية، وفاحت منها بقوة رائحة رجل. وأصبحت كاتيا تكتب لي عن أنه حبذا لو أقيم في مكان ما في منطقة الفولجا مسرح كبير، وعلى أسس المساهمة ليس إلا، مع جذب التجار الأغنياء وأصحاب السفن إلى هذا المشروع إذن لأمكن جمع مبلغ كبير، ولكانت الحصيلة ضخمة، ولعمل الممثلون بنظام المحاصة وربها كان هذا كله بالفعل شيئا جيدا، إلا أنه يخيل



إلى أن مثل هذه الأفكار لا تتبع إلا من رأس رجل.

ومهما كان هناك فقد مر عام ونصف أو عامان والأمور فيما يبدو تسير على ما يرام، فقد كانت كاتيا تحب، وتؤمن بقضيتها، وكانت سعيدة. ولكنني أخذت ألاحظ في الرسائل التالية دلائل واضحة على الانهيار. بدأ ذلك بشكوى كاتيا الى من رفاقها.. وهذا أول وأشأم الأعراض. فإذا ما بدأ العالم الشاب أو الأديب نشاطه بالشكوى المرة من العلماء أو الأدباء، فهذا يعني أن التعب أصابه وأنه غير صالح للعمل. كتبت كاتيا تقول إن زملاءها يتغيبون عن التدريبات ولا يحفظون الأدوار أبدا. وفي إخراج المسرحيات السخيفة وفي طريقة السلوك على خشبة المسرح يتجلى تماما لدى كل منهم عدم الاحترام التام للجمهور. ومن أجل الحصيلة التي لا يتحدثون إلا عنها، تمتهن الممثلات الدراميات كرامتهن إلى حد

أداء الأغاني المرححة، أما الممثلون التراجيديون فيغنون المنولوجات التي يسخرون فيها من الأزواج المغفلين ومن جيل الزوجات الخائئات... إلخ. وعموما فليس أمام المرء إلا أن يدهش: كيف لم يصب المسرح الريفي بالانهيار حتى الآن، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا الخيط الواهى.

ورددت على كاتيا برسالة طويلة، والحق أنها كانت مملة جدا.



وكتبت لها فيها كتبت: «كثيرا ما تحدثت مع ممثلين عجائز، من أنبل الناس، وهبوني ودهم. واستطعت أن أستخلص من كلامهم أن ما يوجه نشاطهم ليس عقلهم وحريرتهم الذاتية بقدر ما هي الموضة ومزاج المجتمع. واضطر أحسنهم إلى التمثيل في التراجيديات وفي الأوبريتات، وفي المهازل الفرنسية والعروض السحرية، وكان يخيل إليهم دائها وبنفس الدرجة أنهم يسيرون في الطريق القويم ويعودون على الناس بالفائدة وهكذا ترين أن سبب الداء لا ينبغي البحث عنه في الممثلين. بل فيها هو أعمق، أي في الفن نفسه وفي نظرة المجتمع إليه». ولكن رسالتي هذه لم تفعل إلا أن أثارت كاتيا. فردت على: «كل منا يغني في واد. أنا لم أكتب لك عن الناس النبلاء الذين وهبوك ودهم، بل عن عصابة من الأفاقين الذين ليس لهم أية علاقة بالنبيل. إنهم قطيع من المتوحشين الذين لم يرقوا خشبة المسرح إلا لأنهم ما كانوا ليقبلوا في أي مكان آخر، والذين يعتبرون أنفسهم ممثلين فقط لأنهم وقحون ليس من بينهم موهبة واحدة، بل هناك الكثير من عاطلي المواهب والسكرارى والدساسين والنامين لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ما أحس بهم من مرارة لأن الفن، الذي أحبه كل هذا الحب، قد وقع في قبضة أناس أمقتهم أشعر بالمرارة لأن أفضل الناس لا يرون الشر إلا من بعيد ولا يريدون الاقتراب أكثر، وبدلا من أن يتدخلوا يكتبون بعبارة ركيكة كلاما عاما و مواعظ



لا حاجة لأحد بها وهلم جرا وعلى هذا المنوال.

ثم مر بعض الوقت وتسلمت الرسالة التالية: خدعت بلا رحمة لا أستطيع أن أعيش بعد الآن تصرف فيما يلي كما ترى إنني أحبك كأبي وكصديقي الوحيد سامحني. .

واتضح أن صاحبها ينتمي أيضاً إلى قطيع المتوحشين وفيما بعد استطعت أن أخمن من بعض التلميحات أنها حاولت أن تنتحر يبدو أن كاتيا تناولت السم ومن المرجح أن حالتها بعد ذلك كانت خطيرة، لأنني تلقيت الرسالة التالية من يالطا إلى حيث أرسلها الأطباء في أغلب الظن وفي آخر رسالة بعثت بها إلى طلبت أن أرسل إليها في يالطا ألف روبل بأسرع ما يمكن وقالت في ختام الرسالة: أعذرنى على هذه الرسالة الكئيبة فبالأمس دفنت طفل وبعد أن أمضت في القرم قرابة عام، عادت إلى البيت.

لقد استمر تجوالها حوالى أربعة أعوام، وطوال هذه الأعوام الأربعة، وينبغي أن أعترف، كان موقفى من كاتيا موقفا غريبا لا أحسد عليه فعندما صرحت الى سابقاً بأنها ستعمل ممثلة، ثم كتبت لي فيها بعد عن حبها، وعندما كانت روح التبذير تتملكها بين الحين والحين فأضطر من وقت لآخر، حسب طلبها، أن أرسل إليها تارة ألف روبل وتارة ألفين، وعندما كتبت لي عن عزمها على الموت، ثم



عن موت طفلها، كنت في كل مرة أحتار، وكانت كل مشاركتي في مصيرها تتجلى فقط في أنني كنت أفكر كثيراً وأكتب لها رسائل طويلة، مملّة، كان من الممكن ألا أكتبها على الإطلاق هذا بينما كنت بالنسبة لها بمثابة والدها وكنت أحبها كابنتي.

والآن تعيش كاتيا على بعد نصف كيلو متر منى استأجرت شقة من خمس غرف وأثنتها بصورة مريحة إلى حد كبير وبدوقها المعهود ولو حاول أحد أن يرسم صورة لجو شقتها لكان الكسل هو المزاج السائد في الصورة فللجسد الكسول هناك الأرائك اللينة، والمقاعد اللينة، وللأرجل الكسولة هناك السجاجيد، وللعيون الكسولة هناك الألوان الباهتة الكابية أو المطفأة، وللروح الكسولة على الجدران وفرة من المراوح الرخيصة والصور الصغيرة التي تطفئ فيها الصنعة المبتكرة على المحتوى، وحشد من الطاولات الصغيرة والأرفف المحملة بأشياء لاضرورة لها البتة ولا قيمة لها، وخرق لا شكل لها بدلاً من الستائر وكل ذلك، بالإضافة إلى الخوف من الألوان الزاهية ومن التناظر والرحابة، يدل بخلاف الكسل الروحي على تشوه الذوق الطبيعي وتستلقى كاتيا أياماً بكاملها على الأريكة وتقرأ الكتب ومعظمها من القصص والروايات ولا تخرج من البيت إلا مرة واحدة في اليوم، بعد منتصف النهار، لكي تزورنى.



أنا أعمل، وكاتيا جالسة على الكنبه غير بعيد عني صامته تتدثر بالशल كأنها مقرورة ولا يعوقنى حضورها عن التركيز، ربما لأنها محببة إلى نفسي أوروبا.

لأنني تعودت على زياراتها الكثيرة وهي بعد صغيرة وأحياناً أوجه إليها سؤالاً بطريقة آلية، فتجيب إجابة موجزة جداً أو، لكي أرتاح قليلاً، ألتفت نحوها وأنظر إليها وهي مستغرقة في التفكير، تقلب صفحات مجلة طبية ما أو جريدة وعندئذ ألاحظ أن وجهها لم يعد يحمل تعبير البراءة السابق أصبح الآن بارداً، لا مبالياً، شارداً مثل وجوه الركاب الذين يضطرون إلى انتظار القطار طويلاً وكما في السابق ترتدي ثياباً جميلة وبسيطة، لكن بإهمال، ويبدو واضحاً أن فستانها وتسريحة شعرها يعانيان الكثير من الوسائد والمقاعد الهزازة التي تستلقي عليها أياماً بكاملها ولم يعد فيها حب الاستطلاع السابق، ولا توجه إلى أسئلة، كأنها جربت كل شيء في الحياة ولا تنتظر سماع أي جديد.

وفي نهاية الساعة الرابعة تدب الحركة في الصالون وغرفة الجلوس إنها ليزا قد عادت من الكونسرفاتوار وجاءت معها بصديقاتها وأسمعهن يعزفن على البيانو ويجربن أصواتهن، ويقهقهن ويعدن يجور المائدة في غرفة الطعام فيترددن في الآنية.



وتقول كاتيا:

- وداعاً لن أزور اليوم أسرتك فليسامحوني ليس لدي وقت تعال عندي.

وعندما أودع كاتيا حتى المدخل تتفحصني من رأسي إلى قدمي بصرامة وتقول بأسى:

- كم هزلت لماذا لا تتعالج؟ سأذهب إلى سرجى فيودوروفتش وأدعوه.

فليكشف عليك.

- لا داعي يا كاتيا- لا أفهم ماذا تنتظر أسرتك حقاً ما أحلامهم وترتدي معطفها دفعة واحدة وفي تلك اللحظة لا بد أن يسقط على الأرض من شعرها المصنف بإهمال مشبكان أو ثلاثة ويمنعها الكسل وضيق الوقت من تسوية تسريحتها، فتدس خصلاتها تحت قبعتها كيفما كان وتتصرف.

وعندما أدخل غرفة المائدة تسألني زوجتي: - كاتيا التي كانت عندك الآن؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ما أغرب هذا.

فتقول لها ليذا مؤنبة:



- ماما إذا لم تكن تريد فلا داعيها لتوسل إليها راعين .
 - كما تشائين، ولكن هذا احتقار تجلس ثلاث ساعات في غرفة
 مكتبه ولا تتذكرنا عموماً، كما يحلو لها .

فأرياً وليزا تكرهان كاتيا وهذه الكراهية غير مفهومة وربما ينبغي أن تكون امرأة لكي تفهمها إنني مستعد أن أراهن برأسي على أنه من بين المائة والخمسين شاباً الذين أراهم كل يوم تقريباً في قاعتي، ومن المائة كهل الذين أقابلهم كل أسبوع، لا يكاد يوجد شخص واحد يستطيع أن يفهم الكراهية والاشمئزاز من ماضى كاتيا، أي من حملها دون زواج وطفلها غير الشرعي وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتذكر امرأة واحدة أو فتاة من معارفي لا تكن هذه المشاعر في نفسها سواء عن وعي أم بالغريزة وليس هذا راجعاً إلى أن المرأة أكثر فضيلة وطهراً من الرجل: فالفضيلة والطهر لا يختلفان كثيراً عن الرذيلة إذا لم يكونا منزهين عن المشاعر الشريرة إنما أرجع ذلك فقط إلى تخلف المرأة فالشعور الكئيب بالشفقة ووخز الضمير اللذان يكابدهما الرجل المعاصر عندما يرى المأساة، يشهدان لي بتهدنيه وسموه الأخلاقي، أكثر بكثير مما تشهد به الكراهية والاشمئزاز والمرأة المعاصرة ما زالت فياضة الدموع وفضة القلب كما كانت في العصور الوسطى وفي اعتقادي أن عين الحكمة هو ما يفعله أولئك



الذين ينصحون المرأة بأن تتربى كالرجل.

وزوجتي لا تحب كاتيا أيضاً لأنها كانت ممثلة، ولججودها، وتكبرها وشذوذها، وللعيوب العديدة التي تجيد كل امرأة دائماً اكتشافها في الأخرى. وبالإضافة إلى وإلى أفراد أسرتي يتعدى عندنا صديقتان أو ثلاث من صديقات ابنتي، وألكسندر أدولفوفتش جنيكر، المغرم بليزا والمرشح لطلب يدها وهو شاب أشقر، لا يتجاوز الثلاثين، متوسط القامة، بدين جداً، عريض المنكبين، بسالفين أحمرين قرب أذنيه، وشوارب مخضبة تضي على وجهه البدين الناعم تعبيراً يجعله أقرب إلى الدمية وهو يرتدي سترة قصيرة جداً، وصديرياً ملوناً، وسروالاً بكاروهات عريضة، واسعاً جداً من أعلى وضيقاً جداً من أسفل، وحذاء أصفر بلا كعب وعيناه جاحظتان كميني سرطان البحر، وربطة عنقه تشبه رقبة السرطان، بل يخيل إلى أنه تفوح من هيئة هذا الشاب كلها رائحة حساء سرطان البحر وهو يتردد علينا يومياً، ولكن لا يعرف أحد من أفراد أسرتي ما هو أصله، ولا أين درس وبأية موارد يعيش وهو لا يعزف ولا يغني، إلا أنه على صلة ما بالموسيقى والغناء، ويبيع في مكان ما معازف أشخاص ما، ويتردد كثيراً على الكونسرفتوار، ومتعرف على جميع المشاهير، ويشرف على الحفلات ويتحدث عن الموسيقى بثقة كبيرة، وكما



لاحظت، يوافقه الجميع عن طيب خاطر.

والأغنياء دائماً تجد بقريهم المتعيشين والعلم والفن كذلك ويبدو أنه لا يوجد في الدنيا علم أو فن يخلو من وجود أجسام غريبة مثل جنيكر هذا وأنا لست موسيقياً، وربما أكون مخطئاً بخصوص جنيكر الذي فضلاً عن ذلك لا أعرفه إلا قليلاً غير أنه تبدو لي مربية جداً ثقته وذلك الاعتزاز الذي يقف بجوار المعزف ويستمع إلى من يغني أو يعزف.

وحتى لو كنت مائة مرة شخصاً مهذباً ومستشاراً سرياً، فإذا كانت لك ابنة، فلن يحميك شيء من ذلك الابتذال الذي كثيراً ما تجلبه المغازلة والخطبة والزفاف إلى بيتك وتقمه على مزاجك فأنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أتقبل ذلك التعبير المهيب الذي يظهر على وجه زوجتي في كل مرة يجلس فيها جنيكر عندنا، ولا أستطيع أيضاً أن أسكت على زجاجات نبيذ الشاتو لافيت والبورت والشيري التي تقدم فقط من أجله، لكي يرى بعينه كيف نعيش في بحبوحة ورفاهية وكذلك لا أطيق ضحك ليذا المبتور الذي تعلمته في الكونسرفتوار، وطريقتها فيزر عينها عندما يكون في بيتنا رجال والشيء المهم أنني لا أستطيع أبداً أن أفهم لماذا يأتي إلى كل يوم ويتغدى معي مخلوق غريب تماماً عن عاداتي وعلمي، عن كل طراز حياتي، ومختلف تماماً



عن أولئك الناس الذين أحبهم وتهمس زوجتي والخدم بغموض بأنه العريس، ومع ذلك لا أفهم سبب وجوده وهو يثير في الاستغراب مثلما لو أجلسوا واحداً من قبيلة الزولو ليتغدى على مائدتي ويبدو لي غريباً أيضاً أن ابنتي، التي تعودت أن أعتبرها طفلة، تحب رباط العنق هذا، وهاتين العينين، وهذين الخدين الناعمين.

فيما مضى كنت أحب الغداء أو كنت لا أبالي به، أما الآن فهو لا يثير في إلا الملل والنرفزة فمنذ أن أصبحت صاحب المعالي وتوليت عمادة الكلية، اعتبرت أسرتي لسبب ما أنه لا بد من تغيير قائمة طعامنا ونظام غدائنا تغييراً تاماً وبدلاً من تلك الأطباق البسيطة التي ألفتها عندما كنت طالبةً ثم طبيبياً، أصبحوا يطعمونني الآن حساء بوريه تعوم فيه أشياء كالفتل البيضاء، وكلاوى بنبيذ الماديرا وحرمتنى رتبة الجنرال والشهرة نهائياً من حساء الكرنب، والشطائر اللذيذة، والأوز بالتفاح، وسمك الأبرميس بالعصيدة كما حرمتاني من الخادمة أجاشا، تلك العجوز الثرثرة المضحكة، التي حل محلها الآن يجور، هذا البليد المتعجرف، بفردة قفازه البيضاء على يده اليمنى وفترات الاستراحة قصيرة، ولكنها تبدو طويلة للغاية لأنه ليس لدينا ما نشغلها به لم يعد هناك المرح السابق والأحاديث التلقائية غير المتكلفة والنكات والضحكات، والملاحظات المتبادلة،



ولا تلك الفرحة التيكان بطل الرواية يحمل لقب المستشار السرية الذي كان يعادل في روسيا القيصرية رتبة الجنرال.

كانت تضطرم في نفوس الأطفال وزوجتي ونفسي عندما كنا نجتمع في غرفة الطعام كان الغداء بالنسبة لي، كرجل مشغول، وقتاً للراحة، ولرؤية الأسرة، وكان بالنسبة لزوجتي وللأولاد عيداً، صحيح أنه عيد قصير، ولكنه مشرق وبهيج، إذ يعرفون أنني، ولمدة نصف ساعة، لم أعد ملكاً للعلم أو للطلبة، بل ملكاً لهم وحدهم لا يشاركونهم فيه أحد لم تعد هناك تلك القدرة على السكر من كأس واحدة، لم تعد هناك أجاشا، ولا الأبرميس بالعصيدة، ولا ذلك الصخب الذي تقابل به حوادث الغداء الصغيرة مثل الشجار بين القطعة والكلب تحت الطاولة أو سقوط الرباط من على خد كاتيا في طبق الحساء.

إن وصف الغداء الآن كتناوله ليس لذيذاً فعلى وجه زوجتي ترسم ملامح مهابة وعظمة متكلفة وتعبيرهم مألوف وتتفحص أطباقنا بقلق وتقول: أرى أن اللحم المشوى لم يعجبكم لايعجبكم، أليس كذلك؟ وينبغي أن أقول: لا داعي للقلق يا عزيزتي، اللحم المشوي لذيذ جداً فتقول هي: أنت دائماً تناصرني يا نيقولاي ستيبانيتش، ولن تقول الحق أبداً فلماذا لم يأكل ألكسندر أدولفوفتش إلا قليلاً جداً؟، وهلم جرا طوال فترة الغداء كلها وليزا تضحك ضحكات مبتورة وتزر



عينها وأنظر إليها ويتضح لي تماماً الآن فقط، أثناء الغداء، أن العالم الداخلي لكليتهما قد أفلت من انتباهي منذ زمن بعيد ويراودني شعور بأنني كنت أحيأ في وقت ما في منزلي مع أسرة حقيقية، أما الآن فأتعدى في ضيافة زوجة غير حقيقية، وأرى ليزا غير حقيقية لقد حدث لهما تحول حاد، وغابت عني تلك العملية الطويلة التي جرى خلالها هذا التحول، فليس من الغريب أنني لا أفهم شيئاً ما سبب هذا التحول؟ أنا لا أعرف ربما تكمن المصيبة كلها في أن الله لم يهب زوجتي وابنتي تلك القوة التي وهبني إياها فمنذ الطفولة اعتدت أن أجاهه المؤثرات الخارجية وتمرست بما فيه الكفاية فكوارث المعيشة، مثل الشهرة ورتبة الجنرال والتحول من حياة اليسر إلى حياة الإنفاق الأكثر من الدخل والتعرف على المشاهير.. إلخ، لم تكد تؤثر في وبقيت سليماً معافى، أما زوجتي وليزا الضعيفتان، غير المتمرستين، فقد انهال ذلك كله عليهما مثل كتلة ثلج هائلة فسحقتهما.

وتتحدث الأنسات وجنيكر عن الفوجات والطباق الموسيقي وعن المطربين وعازفي البيانو، وعن باخ وبرامز، أما زوجتي، فخشية أن يرتاب أحد في جهلها بالموسيقى، تبتسم بتعاطف معهم وتدمدم: هذا رائع حقاً؟ يا سلام أما جنيكر فيأكل برصانة، ويمزح برصانة ويصغي بتعال متسامح إلى ملاحظات الأنسات وأحياناً تراوده الرغبة



في التحدث بلغة فرنسية ركيكة.

أما أنا فأعبس فيبدو أنني أسبب لهم جميعاً الحرج وهم أيضاً يحرجونني لم تكن تراودني من قبل أبداً مشاعر العداة الطبعي، ولكن شيئاً من هذا القبيل هو ما يعذبني الآن وأحاول أن أفتش في جنيكرك عن الملامح السيئة فقط، وسرعان ما أجدها فيمزقني الإحساس بأن شخصاً ليس من مقامي يجلس في محل خطيب ابنتي كما يؤثر وجوده في تأثيراً سيئاً من ناحية أخرى ففي العادة عندما أخلو إلى نفسي أو أتواجد في صحبة أناس أحبهم، لا أفكر أبداً في مآثري، وحتى إذا ما بدأت أفكر فيها، فإنها تبدو لي ضئيلة، كأنما لم أصبح عالماً إلا أمس أما في صحبة أناس مثل جنيكرك فتبدو لي مآثري جبلاً عالياً تختفي قمته في السحاب، وعند سفحه يدب أمثال جنيكرك ولا تكاد العين تلحظهم.

بعد الغداء أذهب إلى غرفة مكثبي وأشعل هناك غليونني للمرة الوحيدة طوال اليوم، المرة التي بقيت لي من عادتي السابقة القديمة السيئة في التدخين من الصباح إلى الليل وبينما أدخن تدخل زوجتي وتجلس لكي نتحدث إلى وكما في الصباح فإنني أعرف سلفاً عم سيدور الحديث.

وتبدأ تقول: ينبغي أن نتحدث بجديفة يا نيقولاى ستبانيتش أقصد



بخصوص ليزا لماذا لاتوليها اهتمامك؟.

- يعنى؟.

- أنت تتظاهر بأنك لا تلاحظ شيئاً، وهذا عيب لا يصح أن تكون غيرمبال جنيكرك عنده نية بخصوص ليزا فاذا تقول؟.

- لا أستطيع أن أقول إنه شخص سيئ لأنني لا أعرفه أما أنه لا يعجبني فقد قلت لك هذا ألف مرة.

ولكن هذا لا يصح لا يصح و تنهض وتذرع الغرفة بانفعال ثم تقول:لا يصح أن تنظر هكذا إلى خطوة جادة.

عندما يجري الحديث عن سعادة ابنتنا ينبغي أن نطرح جانباً الأشياء الشخصية أنا أعرف أنه لا يعجبك حسنا إذا رفضناه الآن، وأفسدنا الأمر فهل تضمن أن ليزالن تشكو منا طوال العمر؟ ليس العرسان الآن كثيرين، وقد يحدث ألا تسنح لها فرصة أخرى إنه يحب ليزا جداً ويبدو أنه يعجبها بالطبع ليس لديه مركز واضح، ولكن ما العمل؟ ربما استطاع بمشيئة الله أن يجد وظيفة ما إنه من عائلة طيبة وغني ومن أين عرفت هذا؟.

هو الذي قال لدى والده في خاركوف دار كبيرة وعزية قرب خاركوف باختصار يا نيقولاى ستيبانيتش ينبغي عليك حتماً أن



تسافر إلى خاركوف.

- لماذا؟

لتحري الأمر هناك لديك هناك أساتذة معارف، سيساعدونك
كان بوديلوسافرت أنا، ولكني امرأة لا أستطيع.

فأقول عيباً: لن أذهب إلى خاركوف.

تفزع زوجتي، ويظهر على وجهها تعبير ألم مضمّن وتتوسل إلى
باكية: - أرجوك يا نيقولاي ستيبانيتش أرجوك خفف عني هذا
الحمل إنني أتعذب وأشعر بالألم وأنا أتطلع إليها فأقول بلطف حسنا،
يا فاريا، إذا شئت فسأسافر إلى خاركوف وسأفعل كل ما تريدين.

وتجفف دموعها بالمنديل وتتصرف إلى غرفتها لتبكي وأبقى
وحدى وبعد فترة يشعلون الضوء ومن الفوتيلات وغطاء المصباح
ترتمي على الجدران والأرض الظلال التي ملتها منذ زمن بعيد،
وعندما أنظر إليها يخيل إلى أن الليل قد حل وأن أرقى الملعون قد
بدأ أتمدّد على السرير، ثم أنهض، وأذرع الغرفة، ثم أتمدّد مرة أخرى
وعادة يبلغ توترى العصبي قمته بعد الغداء وقبيل المساء وبلا سبب
أخذ في البكاء، وأخفي رأسي تحت الوسادة وأخشى في هذا الوقت
أن يدخل على أحد فجأة، أخشى أن أموت بغتة، وأخجل من دموعي،



وعموماً تجيش روعي بصورة لا تطاق وأشعر أنني لم أعد أطيع رؤية المصباح أو الكتب أو الظلال على الأرض، أو سماع الأصوات المتناهية من غرفة الجلوس وتدفعني قوة مجهولة غريبة بعنف إلى خارج شقتي فأقفز ناهضاً، وأرتدي معطفي على عجل، وأخرج بحذر حتى لا يلاحظ أحد من أهل البيت إلى أين أذهب؟.

الإجابة عن هذا السؤال تقبع في رأسي منذ وقت طويل: إلى كاتيا تستلقي كالعادة على كنبه تركية أو على أريكة وتقرأ كتابا ما وعندما ترانى ترفع رأسها بكسل و تجلس وتمد لى يدها .

وأنت دائماً مستلقية أقول بعد صمت قصير واستراحة هذا مضر بصحتك هلا وجدت لك عملاً هه؟ أقول هلا وجدت لك عملاً أي عمل؟ المرأة لا يمكن أن تكون سوى عاملة بسيطة أو ممثلة فليكن إذا لم يكن من الممكن أن تصبحي عاملة فلتعلمي ممثلة تصمت فأقول بشيء من المزاح: تزوجي إذن ليس هناك من أتزوجه ولا داعي لا يمكن أن تعيشي هكذا بلا زوج؟ يا للتفاهات الرجال ما أكثرهم، المهم أن تتوفر الرغبة هذا عيب يا كاتيا ما هو العيب؟ هو ما قلته الآن وعندما تلاحظ كاتيا استيائي، ورغبة منها في محو الانطباع السيئ، تقول: هيا بنا تعال هنا انظر وتقودني إلى غرفة صغيرة، مريحة للغاية، وتقول مشيرة إلى مكتب:



- انظر أعددته لك تعمل هنا تعال كل يوم وأحضر معك كتبك وأوراقك في المنزل يعوقونك عن العمل هل ستعمل هنا؟ هل تريد؟ ولكي لا أحزنها برفضى أقول لها إنني سوف أعمل عندها، وأن الغرفة أعجبتني جدا ثم نجلس معاً في الغرفة المريحة ونشعر في الحديث. الجو الدافئ المريح، ووجود شخص لطيف لا يثيران في الآن الإحساس بالرضى كما كان في الماضي، بل رغبة قوية في الشكوى والتذمر والسبب ما يبدو إلى أنني إذا ما تأففت واشتكت فسوف أشعر بالراحة فأبدأ القول متهدداً الحال سيئة يا عزيزتي في غاية السوء ماذا حدث؟.

- أتدريين ما هي المسألة يا صديقتي؟ إن أعظم وأسمى حقوق الملوك هو حق العفو وكنت أنا دائماً أتمتع بهذا الحق دون حدود لم أصدر حكماً على أحد أبداً، وكنت متسامحاً، أغفر ذات اليمين وذات الشمال للجميع عن طيب خاطر وعندما كان الآخرون يحتجون ويسخطون كنت أنا فقط أنصح وأقنع وكان كل سعى طوال حياتي أن تكون صحبتي محتملة لأسرتي ولطلبتي ولرفاقي ولخدمي وأنا أعلم أن موقفي هذا من الناس قد ربي كل من جمعتهم الصدف بي ولكن الآن لست ملكاً إن ما يحدث لي ليس جيداً إلا بالعبيد ففي رأسي تدور ليل نهار أفكار شريرة أما في روعي فقد عششت مشاعر لم



أكن أعرفها من قبل فأنا أكره، وأحتقر، وأسخط وأغضب وأخاف أصبحت مسرفاً في الصرامة والتشدد و العصبية والجفاء والريبة وحتى ما كان قبلاً يدفعني إلى أن أقول قفشة أو أضحك ببشاشة، أصبح يثير في الآن شعوراً حضاً وتغير في أيضاً منطق تفكيرى: من قبل كنت أحتقر النقود فقط، أما الآن فأكن مشاعر البغض لا للنقود، بل للأغنياء، كأنما الذنب ذنبهم ومن قبل كنت أمقت القهر والاستبداد أما الآن فأمقت الأشخاص الذين يزاولون القهر، وكأنما هم المذنبون وحدهم ولسنا نحن جميعاً الذين لا نعرف كيف نربي بعضنا بعضاً فما معنى هذا؟ إذا كانت الأفكار والمشاعر الجديدة ناتجة عن تغير المعتقدات، فمن أين جاء هذا التغير؟ هل أصبح العالم أسوأ وأنا أفضل، أم أنني كنت سابقاً أعمى وغير مبال؟ وإذا كان هذا التحول قد حدث نتيجة تدهور عام للقوى البدنية والذهنية فأنا مريض، وكل يوم ينقص وزنى فحالتى إذن تعيسة فمعنى ذلك أن أفكارى الجديدة غير طبيعية، مريضة، وينبغي على أن أخجل منها وأعتبرها تافهة فتقاطعني كاتبها قائلة:

- ليس للمرض دخل هنا؛ كل ما هنالك أنك ببساطة فتحت عينيك لقد رأيت ما لم تكن تريد أن تلاحظه سابقاً لسبب ما في رأيي أنه ينبغي عليك قبل كل شيء، أن تقطع صلتك بأسرتك وتهجرها.



دعيك من هذا الهراء.

-ولكنك لا تحبهم، فلم المرءاة؟ وهل هذه أسرة؟ مخلوقات تافهة لو ماتوا اليوم فلن يلحظ غيابهم أحد غداً.

كاتيا تحنقر زوجتي وابنتي بنفس الدرجة التي تكرهانها بها ومن الصعب أن نتحدث في زماننا هذا عن حق الناس في احتقار بعضهم البعض ولكن إذا ما تبيننا وجهة نظر كاتيا واعتبرنا هذا الحق قائماً، فسنرى أن لها فعلاً الحق في احتقار زوجتي وليزا، كما لهاتين نفس الحق في كراهيتها وتردد كاتيا:

- مخلوقات تافهة هل تغديت اليوم؟ كيف لم ينسوا دعوتك إلى الطعام؟ وكيف لا يزالون يذكرون حتى الآن أنك موجود؟ فأقول بصرامة كاتيا، أرجوك أن تسكتي.

- وهل تظن أنه يسرنى الكلام عنها؟ ما كان أسعدني لو كنت لا أعرفها على الإطلاق فلتسمع كلامي يا عزيزي: اترك كل شيء وارحل سافر إلى الخارج وكلما أسرعت بذلك كان أفضل.

- ما هذا الكلام الفارغ والجامعة؟

والجامعة أيضاً أتركها ما جدواها؟ أنت تحاضر منذ ثلاثين سنة فأين هم تلامذتك؟ وهل لديك منهم علماء مشهورون كثيرون؟ هيا



عدهم أما تفريخ هؤلاء الدكاترة الذين يستغلون الجهل ويربحون
مئات الآلاف، فلا يحتاج إلى أن تكون شخصاً موهوباً وطيباً أنت
زائد عن الحاجة.

فأقول مرتاعاً.

- يا إلهي كم أنت حادة كم أنت حادة اسكتي وإلا ذهبت أنا لا
أستطيع أن أرد على حدتك.

وتدخل الخادم لتدعونا لتناول الشاي وبجوار الساور يتبدل مجرى
الحديث والحمد لله وبعد أن نفست عن شكواى تراودني الرغبة في
إطلاق العنان لهوى آخر من أهواء الشيخوخة: للذكريات فأحكي
لكاتيا عن ماضي، ولدهشتى الشديدة، أروى لها تفاصيل لم أكن
حتى أظن أنها باقية في ذاكرتي وتصغي هي إلى بتأثر، وبعزاز
وبأنفاس مبهورة وأحب بصفة خاصة أن أحكي لها عن فترة دراستي
في المدرسة الدينية وكيف كنت أحلم بالالتحاق بالجامعة وأحكي لها:

كنت أحيانا أتجول في حديقة مدرستنا الدينية وتحمل الريح من
حانة بعيدة صرير أكورديون وأغنية، أو تمرق بجوار سور المدرسة
عربة ترويكا بأجراس، فيكفي هذا تماماً لكي يغمر القلب فجأة
إحساس بالسعادة، وليس القلب فقط، بل والبطن والساقين واليدين



وأسمع الأكورديون أو رنين الأجراس المتلاشي فأتصور نفسي طبيباً وأرسم الصور كل صورة أبهي من سابقتها وها هي ذي أحلامي كما ترين، تحققت وحصلت على أكثر مما كنت أحلم به كنت طوال ثلاثين عاماً أستاذاً محبوباً، وكان لي رفاق ممتازون، وحظيت بشهرة محترمة أحببت، وتزوجت عن حب جارف، وأنجبت أولاداً وباختصار، إذا ما نظرت إلى الماضي، تبدو لي حياتي كلها تشكيلاً جميلاً صيغ بموهبة لم يبق لي الآن سوى ألا أفسد النهاية ومن أجل ذلك ينبغي أن أموت ميتة إنسانية فإذا كان الموت خطراً بالفعل، فينبغي إذن أن أواجهه كما يليق بمعلم وعالم ومواطن دولة مسيحية: بروح عالية ونفس مطمئنة لكني أفسد النهاية إنني أغرق وأهرع إليك، طالباً العون، فتقولين لي: أغرق، فهذا ما ينبغي أن يكون.

وهنا يدق جرس الباب ونعرف أنا وكاتيا من القادم فنقول: لا بد أنه ميخائيل فيودوروفتش.

وبالفعل يدخل بعد دقيقة زميلي أستاذ الآداب ميخائيل فيودوروفتش، وهو رجل طويل، متناسق البنية، في حوالي الخمسين، بشعر أبيض كثيف وحاجبين أسودين، ووجه حليق إنه رجل طيب وزميل رائع ويرجع نسبه إلى عائلة نبلاء عريقة، كانت محظوظة جداً وموهوبة، ولعبت دوراً ملحوظاً في تاريخ أدبنا وثقافتنا أما هو فذكي،



موهوب، ومثقف جداً، ولكنه لا يخلو من بعض الشذوذ ونحن جميعاً إلى حد ما شاذون وغريبو الأطوار، ولكن شذوذه شيء خارق ويشكل خطورة على معارفه ومن بين هؤلاء أعرف الكثيرين الذين لا يرون، بسبب شذوذه، مزاياه العديدة وعندما يدخل إلينا يمضى فترة طويلة في نزع قفازه، ويقول بصوت محملى: مرحباً تشربون الشاي؟ هذا مناسب تماماً، فالبرد جهنمى.

ثم يجلس إلى المائدة، ويتناول كوباً ويشرع في الكلام على الفور وأهم ما يميز طريقته في الكلام نبرته المازحة دوماً، وهي خليط ما من الفلسفة والحذر مثل حديث حفارى القبور عند شكسبير هو دائماً يتحدث عن أشياء جدية، ولكنه لا يتحدث أبداً بجدية وأحكامه دائماً حادة، انسيابية، ولكن بفضل نبرته الناعمة الهادئة فإن حدته وسبابه بشكل ما لا يجرحان السمع، وسرعان ما يألفها المرء وكل مساء يأتي معه بخمس أو ست نكات من حياة الجامعة، وعادة ما يبدأ بها عندما يجلس إلى المائدة حفارو القبور في مسرحية شكسبير هملت آه يا إلهي يقول مثلها وهو يلعب حاجبيه الأسودين بسخرية لم أكن أظن أن في الدنيا مثل هؤلاء المهرجين فتسأله كاتيا: - ماذا هناك؟

كنت خارجاً اليوم من المحاضرة، فقابلت على الدرج هذا الأبله العجوز، زميلنا فلان الفلاني كان يسير كالعادة ماداً ذقته الحصاني إلى



الأمم وبيحث عمن يمكن أن يشكو له من صداعه وزوجته وطلبته الذين لا يحضرون محاضراته وقلت لنفسى: يا للمصيبة، لقد رأيت، إذن هلكت وضاع كل شيء وهلم جرا وعلى هذا المنوال وأحياناً يبدأ هكذا: حضرت بالأمس المحاضرة العامة التي ألقاها زميلنا فلان الفلانى.

إنني مندهش كيف أن الأم المرضعة وهي تسمية قديمة بطلقها الخريجون على المدرسة والطف يا رب من كلام الليل، تجرؤ على تقديم هؤلاء الحمقى والبلداء المسجلي الماركة أمثال فلان الفلانى هذا للجمهور إنه غبي أوروبى عفواً، ولكنك لن تجد له مثيلاً لو بحثت في أوروبا كلها بمصباح في وضح النهار تصوروا إنه يحاضر وكأنما يمصمص لدائن: صو صوصو يمتلكه الارتباك، ولا يميز خطه، وأفكاره كسيحة تتحرك بسرعة الأرشمندريت الراكب دراجة، وأهم شيء أنك لا تستطيع أن تعرف ماذا يريد أن يقول ملل فظيع يتساقط منه الذباب هذا الملل يمكن أن يقارن فقط بذلك الملل الذي يتولانا في صالة الاحتفالات أثناء الحفل السنوي، عند إلقاء الكلمة التقليدية، عليها اللعنة وعلى الفور يتحول حديثه بفتة منذ حوالي ثلاث سنوات، ونيقولاي ستيبانوفتش يذكر، اضطررت إلى إلقاء هذه الكلمة الجو حار، خانق والسترة الرسمية تضغط تحت الإبطين، عذاب رهيب قرأت نصف ساعة، وساعة، وساعة ونصف،



وساعتين ثم قلت لِنفسي حسناً، الحمد لله، لم تبق إلا عشر صفحات وكان في نهاية الكلمة أربع صفحات يمكن تخطيها تماماً، فقررت ألا أقرأها وقلت في نفسي: إذن لم يبق إلا ست صفحات فقط ولكن تصوروا، نظرت بطرف عيني فرأيت أمامي في الصف الأول جنراً لبشريط و كاهناً ما، جالسين متجاورين تصلب المسكينان من الملل، وهما يحملقان بشدة حتى لا يناما، ومع ذلك يحاولان أن يرسما على وجهيهما الانتباه، ويتظاهران بأن كلمتي مفهومة لهما وتعجبهما فقلت في نفسي: حسناً، إذا كانت تعجبكما فهাকা كيدا فيكما وقرأت الصفحات الأربع عندما يتكلم لا تبتسم إلا عيناه وحاجباه، مثلما لدى الأشخاص الساخرين عموماً ولا يبدو في عينيه أنذاك كراهية أو غل، بل الكثير من الفكاهة اللاذعة وذلك المكر الثعلبي الخاص الذي قد تلمسه فقط لدى الأشخاص الدقيقى الملاحظة وإذا ما استطردت في الحديث عن عينيه فسأذكر ميزة أخرى لاحظتها فيها فعندما يتناول من كاتيا الكوب أو يصغي إلى ملاحظة تقولها، أو يشبعها بنظره عندما تخرج لغرض ما من الغرفة لفترة قصيرة، فإنني ألحظ في نظرتة شيئاً وديعاً، متوسط، طاهراً وتحمل الخادم الساور، وتضع على الطاولة قطعة جبن كبيرة وفواكه وزجاجة من شمبانيا القرم، وهو نوع سيئ من النبيذ أحبته كاتيا عندما أقامت في القرم ويأخذ ميخائيل فيودور وفتش من الرف شدتين من ورق اللعب ويشرع



في لعب السوليتير وحسبما يؤكد فإن بعض أنواع السوليتير يتطلب فطنة وانتباهاً كبيرين، ومع ذلك فلا يكف وهو يرص الورق عن تسلية نفسه بالحديث وتتابع كاتيا أوراقه بانتباه وتساعده بحركات وجهها أكثر مما بالكلمات وهي لا تشرب طوال المساء أكثر من كأس بيبيد، وأشرب أنا ربع كوب، أما بقية الزجاجات فتكون من نصيب ميخائيل فيودوروفتش، الذي يستطيع أن يشرب كثيراً ولا يسكر أبداً.

وأثناء لعب السوليتير نقرر مختلف الأمور، وفي الأساس ما يتعلق منها بالقضايا السامية وأكثر شيء يصيبه كلامنا هو أكثر شيء نحبه، أي العلم.

يقول ميخائيل فيودوروفتش بأناة: - العلم، ولله الحمد، فأت زمانه انتهى أجله نعم وقد بدأت البشرية تشعر بالحاجة إلى أن تستبدل به شيئاً آخر لقد نبت في تربة التحيز أو شب على التحيز، وأصبح يشكل الآن خلاصة التحيز، مثل جداته الباليات: الخيميائي القديمة والميتافيزيقا والفلسفة وبالفعل، ما الذي قدمه للبشر؟ ليس هناك إلا فرق ضئيل، ظاهري فقط، بين العلماء الأوروبيين والعلماء الصينيين الذين ليس لديهم أية علوم لم يعرف الصينيون العلم، فما الذي خسروه بذلك؟

فأقول أنا: - والذباب أيضاً لا يعرف العلم، فماذا إذن؟



- لا داعي للغضب يا نيقولاى ستيبانيتش إنني أتكلم هنا فقط، فيما بيننا أنا أكثر حذراً مما تظن، ولن أقول ذلك علانية، أعود بالله هناك لدى العامة حكم متحيز، ففي اعتقادهم أن العلم والفن أسمى من الزراعة والتجارة، أسمى من الحرف وطائفتا تعيش من هذا التحيز ولن أكون أنا، ولا أنت، من يهدمه أعود بالله وخلال السوليتير ينال الشباب أيضاً حظه.

- صغرت نفوس جمهورنا حالياً يقول ميخائيل فيودوروفيتش متتهداً أنا لا أعني فقط المثل العليا وخلافه، ولكن لو أنهم على الأقل كانوا قادرين على العمل والتفكير كما يجب بالضبط كما قال الشاعر: أتطلع محزوناً إلى هذا الجيل فتوافقه كاتيا:

نعم، صغرت نفوسهم جداً أخبرني، هل كان لديك في السنوات الخمس أو العشر الأخيرة طالب واحد بارز؟.

لا أدري كيف الحال عند الأساتذة الآخرين ولكنني لا أذكر أحداً لدى أنا رأيت في حياتي الكثير من الطلبة ومن علماتكم الشبان، وكثيراً من الممثلين فاذا؟ لم يتسن لي أن ألتقي ليس ببطل أو صاحب موهبة فحسب، بل حتى بمجرد شخص طريف كلهم رماديون، بلا مواهب، ومحشون ادعاء.



في كل مرة تترك في هذه الأحاديث عن صغر النفوس انطباعاً، وكأنها سمعت عفواً حديثاً سيئاً عن ابنتي ويخفقني أن الاتهامات لا أساس لها، وتقوم على أحكام عامة مستهلكة منذ زمن بعيد وعلى عفاريت مرعبة مثل صغر النفوس وغياب المثل العليا، أو الاستشهاد بالماضي الجميل إن أي اتهام، حتى لو قيل في صحبة نسائية، ينبغي أن يكون مصاغاً بشكل محدد ما أمكن، وإلا فلن يكون اتهاماً بل اغتياباً ولفواً لا يليق بأناس فاضلين.

أنا رجل عجوز، أعمل منذ ثلاثين سنة، ولكني لا ألاحظ صغراً في النفوس أو ضياعاً للمثل العليا، ولا أعتبر أن الحال اليوم أسوأ من قبل وحاجبي نيقولاى، الذي تعتبر خبرته في هذا المجال ذات قيمة، يقول إن طلاب اليوم ليسوا أحسن أو أسوأ من السابقين.

ولو سئلت عما لا يعجبني في تلاميذى الحاليين لما أجبته إلا بعد روية، وبكلمات قليلة، ولكنها محددة بدرجة كافية إنني أعرف عيوبهم ولذلك فلا حاجة بي إلى الاستعانة بضباب الأحكام العامة لا يعجبني أنهم يدخنون، ويتناولون المشروبات الكحولية، ويتزوجون متأخراً، لا يعجبني أنهم مهملون، وفي حالات كثيرة لا مبالون إلى درجة أنهم يسكتون على وجود زملاء جوعى بينهم ولا يسددون ديونهم لجمعية مساعدة الطلبة، وهم لا يعرفون لغات جديدة ويخطئون



في التعبير باللغة الروسية وأقرب مثال كان بالأمس، عندما اشتكى لى أحد زملائي، أستاذ الوقاية، من أنه يضطر إلى مضاعفة وقت المحاضرات لأن معرفتهم بالفيزياء ضعيفة ولا يعرفون إطلاقاً علم الأرصاد الجوية وهم يتأثرون عن طيب خاطر بالأدباء الجدد، ليس حتى بأفضلهم ولكنهم لا يباليون أبداً بالكلاسيكيين أمثال شكسبير ومرقص أوريلليوس، وأبكتيتس أو باسكال وفي عدم القدرة هذا على التمييز بين الكبير والصغير يتجلى بأوضح صورة نقص خبرة الحياة لديهم وكل القضايا الصعبة ذات الطابع الاجتماعي إلى هذا الحد أو ذاك مثل قضية الهجرة يحلونها بجمع التبرعات وليس عن طريق البحث العلمي والتجربة، رغم أن هذا الطريق في تناول أيديهم كلية ويتفق تماماً ومهامهم وأهدافهم وهم يقبلون عن طيب خاطر على تولي مناصب الأطباء المقيمين والمعاونين وأمناء المعامل والأطباء غير المقيمين، ومستعدون لشغل هذه الوظائف حتى سن الأربعين، على الرغم من أن الاستقلال، والإحساس بالحرية والمبادرة الذاتية لا تقل غني في العلم عنها، مثلاً، في الفن أو التجارة أنا لدى طلاب ودارسون، ولكن ليس لدي معاونون وورثة، لذلك فأنا أحبهم وأفرح بهم ولكني لا أفخر بهم إلخ... إلخ.

إن مثل هذه النواقص، أيًا كان مقدارها، لا يمكن أن تولد مزاج



التشاؤم أو السخط إلا في نفس إنسان جبان فكلها ذات طابع عارض، مرحل، وترتبط ارتباطاً تاماً بظروف الحياة وتكفي مجرد عشر سنوات لكي تختفي، أو لتخلى مكانها لنواقص جديدة أخرى، لا محيد عنها، ستخيف بدورها الجبناء إن نقائص الطلبة كثيراً ما تثير استيائي، ولكن هذا الاستياء لا يقارن بتلك الفرحة التي أشعر بها طوال ثلاثين عاماً عندما أتحدث مع تلاميذي وأحاضرهم، وأراقب علاقاتهم وأقارنهم بأشخاص من خارج بيئتهم.

يمضي ميخائيل فيودوروفتش في اغتيابه، وكاتيا تصغي إليه، ولا يلاحظان لى أية هوة سحيقة تشدهما شيئاً فشيئاً مثل هذه التسلية التي تبدو بريئة، هذا الطعن في الأقربين لا يلاحظان أن حديثهما العادي يتحول تدريجياً إلى امتهان وازدراء، وأنهما ينجران إلى استخدام حتى أساليب الافتراء يقول ميخائيل فيودر ووفتش:

- يا لها من نماذج مضحكة قد يصادفها المرء بالأمس ذهبت إلى زميلنا يجور بروفتش فوجدت عنده تلموذا من تلاميذك، أظن من الصف الثالث وجهه يبدو يعنى من طراز دوبرولوبوف، وعلى جبينه أثر الفكر العميق وتحدثنا قلت له: هكذا إذن أيها الشاب لقد قرأت أن أحد الألمان نسيت اسمه استخرج من المخ البشرى عقاراً جديداً هو الكالويد إيديوتين فماذا تظنان؟.



لقد صدق، بل رسم على وجهه دلائل الاحترام، كأنما يريد أن يقول: أرايت من نحن الأطباء ومنذ فترة قريبة ذهبت إلى المسرح جلست وإذا أمامي، في الصف التالي يجلس اثنان: أحدهما من عندنا، يبدو من طلبة الحقوق، والآخراشعث الشعر من طلبة الطب وكان طالب الطب ثم كإسكافي لا يولى خشبة المسرح أدنى اهتمام بل يغط في النوم ورأسه يسقط ولكن ما إن يشرع أحد الممثلين في إلقاء منولوج بصوت عال، أو بمجرد أن يرفع صوته، حتى ينتفض صاحبنا الدكتور ويلكز جاره في جنبه ويسأله: ماذا قال؟ شيء نبيل؟ فيرد عليه الذي من عندنا: نبيل فيصرخ الدكتور: برافو نبيل برافوا لقد جاء هذا المأفون الثمل إلى المسرح لا من أجل الفن بل من أجل النبل حضرته يريد نبلاء.

بيننا كاتيا تصغي وتضحك وضحكها غريب: إذ تتعاقب الشهقات والزفرات بسرعة وبإيقاع منتظم، ويبدو كأنها تعزف على الأكورديون، ولكن لا يضحك في وجهها أثناء ذلك سوى خياشيمها أما أنا فأشعر بالخور والقنوط ولا أدري ماذا أقوال وتفلت أعصابي فأنفجر وأقفز من مكاني صائحا:

- كفي اسكتا ما لكما تجلسان هنا كضفدعين وتسممان الجو بأنفاسكما؟ كفى.



ولا أنتظر حتى ينتهيا من اغتياهما فأستعد للانصراف إلى البيت وبالفعل حان الوقت، فالساعة الحادية عشرة.

- أما أنا فسأبقى قليلاً يقول ميخائيل فيودور وفتش - هل تسمحين ياكاترينا فلاديميروفنا؟ فترد كاتيا: أسمحني هذه الحالة أرجو أن تأمري بتقديم زجاجة أخرى ويرافقانني بالشموع إلى المدخل، وبينما أرتدي معطفي يقول ميخائيل فيودور وفتش: في الأيام الأخيرة هزلت جداً وهرمت يا نيقولاي ستيبانوفتش ماذا بك؟ هل أنت مريض؟.

- نعم، مريض قليلاً فتضيف كاتيا عابسة: - ولا يتعالج.

- لماذا لا تتعالج؟ كيف ذلك؟ من يصن نفسه، يا عزيزي، يصنه الله بلغ تحياتي لك وأسفي لعدم زيارتي لهم قريباً، قبيل سفري إلى الخارج، سأتى للتوديع من كل بد سأسافر في الأسبوع القادم.

أخرج من عند كاتيا منزعجاً، مفزوعاً من الحديث عن مرضي، وغير راض عن نفسي وأسأل نفسي: ألا يجب حقا أن أتعالج لدى أحد زملائي؟ وعلى الفور أتصور زميلي هذا وهو يتجه إلى النافذة في صمت بعد أن يكشف على ويفكر، ثم يلتفت نحوي، ويقول بنبرة لا مبالية، وهو يحرص ألا اقرأ الحقيقة على وجهه: حتى الآن لا أرى



شيئاً ذا بال ومع ذلك يا زميلي، أنصحك أن تتوقف عن التدريس وستسلبني هذه الكلمات آخر أمل لدى وهل هناك من يعيش بلا أمل؟ والآن، وعندما أقوم أنا بتشخيص مرضى وعلاج نفسي بنفسي يراودني الأمل أحياناً بأن يكون جهلى قد خدعني، وبأنى مخطئ بخصوص السكر والزلال اللذين أجدهما في جسمى، وبخصوص القلب، وتلك الانتفاخات التي لاحظتها عندي مرتين في الصباح وعندما أعيد قراءة كتب الطب الباطني باجتهاد الموسوسين وأغير أنواع الأدوية كل يوم يخيل إلى دائماً أنني سأتوصل إلى شيء ما مطمئن ما أنفه هذا كله.

وسواء كانت السماء ملبدة بالغيوم أم يتلألأ القمر والنجوم على صفحتها فإنني، إذ أتطلع إليها في كل مرة وأنا عائد إلى البيت، أفكر في أن الموت قريباً سيدركنى ومن المفروض إذن أن تكون أفكارى في هذه اللحظة عميقة كالسمااء وساطعة ومذهلة ولكن لا إنني أفكر في نفسي، وفي زوجتي، وفي ليذا، وفي جنيكرك، وفي الطلبة، وعموماً في الناس أفكر بنية سيئة، بضحالة، بمكر بينى وبين نفسي، وفي هذه الحالة يمكن التعبير عن وجهة نظري بكلمات ذكرها أراكتشيف الشهير في إحدى رسائله الشخصية: الطيب في الدنيا لا يمكن أن يوجد بدون السيئ، والسيئ دائماً أكثر من الطيب أي إن كل شيء



مقيت، ولا معنى للحياة، أما السنوات الاثنتان والستون التي عشتها فينبغي اعتبارها ضائعة وأنتبه إلى نفسي فأحاول أن أقنعها بأن هذه الأفكار عارضة، ومؤقتة، وليست عميقة الجذور، فإذا بي أفكر على الفور: إذا كان الأمر كذلك فلماذا أجد لدى ميلا للذهاب كل مساء إلى هذين الضفدعين؟ وأقطع على نفسي عهداً بالأأ أذهب بعد الآن إلى كاتيا أبدأ، رغم علمي بأنني حتماً سأذهب إليها غداً من جديد وبينما أقرع جرس بيتي، ثم أثناء صعودي الدرج أشعر بأنه ليس لدى أسرة بالفعل، وليس هناك رغبة في استعادتها من الواضح أن الأفكار الأراكشيفية الجديدة ليست عارضة ولا مؤقتة بل تتملك كياني كله وأستلقي في السرير معذب الضمير، مكتئب الفؤاد، كسولاً، لا أكاد أحرك أطرافني، وكأنما ازداد وزني وسرعان ما أنام ثم يأتي الأرق.

يحل الصيف، فتتغير الحياة تدخل على ليذا ذات صباح وتقول بلهجة مازحة: هيا يا صاحب المعالي كل شيء جاهز ويسحبون معالي إلى الخارج، ويجلسونه في عربة، ويرحلون به ليس لدى ما أفعله أثناء الطريق فأقرأ اللافتات بالعكس، من اليمين إلى الشمال تتحول كلمة تراكتير إلى ريتكارت هذه الكلمة يمكن أن تصلح اسم عائلة لإحدى البارونات: البارونة ريتكارت ثم أمر عبر حقل، بجوار مقبرة لا تترك في نفسي أي أثر بالرغم من أنني سوف أستقر فيها



قريباً ثم أعبّر غابة ثم حقل مرة أخرى ليس هناك شيء شيق وبعد سفر ساعتين يسحبون معالي إلى الطابق الأرضي في دار ريفية، ويسكنونه في غرفة غير كبيرة، بهيجة جداً، بورق جدران أزرق فاتح، في الليل أكابد الأرق كما في السابق، ولكنني في الصباح لا أنهض ولا أسمع حديث زوجتي، بل أرقد في السرير لا أنام ولكنني أشعر بحالة نعاس وشبه غيبوبة، عندما تعرف أنك لست نائماً ولكنك ترى أحلاماً وفي منتصف النهار أنهض، وأجلس بحكم العادة إلى المكتب، ولكنني لا أعمل بل أسلي نفسي بكتب فرنسية في أغلفة صفراء ترسلها إلى كاتيا من الناحية الوطنية كان من المفروض بالطبع أن أقرأ لمؤلفين روس، إلا أنني، في الحقيقة، لا أجد ميلاً إلى قراءة أعمالهم فالأدب الراهن كله، باستثناء أدبيين عجوزين أو ثلاثة، لا يبدو لي أدباً، بل ضرباً من الحرف اليدوية، يوجد فقط لكي يلقي التشجيع دونما إقبال على استخدام منتجاته فأفضل منتجات الحرف اليدوية لا يمكن اعتبارها رائعة ولا يمكن إبداء الإعجاب الصادق بها لكن وهذا ما ينطبق على كل الأعمال الأدبية الجديدة التي قرأتها في السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة: فليس فيها عمل واحد رائع ولا تستطيع أن تذكرها دون لكن فهي إما ذكية وسامية ولكن غير موهوبة، وإما موهوبة وسامية ولكن غير ذكية، وإما موهوبة وذكية ولكن غير سامية.



ولا أستطيع أن أقول إن الكتب الفرنسية موهوبة وذكية وسامية فهي أيضاً لا تنال رضاي لكنها ليست مملة كالكتب الروسية ولا يندر أن تجد فيها عنصر الإبداع الرئيسي، الذي يفتقده الكتاب الروس، ألا وهو الإحساس بالحرية الذاتية ولا أذكر كتابا روسيا حديثاً واحداً لم يسع مؤلفه، من الصفحات الأولى، إلى تكبير نفسه بشتى الاصطلاحات والقيود والصفقات التي يعقدها مع ضميره فأحدهم يخشى أن يتحدث عن الجسد العاري، والآخر قد أوثق يديه وقدميه بالتحليل النفسي، والثالث بحاجة إلى نظرة حانية إلى الإنسان، والرابع يسود صفحات كاملة عن عمد بوصف الطبيعة حتى لا يتهم بالتحيز أحدهم يريد أن يكون حتماً في مؤلفاته برجوازيّاً صغيراً، والآخر حتماً من النبلاء إلخ، التعمد، والحذر، والدهاء، ولكن ليس هناك حرية وشجاعة أن تكتب عما تريد إذن فليس هناك إبداع.

كل ذلك ينطبق على ما يسمى بالأدب الجميلة أما فيما يخص المقالات الروسية الجادة، مثلاً في مجال السوسولوجيا أو الفنون أو غيرهما، فإنني لا أقرأها فقط لشعوري بالهيبة ففي طفولتي وصباى كنت أشعر لسبب ما بالخوف من السعادة وحجاب المسارح، وظل هذا الخوف يلازمي حتى الآن ما زلت أخاف منهم إلى هذه اللحظة يقال إن ما يبدو مخيفاً هو فقط ما ليس مفهوماً وبالفعل



فمن الصعب جداً أن تفهم لماذا يبدو السعارة والحجاب بهذه الأهمية والعجرفة وقلة الأدب المهيبة وعندما أقرأ هذه المقالات الجادة أشعر بالضبط بمثل هذا الخوف الغامض فالأهمية الفائقة ولهجة الجنرالات المداعبة، والتعامل بلا كلفة مع المؤلفين الأجانب، والقدرة على اللت والعجن بوقار كل ذلك بالنسبة لي غير مفهوم ومخيف، ولا يشبه ذلك التواضع واللهجة الهادئة المهذبة التي تعودت عليها في قراءاتي لأطبائنا الكتاب والباحثين في العلوم الطبيعية وليس صعباً على أن أقرأ المقالات فحسب، بل والتراجم التي يقوم بها أو يحررها أشخاص روس جادون فاللهجة المتغترسة المتفضلة للمقدمات، وفيض ملاحظات المترجم التي تعوقني عن التركيز، وعلامات الاستفهام.

ذات مرة استدعيت كخبير إلى إحدى المحاكم الإقليمية وفي فترة الاستراحة لفت أحد زملائي الخبراء انتباهي إلى خشونة معاملة وكيل النيابة للمتهمين الذين كانت بينهم امرأتان مثقفتان وأعتقد أنني لم أبالغ أبداً عندما أجبت زميلي بأن هذه المعاملة ليست أكثر خشونة من معاملة كتاب المقالات الجديدة بعضهم بعضاً وبالفعل فإن هذه المعاملة من الخشونة بحيث لا أستطيع التحدث عنها دون أن أشعر بالانقباض فهم يعاملون بعضهم بعضاً أو أولئك الكتاب الذين



ينتقدونهم إما باحترام مبالغ فيه، دون مراعاة لكرامتهم الشخصية، أو بالعكس، يحتقرونهم بأجراً مما أحتقر أنا في هذه المذكرات والأفكار صهري المقبل جنيكر فالإتهامات بالمسئولية وبسوء النية، بل حتى بمختلف الجرائم الجنائية تشكل الزينة الرئيسية للمقالات الجادة كما يهوى الأطباء الشبان أن يكتبوا في مقالاتهم إن مثل هذه المعاملة لا بد حتماً أن تنعكس على أخلاق الجيل الجديد من الكتاب، لذلك فأنا لا أدهش أبداً من أن أبطال الكتب الجديدة لأدابنا الجميلة التي ظهرت في السنوات العشر أو الخمس عشر الأخيرة يشربون الفودكا بكميات كبيرة، أما البطلات فلسن عفيفات بدرجة كافية.

أقرأ الكتب الفرنسية وأتطلع من حين لآخر إلى النافذة المفتوحة وأرى عوارض سور الحديقة المسننة، وشجرتين هزيلتين أو ثلاث، ومن وراء الحديقة أرى الطريق والحقل، ثم شريطاً عريضاً من غابة صنوبر وكثيراً ما أتأمل بإعجاب كيف يتسلق سور الحديقة صبي وصبية، وكلاهما أشقر الشعر، ممزق الثياب، ويضحكان من صلعتي وأقرأ في عيونهما البراقة اصعد يا أجلح وربما كان هذان الطفلان الشخصين الوحيديين في العالم اللذين لا تهمهما في شيء شهرتي أو رتبتي.

الآن لا يتردد على الزوار كل يوم ولن أشير هنا إلا إلى زيارات نيقولاى الحجّة الأخيرة وبيوتر أجناتيفتش يحضر نيقولاى إلى في



الأعياد عادة، كأنما لأمر ما، ولكن أساساً لكي يراني يأتي بادي السكر، الأمر الذي لا يحدث له أبداً في الشتاء وأخرج لملاقاته في المدخل وأسأله: ماذا وراءك؟ فيقول واضعاً يده على قلبه وهو ينظر إلى باعجاب العشاق: يا صاحب المعالي يا صاحب المعالي فليعاقبني الله فلتنزل على صاعقة حالاً جاودياموس أيجيتور يوفينتوس.

ويقبل بنهم كتفي وكمي وأزراري فأسأله: هل كل شيء على ما يرام عندنا هناك؟ يا صاحب المعالي الله شاهد على ما أقول.

ولا يكف عن ترديد الأقسام دون داع، وسرعان ما يضجرتني فأرسله إلى المطبخ، حيث يقدمون له الغداء أما بيوتر أجناتيفتش فيحضر إلى في الأعياد أيضاً، خصيصاً لكي يراني ويتبادل معي الآراء وعادة ما يجلس بجوار مكتبي، متواضعاً، نظيفاً، عاقلاً، لا يجروء على وضع ساق على ساق أو الاعتماد على المكتب ويحكي لي طوال الوقت بصوت خافت هادئ، وبأسلوب ناعم، كتبى، أخباراً متنوعة، طريفة جداً ومثيرة في رأيه، استقاها من الكتب والمجلات وكل هذه الأخبار متشابهة وعلى الطراز التالي: توصل عالم فرنسي إلى اكتشاف، ولكن عالماً آخر ألمانيا كشف غشه وأثبت أن هذا الاكتشاف قد توصل إليه أحد الأمريكيين منذ عام 1870، أما العالم الثالث وهو أيضاً ألماني فقد فاقسوف نمرح ما دمننا شباباً.



الاشئين متشابهان في المكر فأثبت لها أنها معا قد وقعا ضحية غفلتها، إذ ظنا كريات الهواء تحت المجهر صبغة داكنة وحتى عندما يريد بيوتر أجناتيفتش أن يضحكني فإنه يتحدث طويلاً وبرصانة كأنه يناقش رسالة دكتوراه، مع ذكر مفصل للمصادر التي استعان بها، ويحاول ألا يخطئ في تواريخ أو أرقام أعداد المجلات أو في الأسماء، ولا يقول مثلاً: بتى ببساطة بل لا بد أن يقول: جان جاك بتى ويبقى أحياناً للغداء، وعندئذ يروي طوال الغداء نفس الحكايات المثيرة التي تجلب الكآبة لكل الجالسين إلى المائدة فإذا تطرقت ليزا وجنيكر إلى الحديث في حضرته عن الفوجات والطباق الموسيقي أو عن برامج وباخ فإنه يرخى طرفه بتواضع ويشعر بالحرج، فهو يخجل من أنهم يتحدثون في حضرة أناس جادين مثلي ومثله، عن مثل هذه السخافات وفي حالتى المزاجية الراهنة تكفي خمس دقائق لكي يضجرني إلى درجة يخيل إلى فيها أنني أراه وأسمعه منذ دهر طويل إنني أمقت هذا المسكين أشعر بالمرض من نبرة صوته الخافتة الهادئة ولغته المكتيبة، وتصيبني حكاياته بالتبلى إنه يكن لي أطيب المشاعر، ويتحدث معي فقط لكي يدخل على نفسى المتعة، بينا أجازيه أنا بأن أحقق فيه مباشرة، وكأنما أريد أن أنومه مغناطيسياً، وأقول في نفسى: اذهب، اذهب، اذهب، لكنه لا يستجيب للإيحاء ويظل جالساً، جالساً، جالساً.



وطوال بقائه عندي لا أستطيع أن أتخلص من هذه الفكرة: من الجائز جداً، بعد أن أموت، أن يعينوه في مكاني فتتبدى لي قاعة محاضراتي المسكينة مثل واحة جف نبعها، فأصبح في معاملتي له جافاً، صموتاً، عابساً، كأنما هو، ولست أنا، المذنب في هذه الأفكار وعندما يبدأ في تمجيد العلماء الألمان لا أعود أسخر منه ببشاشة كما في الماضي، بل أدمم بعبوس لمانك هؤلاء حمير ويبدو هذا شبيهاً بما حدث مع المرحوم الأستاذ نيكيتا كريلوف عندما كان يستحم ذات مرة في ريفيل مع بيروجوف، وأغضبه أن المياه كانت شديدة البرودة فسب قائلاً: يا للألمان الأوغاد ومسلكي مع بيوتر أجناتيفتش سيئ، وعندما ينصرف وأرى من خلال النافذة قبعته الرمادية تلوح وراء الحديقة، عندها فقط أود أن أناديه لأقول له: سامحني يا عزيزي.

والغداء الآن أكثر مللاً منه في الشتاء، نفس جنيكر، الذي أمقته الآن وأحتقره، يتغدى عندي كل يوم تقريباً في السابق كنت أصبر على وجوده في صمت، أما الآن فأوجه إليه تعليقات لاذعة تجعل زوجتي وليزا تحمران خجلاً وأنساق مع المشاعر الشريرة فأنفوه كثيراً بمجرد حماقات ولا أدري لماذا أقولها وهكذا فقد حدث ذات مرة أن ظللت مدة طويلة أنظر باحتقار إلى جنيكر، وبلا أي مبرر



اندفعت قائلاً: قد تهبط الصقور مهبطاً أدني من الدجاج ومستحيل أن يحلق الدجاج فوق عالي السحاب لكن المحقق في كل هذا أن جنيكر الدجاجة يظهر أذكى كثيراً من الأستاذ الصقر ولما كان يعلم أن زوجتي وابنتي تقفان في صفه فإنه يتبع الأسلوب التالي: يرد على تعليقاتي اللاذعة بصمت متسامح كأنما يريد أن يقول: لقد خرف العجوز فما جدوى الحديث معه؟ أو يسخر مني ببشاشة ومن المثير للدهشة أن ترى إلى أي درك يمكن للإنسان أن ينحط ففي استطاعتي طوال فترة الغداء كلها أن أحلم بأن يفتضح جنيكر كشخص أفاق، وبأن تدرك ليزا وزوجتي خطأهما وعندئذ أغيظهما تراودني هذه الأحلام الحمقاء في الوقت الذي أقف فيه بإحدى قدمي في القبر. وتقع الآن حوادث سوء تفاهم، لم تكن لدى عنها فكرة من قبل سوى بالسمع ومهما كان خجلى فسأصف هنا واحدة منها وقعت منذ أيام بعد الغداء.

كنت جالسا في غرفتي أدخن الغليون وإذا بزوجتي تدخل كالعادة وتجلس، وتشرع في الحديث قائلة إنه حبذا لو سافرت إلى خاركوف الآن، طالما الجو دافئ ولدي وقت فراغ، لكي أعرف هناك حقيقة جنيكر فأوافقها حسنا، سأسافر وتهض زوجتي، راضية عني، وتمضي إلى الباب، ولكنها تعود على الفور وتقول:



وبالمناسبة لي رجاء آخر أنا أعرف أنك ستغضب، ولكن من واجبي أن أحذرك لا تؤاخذني يا نيقولاى ستيبانيتش، ولكن جميع معارفنا وجيراننا بدأوا يثرثرون بأنك تتردد كثيراً جداً على كاتيا إنها ذكية، مثقفة، لا شك في هذا، ومن الممتع قضاء الوقت معها، ولكن من الغريب، يعنى، بالنسبة لرجل في سنك وفي مثل مركزك أن يجد متعة في صحبتها وعلاوة على ذلك فسمعتها يعنى فجأة يغيض الدم كله في دماغي، ويتطاير الشرر من عيني، فأقفز واقفأ، وأمسك رأسي بيدي، وأدق بقدمي، وأصيح بصوت غير طبيعي دعوني دعوني دعوني ويبدو أن وجهي فظيع وصوتي غريب إذ إن زوجتي تشحب فجأة، وتصرخ عالياً بصوت يائس، غير طبيعي أيضاً ويندفع إلى الغرفة، على صراخنا، ليزا وجنيكر، ثم يجور وأصيح أنا دعوني اخرجوا من هنا دعوني.

تتخدر ساقاي فكأنما لا وجود لها، وأشعر بنفسي وأنا أسقط على ذراعي شخص ما، ثم أسمع لفترة قصيرة بكاء، وأغيب في إغماء تستمر ساعتين أو ثلاث.

والآن فلأتحدث عن كاتيا إنها تزورني يوماً قبيل المساء، ولا يمكن ألا يلاحظ ذلك بالطبع جيراننا ومعارفنا تأتي للحظة، وتأخذني معها للتريض فلديها فرسها الخاصة وعجلة جديدة اشترتها هذا



الصيف وعموماً فهي تعيش عن سعة: فقد استأجرت داراً ريفية كالقصر، بحديقة كبيرة، ونقلت إليها كل أثاث شقتها في المدينة، ولديها خادمان وحوذي وكثيرا ما أسألها: - كاتيا، من أين ستفتقنين بعد أن تبددى كل نقود أبيك؟ فتجيب: - عندها سنرى.

- هذه النقود يا صاحبتى تستحق منك معاملة أكثر جدية لقد كسبها إنسان طيب من عمل شريف.
سبق أن قلت لي ذلك إنني أعرف.

في البداية تمضي بنا العجلة عبر الحقل، ثم عبر غابة الصنوبر التي تلوح من نافذتي وكما في السابق تبدو لي الطبيعة رائعة، رغم أن الشيطان يهمس في أذني أن كل هذه الصنوبرات والشوح والطيور والسحب البيضاء في السماء بعد ثلاثة أو أربعة شهور، عندما أموت، لن تلاحظ غيابي ويروق لكاتيا أن تسوق الفرس، ويسرها أن الجو جميل وأنني أجلس بجوارها معنوياتها مرتفعة فلا تتفوه بأشياء حادة.

وتقول لي أنت إنسان طيب جداً يا نيقولاى ستيبانيتش أنت نموذج نادر، ولا يوجد ممثل يستطيع أن يقدمك على المسرح أنا، أو ميخائيل فيودور فتتش مثلاً، يستطيع أن يقدمنا حتى الممثل السيئ، أما أنت فلا أحد أنا أحسبك، أحسبك إلى درجة رهيبة فماذا أكون أنا؟ ماذا؟



وتفكر دقيقة ثم تسألني: - نيقولاي ستيبانيتش، هل أنا ظاهرة سلبية؟ نعم؟ فأجيبها نعم وما العمل إذن؟.

بم أجيبيها؟ من السهل أن تقول: اعملى أو وزعى ممتلكاتك على الفقراء أو اعرفى نفسك ولأنه من السهل قول ذلك فلا أعرف بم أجيبيها. إن زملائي، الأطباء الباطنيين، عندما يعلمون الطلبة العلاج، ينصحونهم بأن يتناولوا كل حالة على حدة وينبغي أن تتبع هذه النصيحة لكي تفتتح بأن الوسائل التي تقترحها الكتب الدراسية باعتبارها أفضل الوسائل وأنسبها للحالات العامة، تصبح غير مناسبة تماماً في الحالات المنفردة وينطبق هذا أيضاً على الأمراض المعنوية.

بيد أنه لا بد أن أجب بشيء ما فأقول:

- إن لديك يا صاحبتى وقت فراغ كثيراً ومن الضروري أن تشغل نفسك بشيء وبالفعل لماذا لا تعودين ثانية إلى التمثيل طالما لديك الدافع؟.

- لا أستطيع.

- إن لهجتك وطريقتك توحيان وكأنما أنت ضحية هذا لا يعجبني يا صاحبتى أنت المذنبة فلتتذكري لقد بدأت بأن غضبت من الناس والأوضاع، ولكنك لم تفعل شيئاً لكي يصبح هؤلاء وأولئك أفضل أنت لم تقاومى الشر بينما أدركك التعب، فأنت لست ضحية الكفاح بل



ضحية عجزك بالطبع كنت آنذاك صبية، قليلة التجربة، أما الآن فكل شيء يمكن أن يجرى بصورة أخرى حقاً، عودي إلى التمثيل؟ وإذن ستكدين، وسوف تخدمين الفن المقدس.

فتقاطعني كاتيا :

دعك من المكر يا نيقولا ي ستيبانيتش هيا نتفق اتفاقاً لا رجعة فيه : فلنتحدث عن الممثلين، والممثلات، والكتاب، ولكن فلندع الفن وشأنه أنت إنسان رائع، نادر، ولكنك لا تفهم الفن بالدرجة التي تجعلك تعتبره بإخلاص شيئاً مفيداً فليس لديك حس فني أو تذوق لقد كنت طوال حياتك مشغولاً ولم يكن لديك وقت لاكتساب هذا الحس وعموماً أنا لا أحب هذه الأحاديث عن الفن - وتستطرد بعصبية لا أحبها كلا، أشكركم، فقد ابتذلموه بما يكفي.

- من الذي ابتذله؟

أولئك ابتذلوه بالسكر، والجرائد بالمعاملة دون كلفة، والأشخاص الأذكياء بالفلسفة.

لا دخل للفلسفة هنا بل لها دخل فإذا ما تفلسف أحد ما فمعنى ذلك أنه لا يفهم.

وحتى لا تصل الأمور إلى العبارات الحادة أسارع بتغيير مجرى



الحديث، ثم أصمت بعد ذلك طويلاً و فقط عندما نغادر الغابة ونتجه إلى دار كاتيا أخرج عن صمتي وأعود إلى الحديث السابق فأسألها: ومع ذلك لم تردي على سؤال: لماذا لا تعودين إلى التمثيل؟ فتهتف، ويتضرج وجهها كله فجأة: هذه، في النهاية، قسوة منك يا نيقولاي ستيبانيتش أتريد أن أقول لك الحقيقة علانية؟ تفضل، إذا كان هذا إذا كان هذا يعجبك أنا لست موهوبة لست موهوبة وعندي الكثير من الغرور نعم.

وإذ تدلى بهذا الاعتراف تحول وجهها عني، وتجذب اللجام بقوة لكي تخفي رعشة يديها.

عندما نقرب من دارها نرى من بعيد ميخائيل فيودوروفتش وهو يتمشى قرب البوابة وينتظرنا بنفاد صبر فتقول كاتيا بضيق: مرة أخرى هذا الميخائيل فيودوروفتش أبعده عني أرجوك مللته لقد استهلك ليغرب عني منذ مدة طويلة وميخائيل فيودوروفتش ينوى السفر إلى الخارج، ولكنه كل أسبوع يؤجل سفره وفي الآونة الأخيرة طرأت عليه بعض التحولات: فقد هزل نوعاً ما، وأصبح يثمل من الخمر، الأمر الذي لم يكن يحدث له أبداً من قبل، وبدأ حاجباه الأسودان يشيبان وعندما تتوقف عجلتنا أمام البوابة لا يخفى فرحته ونفاد صبره ويساعد كاتيا ويساعدني على النزول من العجلة في



اضطراب، ويتعجل في توجيه الأسئلة، ويضحك، ويفرك راحتيه، أما ذلك التعبير الوديح، الضارع، الطاهر، الذي كنت ألاحظه من قبل في نظرتة فقط، فقد أصبح الآن يغمر وجهه كله وهو يفرح وفي الوقت نفسه يخجل من فرحه، يخجل من عاداته هذه في التردد على كاتيا كل مساء، ويجد من الضروري أن يبرر مجيئه بحجة ما بادية التهافت مثل: كنت مارا من هنا في أمر ما فقلت لنفسي الأعرج عليك لدقيقة.

نتوجه ثلاثتنا إلى الداخل وفي البداية نشرب الشاي، ثم تظهر على الطاولة شدتا ورق اللعب المعروفتان لى منذ زمن بعيد، وقطعة الجبن الكبيرة، والفواكه وزجاجة شمبانيا القرم ومواضيع أحاديثنا ليست جديدة، بل هي نفسها التي كانت في الشتاء وتنهال الضربات على الجامعة والطلبة والأدب والمسرح ويصبح الهواء من الاغتياب أشد كثافة واختناقاً، ولم تعد تسممه أنفاس ضفدعين فقط كما كان في الشتاء، بل ثلاثة ضفادع وبخلاف الضحك المخملى الجهير والقهقهات التي تشبه الأكورديون، تسمع الخادم التي تقوم على رعايتنا ضحكاً آخر، كريهاً، مرتعشا كضحك الجنرالات في مسرحيات الفودفيل: هي هي هي.

ثمة ليال رهيبة، برعد وبرق ومطر ورياح، يطلق عليها الناس: ليالى العصافير وقد مرت بي أنا أيضاً ليلة عصافير مثل هذه تماماً.



أستيقظ بعد منتصف الليل، وعلى الفور أقفز من فراشي، ويخيل إلى لسبب ما أنني سأموت الآن بغتة لماذا يخيل إلي؟ ليس في جسمي أية بادرة تشير إلى النهاية القريبة، إلا أن رعباً فظيماً يعصر قلبي، وكأنما رأيت فجأة حريقاً هائلاً شريراً.

أشعل الضوء بسرعة، وأجرع ماء من الدورق مباشرة، ثم أسرع إلى النافذة المفتوحة الجو في الخارج رائع تفوح رائحة الدريس وشيء ما آخر لطيف جداً وتلوح عوارض سور الحديقة المسننة، والشجيرات الهزيلة الناعسة قرب النافذة، والطريق، وشريط الغابة المظلم وفي السماء قمر هادئ ساطع للغاية، وليس هناك سحابة واحدة والسكون شامل، فلا تهتز ورقة شجرة واحدة ويخيل إلى أن كل شيء ينظر إلى ويصيح مترقباً كيف سأموت أشعر برعب رهيب أغلق النافذة وأهرع إلى الفراش أتحسس نبضى ولا أعثر عليه في يدي، فأبحث عنه في صدغي، ثم في ذقني، ومرة أخرى في يدي، وكل هذه الأماكن باردة، لزجة من العرق تتلاحق أنفاسي أسرع فأسرع، ويرتعش جسدي، وكل ما في جوفي يتحرك، وأشعر وكأن خيوط عنكبوت تسقط على وجهي وصلعتي.

ما العمل؟ هل أنادي أسرتي؟ كلا، لا داعي لا أفهم ماذا ستفعل زوجتي وليزا عندما تدخلان على أخفي رأسي تحت الوسادة، وأغمض



عيني، وأنتظر، أنتظر ظهري تسرى فيه البرودة، وكأنما يفوص إلى الداخل، ويدهمني إحساس وكأن الموت لابد سيأتي من الخلف، خلسة كيوى كيوى يتردد زعيق في سكون الليل فجأة، ولا أعرف أين مصدره: أهو في صدري، أم في الخارج؟

- كيوى كيوى يا إلهي، كم أنا خائف بودي لو أشرب مزيداً من الماء، ولكنني أخشى أن أفتح عيني وأخاف أن أرفع رأسي خوفاً لا تفسير له، خوف حيواني، ولا أستطيع أبداً أن أفهم لماذا أشعر بالخوف: هل لأنني أريد أن أعيش، أم لأن في انتظاري ألماً جديداً مجهولاً؟

في الأعلى، خلف السقف هناك شخص ما لست أدري يتأوه أم يضحك أصيح السمع بعد قليل يتردد على الدرج وقع خطوات أحد ما يهبط على عجل، ثم يصعد ثانية بعد دقيقة يتردد وقع الخطوات الهابطة مرة أخرى أحد ما يتوقف بجوار بابي وينصت فأصيح- من هناك؟ يفتح الباب، فأفتح عيني بشجاعة وأرى زوجتي وجهها شاحب وعيناها باكيتان تسألني: أنت لست نائماً يا نيقولاي ستيبانيتش؟ ماذا تريدان؟ أرجوك اصعد إلى ليزا وانظر ماذا بها حدث لها شيء ما.

حسناً بكل سرور أدمدم وأنا في غاية الفرح لأنني لم أعد وحدي حسناً حالاً حالاً.



أسير خلف زوجتي وأسمع ما تقوله لي ولكني لا أفهم شيئاً بسبب انفعالي على درجات السلم تقفز بقع ضوء من شموعها، ويرتعث ظلانا الطويلان، وتتعثر ساقاي في أطراف الرداء وأختق، ويخيل إلى أن شيئاً ما يطاردني ويريد أن يمسك بظهري وأقول لنفسني: سأموت الآن هنا، على هذا الدرج، الآن ولكن هانحن أولاء نعبر الدرج والطرق المظلمة ذات النافذة الإيطالية وندخل غرفة ليزا إنها جالسة في الفراش، في قيمص النوم فقط، وقد دلت قدميها الحافيتين، وتتأوه آه، يا إلهي آه يا إلهي تدمدم وهي تزر عينيها من ضوء شموعنا لأستطيع، لا أستطيع.

فأقول لها: - ليزا، يا بنيتي، ماذا بك؟ وعندما ترانى تصرخ وترتمي على عنقي وتقول من خلال النحيب: بابا، يا حبيبي الطيب بابا يا عزيزي أيها الغالي الحبيب أنا لا أعرف ماذا بي إنني أتعذب تعانقني وتقبلني وتمتم بكلمات رقيقة كتلك التي كنت أسمعها منها وهي طفلة وأقول لها: . اطمئني يا بنيتي، لا بأس لا داعي للبكاء أنا أيضاً أتعذب أحاول أن أدثرها وزوجتي تناولها ماء، وكلانا نتخبط في اضطراب بجوار سريرها، وأدفعها بكفي في كتفها، وفي تلك اللحظة أتذكر كيف كنا نحمم أطفالنا معاً وتتوسل إلى زوجتي- هيا ساعدها، ساعدها افعل أي شيء وماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شيء ثمة ما يعذب



روح الفتاة، ولكني لا أفهم شيئاً ولا أعرف، وليس في وسعي إلا أن أدمدم: لا بأس، لا بأس هذا سيزول نامى، نامى.

وكأنما عن عمد يدوي في فنائنا فجأة عواء كلب، خافتاً متردداً في البداية، ثم عالياً، بنبرتين لم أكن أبداً أعبأ بعلامات التطير مثل عواء الكلاب أو نعيق البوم، أما الآن فينقبض قلبي بألم، فأسرع بتفسير سبب هذا العواء لنفسى: هراء إنه تأثير جسم على جسم آخر لقد انتقل توترى العصبي الشديد إلى زوجتي وإلى ليزا، وإلى الكلب، وهذا كل ما هنالك وهذا الانتقال هو ما يفسر الحدس والتنبؤ.

عندما أعود إلى غرفتي بعد فترة قصيرة لكي أكتب وصفة العلاج لليزا، لا أعود أفكر في أنني سأموت قريباً، ولكني فقط أحس بعذاب وضيق في صدرى إلى درجة أشعر معها بالأسف على أنني لم أمت بغتة أقف طويلاً في وسط الغرفة بلا حراك وأنا أفكر فيما يمكن أن أحدهه من دواء لليزا، ولكن الأنين وراء السقف يتوقف فأقرر ألا أحدد لها أي دواء ومع ذلك أظل واقفاً السكون مطبق كالموت، سكون إلى درجة الطنين في الآذان، كما قال أحد الكتاب والوقت يمضي ببطء، وخطوط ضوء القمر على قاعدة النافذة لا تغير أوضاعها وكأنها تجمدت والفجر ما زال بعيداً.

ولكن ها هو ذا باب سور الحديقة يصر، ويتسلل شخص ما،



ويكسر غصناً من إحدى الشجيرات الهزيلة، ويدق به بحذر على النافذة وأسمع همسا: - نيقولاي ستيبانيتش نيقولاي ستيبانيتش افتح النافذة ويخيل إلى أنني أرى حلاً فتحت النافذة تقف امرأة ملتصقة بالحائط، في ثوب أسود، تحت ضوء القمر الساطع، وتتطلع إلى بعينين واسعتين وجهها شاحب صارم وخرافي بسبب ضوء القمر وكأنها قد من مرمر وذقتها يرتعش وتقول: - هذه أنا أنا كاتيا في ضوء القمر تبدو عيون النساء جميعاً واسعة وسوداء، ويبدو الناس أطول وأكثر شحوباً، وربما لهذا لم أتعرف عليها للوهلة الأولى.

ماذا تريدان؟ فتقول: عفواً لست أدري لماذا أحسست فجأة بعذاب لا يحتمل لم أتمالك نفسي وجئت إلى هنا رأيت نافذتك مضاءة فقررت أن أطرقها عفواً آه لو تدري بأي عذاب شعرت ماذا تفعل الآن؟.

- لا شيء عندي أرق كان لدى هاجس ما وعموماً فهذه أشياء تافهة. ويرتفع حاجباها، وتلمع عيناها بالدموع، وكأنما بالنور يشرق وجهها كله بتعبير البراءة الطفولية المعروفة، الغائب منذ زمن بعيد وتقول بصوت ضارع وهي تمد إلى كلتا يديها: يا نيقولاي ستيبانيتش يا عزيزي، أرجوك أتوسل إليك إذا كنت لاتأنف من صداقتي واحترامي لك فلتجبنني إلى طلبى.

- ماذا هناك؟ خذ مني نقودي ما هذا الذي تقولين وما حاجتي



إلى نقودك؟

- اذهب إلى أي مكان وتعالج أنت بحاجة إلى العلاج هل ستأخذها؟ نعم؟ يا عزيزي، نعم؟ تحقق في وجهي بنهم وتكرر: نعم؟ ستأخذها؟ فأقول لها: كلا يا صاحبتني، لن أخذها شكراً.

تولينى ظهرها وتطأطئ رأسها يبدو أن رفضي كان بلهجة لا تدع فرصة لأي حديث تال عن النقود فأقول لها: عودي إلى البيت ونامي غداً سنرى فتسألني باكتئاب: إذن فأنت لا تعتبرني صديقاً؟ أنا لم أقل هذا لكن نقودك لا نفع منها لي الآن عفواً تقول خافضة صوتها درجة كاملة إنني أفهمك فأن تكون مديناً الشخص مثلي الممثلة سابقة وعموماً وداعاً وتمضي بسرعة لا تمكنني حتى من أن أقول لها وداعاً أنا في خاركوف.

إذ لما كانت مقاومة مزاجي الحالي غير مجدية، كما أنني غير قادر عليها، فقد قررت أن تكون أيامي الأخيرة لا غبار عليها ولو من الناحية الشكلية وإذا كنت مخطئاً في حق أسرتي، الأمر الذي أدركه جيداً، فلأحاول أن أفعل مثلما تريد وطالما شاءت أن أسافر إلى خاركوف فلأسافر وفوق ذلك فقدت اهتمامي في الأيام الأخيرة بكل شيء، بحيث أصبح لدى سيان تماماً إلى أين أسافر: إلى خاركوف، أم إلى باريس، أم إلى بيرديتشف.



وصلت إلى هنا في حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً، ونزلت في فندق غير بعيد عن الكاتدرائية وكنت في عربة القطار قد أصبت بدوار ولفحتى تيارات الهواء، والآن أجلس على السرير، ممسكاً برأسي ومنتظراً مجيء مرض العزة كان من المفروض أن أذهب اليوم مباشرة إلى معارفى الأساتذة، ولكن ليس لدي رغبة أو قدرة.

يدخل خادم الفندق العجوز ويسألني هل لدى فرش للسرير فأستوقفه لخمس دقائق وأوجه إليه بعض الأسئلة بخصوص جنيكرك الذي من أجله جئت إلى هنا ويتضح أن الخادم من مواليد خاركوف ويعرف هذه المدينة كأصابعه الخمس ولكنه لا يذكر أية عائلة بهذا الاسم وأسأله عن الضيعة نفس الجواب.

تدق الساعة في الممر معلنة الواحدة، ثم الثانية، ثم الثالثة الشهور الأخيرة من حياتي، التي تمضي في انتظار الموت، تبدو لي أطول بكثير من حياتي كلها لم يكن في مقدوري من قبل أن أستسلم لبطء الزمن مثلما أنا الآن ففي السابق، عندما كان يحدث أحياناً أن أنتظر القطار في المحطة أو أجلس لامتحان الطلبة، كان ربع الساعة يبدو لي دهنراً، أما الآن فبوسعي أن أجلس الليلة كلها في السرير دون حراك، وأفكر بلا مبالاة تامة في أنني سأقضى غداً ليلة مثل هذه، طويلة باهتة، وبعد غد أيضاً.



الساعة في الممر تدق الخامسة، السادسة، السابعة ويحل
الظلام في خدي خدر مؤلم إنها بداية العترة ولكي أشغل نفسي
بالتفكير أعود إلى وجهة نظري السابقة عندما لم أكن مبالغياً
وأستأسل: لماذا أجلس أنا الرجل الشهير، المستشار السرى، في هذه
الغرفة الصغيرة، على هذا السرير ذى البطانية الرمادية الغريبة؟
ولماذا أنظر إلى حوض الغسيل الصفيح الرخيص هذا وأصغى إلى
حشرجة ساعة بالية في الطريقة؟ أهذا كله جدير بصيتي ومركزي
الرفيع بين الناس؟ وأجيب نفسي عن هذا الأسئلة بضحكة سخرية
إذ تبدو لي مضحكة سذاجتي التي كانت تجعلني، في وقت ما في
شبابي، أبالغ في أهمية الشهرة والوضع الفريد الذي بدا لي أن
المشاهير يتمتعون به فأنا شهير، واسمى تلفظه الشفاه بتبجيل،
وصورتي نشرت في نيفا وفي المصور العالمي، وتاريخ حياتي قرأته
منشوراً حتى في مجلة ألمانية ثم ماذا؟ ها أنا ذا أجلس وحيداً تماماً
في مدينة غريبة، على سرير غريب، وأحك براحتي خدي المتقلص
والخلافات العائلية، وقسوة الدائنين، وفضاظة موظفي الخدمة في
السكك الحديدية، ومتاعب نظام الهويات والإقامة، والأكل الغالى
الضار بالصحة في البوفيهات، والجهل الشامل والقسوة في المعاملة
كل ذلك وكثير غيره مما يطول تعدادده، يمسنى بدرجة لا تقل عما
يمس به أي برجوازي صغير غير معروف إلا في حارته فقط ففيم



إذن تفرد وضعي؟ فلنفرض أنني أكثر شهرة ألف مرة، وأنني بطل يفخر به وطني، وتتشرب جميع الصحف النشرات الطيبة عن مرضي، ويحمل على البريد رسائل المواساة من زملائي وتلاميذي والجمهور، ولكن كل هذا لن يحول بيني وبين الموت على فراش غريب، في وحشة ووحدة مطلقة بالطبع ليس هناك أحد مذنب في ذلك، ولكني، وليغفر الله لي، لا أحب اسمي الذائع الصيت يخيل إلى وكأنما قد خدعني في حوالي العاشرة أنعس، ورغم العترة أغيب في نوم عميق، وكان من الممكن أن أنام طويلاً لولا أنهم أيقظوني ففي بداية الساعة الثانية يطرق الباب فجأة.

- من هناك؟ - برقية وأقول بحق وأنا أتسلم البرقية من خادم الفندق: كان بوسعك أن تنتظر حتى الصباح الآن لن أستطيع أن أنام ثانية. آسف ولكني رأيت غرفتكم مضاءة فظننت أنكم مستيقظون أفض البرقية وأطلع قبل كل شيء إلى التوقيع: زوجتي ماذا تريد بعد؟ بالأمس تزوج جنيكر سراً بليزا ارجع.

اقرأ هذه البرقية، ولفترة قصيرة أشعر بفزع لا يفزعني تصرف ليزا وجنيكر، بل تلك اللامبالاة التي أتلقى بها نبأ زواجهما يقال إن الفلاسفة والحكماء الحقيقيين غير مبالين ليس صحيحاً فاللامبالاة هي شلل الروح، وهي الموت المبكر.



أستلقي مرة أخرى في الفراش وأبدأ في البحث عن أفكار أشغل بها نفسى فيم يمكن أن أفكر؟ يبدو أن كل شيء قد قتل بحثاً، ولم يعد هناك الآن ما يمكن أن يثير تفكيرى.

يشرق الفجر وأنا جالس في الفراش، مطوقاً ركبتى بذراعي، وبدافع الفراغ أحاول أن أعرف نفسي اعرف نفسك يا لها من نصيحة رائعة مفيدة، لكن المؤسف أن القدماء لم يفتنوا إلى إرشادنا إلى كيفية استخدام هذه النصيحة في الماضي، عندما كانت تراودني الرغبة في فهم شخص ما أو فهم نفسي، كنت لا أهتم بالتصرفات، التي تحكمها شتى الاعتبارات، بل بالرغبات قل لى ماذا تريد، أقل لك من أنت.

والآن امتحن نفسي:ماذا أريد إذن؟ أريد من زوجاتنا وأولادنا وأصدقائنا وتلاميذنا أن يحبوا فينا لا الاسم، لا اللافتة والماركة، بل أشخاصنا العادية وماذا أيضاً؟ بودي أن يكون لي معاونون وورثة وماذا أيضاً؟ بودي لو بعثت بعد مائة عام فنظرت ولو بطرف عيني إلى مصير العلم بودي لو عشر سنوات أخرى وماذا بعد؟.

بعد لا شيء أفكر، وأفكر طويلاً، ولا أستطيع أن أتوصل إلى شيء ومهما فكرت، ومهما تشعبت أفكارى فإن من الواضح لى أن رغباتي تقتقر إلى شيء رئيسي، إلى شيء مهم للغاية ففي شغفي بالعلم، وفي



رغبتي في الحياة، وفي هذا الجلوس على فراش غريب، وفي سعيي إلى معرفة نفسي، في كل أفكارى، ومشاعرى، ومفاهيمي التي أكونها عن الأشياء، لا يوجد شيء عام يربط جميع ذلك في كل موحد كل فكرة وكل شعور يحيا في داخلي منعزلاً، وحتى أكثر المحللين مهارة لن يجد في كل أحكامى عن العلم، والمسرح، والأدب والتلاميذ، وفي كل الصور التي يرسمها خيالى، ذلك الشيء الذي يسمونه الفكرة العامة أو إله الإنسان الحي فإذا لم يكن هذا موجوداً، فلا وجود إذن لأي شيء.

ومع مثل هذا الفقر كان يكفي مرض خطير أو رهبة الموت، أو تأثير ظروف وأشخاص لكي ينقلب كل ما كنت أعتبره من قبل وجهة نظري وأرى فيه مغزى حياتى وبهجتها، رأساً على عقب ويتناثر مزقاً ولهذا فليس من الغريب في شيء أننى سودت آخر شهور عمري بأفكار ومشاعر لا تليق إلا بعبد أو همجى، وإننى الآن لا مبال ولا ألاحظ شروق الفجر فإذا لم يكن في الإنسان ذلك الشيء الأسمى والأقوى من كل المؤثرات الخارجية فإنه يكفي، في الحقيقة، مجرد زكام قوى لكي يفقده توازنه ويجعله يرى في كل طائر بومة ويسمع في كل صوت عواء الكلاب ولا يصبح لتشاؤمه أو تفاؤله، ولكل أفكاره الكبيرة والصغيرة من أهمية في تلك اللحظة سوى أهميتها



كأعراض، ولا شيء أكثر لقد هزمت وما دام الأمر كذلك فلا معنى إذن لمواصلة التفكير، ولا معنى للكلام سابقى جالساً أنتظر في صمت ما سيحدث.

في الصباح يحمل إلى خادم الفندق الشاي ونسخة من الجريدة المحلية أقرأ ألياً الإعلانات المنشورة في الصفحة الأولى والافتتاحية، ومقتطفات الصحف والمجلات، والأخبار بالمناسبة، أجد بين الأخبار الخبر التالي: وصل إلى خاركوف بالقطار السريع عالمنا الشهير، الأستاذ القدير نيقولاي ستيبانوفتش الفلاني حيث نزل في الفندق الفلاني.

يبدو أن الأسماء الطنانة يصنعونها لكي تعيش مستقلة، بعيداً عن يحملونها وها هو ذا اسمي الآن يتجول في خاركوف خالي البال وبعد حوالى ثلاثة أشهر سوف يلمع كالشمس ذاتها، وقد نقش بأحرف مذهبة على تمثال قبرى هذا في الوقت الذي يكون فيه الطحلب قد غطاني.

طرق خفيف على الباب أحدهم إذن يحتاج إلى من هناك؟ ادخل. يفتح الباب، فأخطو خطوة إلى الوراء مدهوشاً، وأسارع بجمع أطراف ردائي أمامى تقف كاتيا وتقول بأنفاس مبهورة من صعود



الجزء الثالث

السلم: مرحباً لم تتوقع؟ أنا أيضاً سافرت إلى هنا تجلس، وتستطرد متلعثمة دون أن تنظر إلي: لماذا لا ترد على التحية؟ أنا أيضاً وصلت اليوم علمت أنك في هذا الفندق فجئت إليك.

فأقول هاذا كتفي: مسرور جدا برؤيتك ولكنى مندهش كأنك هبطت من السماء لماذا أنت هنا؟

وتنهض كاتيا وتبتسم ببرود ودون ان تتطلع تمد إلى يدها وأود أن أسألها ألن تحضري جنازتي ولاترد ولم تلتفت ويلوح فستانها الأسود لآخر مرة ثم يتلاشى وقع خطواتها إلى الأبد وداعاً يا كنزى.



عنبر رقم ٦

يقوم في فناء المستشفى جناح صغير، محاط بغابة من الأرقطيون وحشائش القريص والقنب البري وسقفه صدي، ومدخته تهدمت إلى نصفها، وتآكلت درجات المدخل الخشبية وغطاها العشب، ولم يبق من الطلاء غير آثار وتطل واجهته الأمامية على المستشفى، أما الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادي ذو المسامير وهذه المسامير بأسنانها إلى أعلى، والسور، والجناح نفسه يبدو بتلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التي لا تجدها عندنا إلا في مباني المستشفيات والسجون.

وإذا كنت لا تخشى أن يلسعك القريص فلنمض عبر درب ضيق يفضي إلى الجناح، ولنلق نظرة على ما يدور بداخله بعد أن نفتح أول باب ندلف إلى المدخل هنا تتكدس بجوار الجدران والفرن جبال من نفايات المستشفى مراتب وأرواب قديمة ممزقة، وسراويل وقمصان ذات خطوط زرقاء، وأحذية بالية لا جدوى منها وقد كومت كل هذه الحثالة أكواماً، مجمعة، مختلطة، وتتحلل فتنبعث منها رائحة خانقة.



وعلى هذه النفايات يتمدد دائماً الحارس نيكيتا والغليون بين أسنانه وهو جندي متقاعد عجوز ذو أشرطة كالحة، ووجه قاس غائر الخدين وحواجب كثة تضي على وجهه تعبيراً يجعله أشبه بكلب المراعي، وأنف أحمر وهو قصير القامة، جسده ضامر ومعروق، لكن هيئته مهيبة وقبضتيه ضخمتان وهو ينتمي إلى ذلك الطراز من الناس البسطاء، الإيجابيين المطيعين والبلداء، الذين يحبون النظام أكثر من أي شيء في العالم لذلك فهم على يقين بأنه ينبغي ضربهم وهو يضرب في الوجه، وفي الصدر وفي الظهر، وفي أي مكان، ومتأكد أنه لولا هذا لما استتب النظام هنا.

وبعد ذلك تدخل غرفة كبيرة رحبة، تشغل كل الجناح إذا استثنينا المدخل والجدران هنا مطلية بدهان أزرق قذر، والسقف سوده السناج كما في المنزل الريفي الخالي من المدخنة مما يوضح أن المواعد ترسل دخانها هنا في الشتاء ويصبح الجو خانقاً والنوافذ قد شوهت منظرها من الداخل قضبان حديدية والأرضية رمادية ومليئة بالشظايا وتفوح في المكان رائحة الكرنب الحامض ودخان الفتيل والبق والنشادر، وبسبب هذه الرائحة يخيل إليك للوهلة الأولى أنك تدخل حظيرة حيوانات وتضم الغرفة أسرة مثبتة في الأرضية ويجلس عليها أو ينام أناس يرتدون أرواب المستشفى الزرقاء وطراطير على



الطريقة القديمة إنهم المجانين ومجموعهم هنا خمسة أشخاص واحد منهم فقط نبيل الأصل، أما البقية فمن الطبقة الوسطى أولهم من ناحية الباب رجل طويل، نحيل، ذو شوارب حمراء لامعة، وعينين باكيتين، يجلس مسنداً رأسه إلى يده ويحدق في نقطة واحدة وهو حزين ليل نهار، يهز رأسه ويتهد، ويبتسم بمرارة ونادراً ما يشارك في الأحاديث، وعادة لا يرد على الأسئلة ويأكل ويشرب بصورة آلية عندما يقدم له الأكل والشرب ويبدو من سعاله المضني الحاد ونحوه وتضرج وجنتيه أنه قد بدأ يصاب بالسل.

والشخص التالي له عجوز صغير، حى، خفيف الحركة جداً، ذو لحية قصيرة مدببة وشعر أسود مجعد كشعر الزنجي وفي النهار يتجول في العنبر من النافذة إلى النافذة، أو يجلس في سريره، ضاماً ساقيه تحته على الطريقة التركية، ويصفر بلا كلل كطائر الثلج، ويغني ويقهقه بصوت خافت وهو يبدي مرحلة الطفولى وطبعه الحي في الليل أيضاً، عندما ينهض ليصلى، أي ليدق بقبضتيه على صدره وينقب بإصبعه في الأبواب إنه اليهودى موسىكا، الأبله، الذي فقد صوابه منذ حوالي عشرين عاماً، عندما احترقت ورشته الخاصة بتفصيل الطواقي الفرو.

وهو الوحيد من بين نزلاء عنبر رقم 6 الذي يسمح له بالخروج من



الجنّاح، بل من فناء المستشفى إلى الشارع وهو يتمتع بهذا الامتياز منذ زمن طويل، ربما لأنه من قدامى المرضى، ولأنه عبيط وديع لا يؤذي، ومضحك المدينة الذي ألف الناس رؤيته في الشوارع محاطاً بالصبية والكلاب يسير عبر الشوارع في روب قصير وطرطور مضحك وفي شبشب، وأحياناً حافي القدمين بل حتى بدون سروال ويتوقف عند الأبواب والدكاكين ويستجدي كوبيكا فيعطونه في أحد الأماكن كوباً من الكفاس وفي مكان آخر خبيراً، وفي مكان ثالث كوبيكا، فيرجع عادة إلى الجنّاح شعبان وغنياً ولكن نيكيئا يستولي على كل ما يحضره معه يفعل ذلك بفضاظة وغضب، وهو يقلب جيوبه ويدعو الله شاهداً على أنه لن يسمح بعد ذلك أبداً لليهودي بالخروج إلى الشارع، وعلى أنه ليس هناك شيء أسوأ بالنسبة له من الفوضى.

ومويسكا يحب تقديم الخدمات، فيجلب لزملائه الماء، ويغطيهم وهم نيام، ويعد بأن يحضر لكل منهم كوبيكا من الخارج ويفصل لكل منهم طاقيّة فرو جديدة ويطعم بالملعقة جاره الأيسر المشلول وهو لا يفعل ذلك بدافع العطف، ولا لأية اعتبارات إنسانية، بل تقليداً وخضوعاً لجاره الأيمن جروموف.

وإيفان دميتريتش جروموف، رجل في حوالي الثالثة والثلاثين، نبيل الأصل، محضر محكمة سابق وسكرتير المحافظة، يعاني من



جنون الاضطهاد فهو إما راقد في سريره متكوراً كالكمكة، وإما يروح جيئةً وذهاباً من ركن إلى ركن، وكأنما يسير للترييض، ولا يجلس إلا نادراً جداً وهو دائماً مضطرب منفعل ومتوتر يؤرقه انتظار ما غامض وغير محدد ويكفي أن يتردد حفيف في المدخل مشروب غير كحولي يصنع من الخبز الأسود المخمر أو صيحة في الفناء حتى يرفع رأسه ويصيخ السمع: أليسوا قادمين في طلبه؟ ألا يبحثون عنه؟ ويعبر وجهه في هذه الحالة عن منتهي القلق والاشمئزاز.

يعجبني وجهه العريض البارز الوجنتين، الشاحب والبائس دائماً، الذي تتعكس فيه كما في المرآة روحه التي عذبها الصراع والخوف الطويل وحركات وجهه غريبة ومريضة، بيد أن ملامحه الدقيقة التي خطها في وجهه العذاب الصادق العميق، حكيمة ومهذبة، وفي عينيه بريق دافئ صحي وهو نفسه يعجبني، فهو مؤدب، خدوم، مهذب بصورة غير عادية في تعامله مع الجميع ما عدا نيكيتا وعندما يسقط زر أو ملعقة من شخص ما، يقفز بسرعة من فراشه ويرفعه وكل صباح يهنئ رفاقه بصباح الخير، وعندما يأوى للنوم يتمنى لهم ليلة سعيدة.

وبالإضافة إلى التوتر المستمر وتقلصات وجهه يتجلى جنونه كذلك في التالي فأحياناً في المساء يلتف بروبه بينما جسده كله



يرتعث وأسنانه تصطك وهو يذهب ويجيء من ركن لركن وبين الأسرة ويبدو كأنه مصاب بحمى شديدة ومن توقفه المفاجئ وتحديقه في رفاقه يلوح أنه يريد أن يفضى بشيء مهم للغاية، ولكنه على ما يبدو يدرك أن أحداً لن يصغي إليه أو يفهمه، فيهز رأسه بنفاذ صبر ويواصل سيره إلا أن الرغبة في الحديث سرعان ما تتغلب على شتى الاعتبارات، فيطلق العنان لرغبته ويتكلم بحرارة وحماسة وحديثه مضطرب، محموم، كالهذيان، غير مترابط وليس مفهوماً دائماً، إلا أنك تسمع في كلامه وصوته شيئاً طيباً إلى أقصى حد وعندما يتحدث ترى فيه مجنوناً وإنساناً ومن الصعب أن تنقل إلى الورق حديثه المجنون وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذي ينتهك الحق، وعن الحياة الرائعة التي ستكون على الأرض بمضى الزمن، وعن قضبان النوافذ التي تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم ويتألف من ذلك خليط مشوش متناثر من الأغاني القديمة التي لم تكتمل بعد.

منذ حوالي اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة كان الموظف المحترم الميسور الحال جروموف يعيش في المدينة في منزله الخاص الواقع في أهم الشوارع الرئيسية وكان لديه ولدان، سرجي وإيفان وقد مرض سرجي وهو طالب في الصف الرابع بالسل وتوفي



بسرعة، وكأنما كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب التي انهالت فجأة على أسرة جروموف فبعد أسبوع من دفن سرجى قدم الأب العجوز للمحكمة بتهمة التزوير والاختلاس وسرعان ما توفي في مستشفى السجن من التيفوس وبيع المنزل وكل المنقولات بالمزاد العلني، وأصبح إيفان دميتريتش هو ووالدته دون أي مصدر دخل.

وكان إيفان دميتريتش، ووالده على قيد الحياة بعد، يعيش سابقاً في بطرسبرج، حيث كان يدرس في الجامعة، ويتقاضى ستين - سبعين روبلا في الشهر، ولا يدرى ما العوز أما الآن فقد اضطر إلى تغيير مجرى حياته تغييراً حاداً كان عليه أن يعطى من الصباح إلى الليل دروساً بخسة، ويزاول نسخ الكتب، ومع ذلك يجوع، لأنه كان يرسل كل دخله إلى أمه لتعيش منه ولم يستطع إيفان دميتريتش أن يتحمل هذه الحياة، فانهارت معنوياته، ومرض فهجر الجامعة ورحل إلى داره وفي هذه المدينة حصل بتوصية على وظيفة مدرس في مدرسة مركز إقليمي، ولكنه لم يوفق في التعايش مع زملائه ولم يعجب الطلبة، وسرعان ما ترك الوظيفة ثم ماتت أمه وقضى نصف سنة بلا عمل وهو لا يذوق سوى الخبز والماء، ثم التحق بوظيفة محضر محكمة وظل في هذه الوظيفة إلى أن فصل بسبب المرض. لم تكن تبدو عليه أبداً ملامح الصحة حتى في سنى شبابه



الدراسية بل كان دائماً شاحب الوجه، نحيلاً، سريع الإصابة بالبرد وكان يأكل قليلاً وينام نوماً سيئاً، ومن كأس نبيد واحدة يدور رأسه وتتابه الهستيريا كان دائماً يميل إلى معاشرته الناس، ولكن بسبب عصبيته وارتياحه لم تربطه علاقة حميمة بأحد ولم يكن لديه أصدقاء وكان يتحدث عن أهل المدينة دائماً باحتقار ويقول إن جهلهم الفظ وحياتهم الحيوانية الناعسة تبدو له حقيرة ومقرزة وكان يتكلم بصوت بنبره عاليه وبحرارة، ولا يتحدث إلا بغضب أو استنكار، أو بإعجاب ودهشة، ولكن دائماً بصدق وأياً كان الموضوع الذي تتحدث معه فيه فهو يحول الحديث إلى شيء واحد: فالحياة في المدينة خانقة مملة، وليس لدى المجتمع اهتمامات سامية، بل يحيا حياة كابية فارغة وينوعها بالطغيان والانحلال الفظ والنفاق الأوغاد شعبي ومكتسون، بينما يأكل الشرفاء الفئات لا بد من مدارس وجريدة محلية ذات اتجاه شريف، ومسرح، وحفلات إلقاء عامة وتلاحم القوى المستتيرة، ينبغي أن يدرك المجتمع نفسه ويرتاح وكان في أحكامه على الناس يضي ألواناً صارخة من الأبيض والأسود فقط ولا يعترف بدرجات الألوان وكانت البشرية لديه مقسمة إلى شرفاء وأوغاد، وليس بينهما وسط وكان يتحدث عن النساء والحب دائماً بحماسة وإعجاب، رغم أنه لم يجرب الحب مرة ورغم حدة أحكامه وعصبيته كانوا يحبونه في المدينة، ويدعون في غيابه فانيا وكان تهذيبه الموروث، وروحه



الخدوم، واستقامته ونقاؤه الخلقى، وسترته الرثة وهيئته المريضة ومصائبه العائلية تستدر شعوراً طيباً دافئاً وحزناً وفوق ذلك فقد كان متعلماً ومطلعاً بصورة جيدة، وحسب رأي أهل المدينة كان يعرف كل شيء وكان في المدينة أشبه بكتاب دليل متنقل.

وكان يقرأ كثيراً جداً كان يجلس طويلاً في النادي وهو يعبث بلحيته في عصبية ويقلب المجلات والكتب، ويبدو على وجهه أنه لا يقرأ بل يزدرد حتى قبل أن يتمكن من المضع ولا بد أن القراءة كانت إحدى عاداته المرضية، لأنه كان ينكب بنفس النهم على كل ما تقع عليه يده، حتى جرائد وتقويمات العام الماضي وفي داره كان يقرأ دائماً وهو راقد.

وذات صباح خريفى، سار إيفان دميتريتش عبر الحوارى والأفنية الخلفية وهو يخوض في الوحل وقد رفع ياقة معطفه، قاصداً أحد المواطنين ليتقاضى منه مبلغاً مستحقاً بأمر دفع وكان مزاجه عابساً كما هو الحال دائماً في الصباح وفي إحدى الحارات قابل سجينين مكبلين بالأغلال ومعهما أربعة حراس بنادق وكان إيفان دميتريتش في الماضي كثيراً ما يقابل المساجين، وكل مرة كانوا يثيرون فيه مشاعر العطف والخرج، أما اليوم فقد ترك هذا اللقاء في نفسه انطباعاً غريباً خاصاً فقد خيل إليه بغتة ولسبب ما أنه أيضاً يمكن



أن يكبل بالأغلال ويساق في الوحل إلى السجن على هذا النحو وبعد أن زار المواطن التقى في طريق عودته عند البريد بمفتش شرطة يعرفه فحياه هذا، وسار بجواره في الشارع بضع خطوات، ولسبب ما بدا له هذا مريباً وفي البيت لازمته طوال اليوم صورة المساجين والحراس ذوي البنادق، وعاقه عن القراءة والتركيز قلق نفسي غامض وفي المساء لم يشعل الضوء، ولم ينم طول الليل وهو يفكر في أنه قد يعتقل ويكبل ويلقى به في السجن وكان يعرف أنه لم يرتكب جرماً وبوسعه أن يضمن أنه في المستقبل أيضاً لن يقتل ولن يحرق ولن يسرق أبداً لكن هل من العسير أن يرتكب المرء جريمة عن غير قصد، بصورة عفوية، وأليس الافتراء محتملاً، وأخيراً ألا يمكن أن تخطئ المحكمة؟ وليس عبثاً أن الخبرة الشعبية العريقة تقول: يا ما في الحبس مظالم وفي ظل نظام القضاء الحالي فإن الخطأ محتمل جداً وما أسهل أن يقع فالأشخاص الذين لهم علاقة وظيفية أو عمل بمآسي الآخرين، كالقضاة ورجال الشرطة والأطباء مثلاً، يكتسبون بمضى الزمن وبحكم العادة مناعة إلى درجة أنهم لا يستطيعون حتى لو شاءوا غير ذلك إلا أن يتعاملوا مع زبائنهم بصورة شكلية من هذه الزاوية فهم لا يختلفون في شيء عن الفلاح الذي يذبح الخراف والعجول في الفناء الخلفي ولا يلاحظ الدماء وفي ظل الموقف الشكلي المجرد من المشاعر تجاه الفرد، لا يعود



القاضي بحاجة إلا لشيء واحد، هو الزمن، لكي يجرد الشخص البريء من جميع حقوق الملكية ويحكم عليه بالأشغال الشاقة الزمن فقط، لمراعاة بعض الإجراءات الشكلية التي يتقاضى القاضي راتبه مقابلها، وبعدها ينتهي كل شيء ولتبحث بعد ذلك عن العدالة والحماية في هذه المدينة الصغيرة القذرة، على بعد مائتي فرسخ من السكة الحديدية ثم أليس من المضحك أن تفكر في العدالة والمجتمع ينظر إلى أي طغيان وكأنه ضرورة حكيمة معقولة، بينما يثير أي عمل من أعمال الرحمة، كالحكم بالبراءة مثلاً، تفجراً هائلاً لمشاعر السخط والحنق؟ نهض إيفان دميتريتش من فراشه في الصباح مفزوعاً، والعرق البارد يغطي جبينه، وقد أصبح واثقاً تماماً من أنه قد يعتقل في أية لحظة وفكر في نفسه بأنه إذا كانت أفكار الأمس المرهقة لم تفارقه في هذه الفترة الطويلة فهذا يعني أن فيها جانباً من الصحة فلا يمكن بالفعل أن تراوده دون مبرر ومر شرطي على مهل بجوار النوافذ هذا ليس صدفة وها هما ذان شخصان قد وقفا قرب المنزل في صمت لماذا يصمتان؟ وحلت أيام وليال مضنية بالنسبة لإيفان دميتريتش كان يخيل إليه أن جميع المارين بجوار النوافذ والداخلين إلى الفناء هم من الجواسيس والمخبرين وكان المفتش يمر كل ظهيرة في الشارع في عربة بجوادين، قادماً من ضيعته في الضاحية إلى إدارة الشرطة، ولكن كان يخيل إلى إيفان



دميتريتش في كل مرة أنه يسير بسرعة وبتعبير خاص على وجهه: يبدو أنه يسرع ليبلغ أنه قد ظهر في المدينة مجرم خطير للغاية وكان إيفان دميتريتش ينتفض كلما سمع الجرس أو دقاً على الباب ويشعر بالقلق كلما رأى لدى ربة البيت شخصاً جديداً وعندما يلقي رجال الشرطة والدرك بيتسم ويصفر لكي يبدو غير مبال لم يكن ينام ليالي بأكملها في انتظار القبض عليه، ولكنه كان يشخر ويزفر بصوت عال كالنائم لكي تظن ربة الدار أنه نائم فعدم النوم يعنى أن ضميره يعذبه، فإيا له من دليل وكانت الحقائق والمنطق السليم تؤكد له أن كل هذه المخاوف هراء وسيكوباتية، وأن الاعتقال والسجن، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة أشمل، ليس فيهما ما يخيف في الواقع طالما كان ضمير المرء مستريحاً بيد أنه كلما فكر بمزيد من التعقل والحكمة ازداد قلقه النفسي شدة وعذابا وكان ذلك أشبه بالناسك الذي أراد أن يقتطع لنفسه مكانا في غابة عذراء، فكلما أعمل فأسه بهمه، ازدادت الغابة كثافة ونمواً وعندما أدرك إيفان دميتريتش في النهاية أن كل ذلك لا طائل منه، ترك عنه التفكير واستسلم تماماً لليأس والخوف.

وبدأ ينطوى ويتجنب الناس وعمله، الذي كان يمقته سابقاً أصبح الآن لا يطاق كان يخشى أن يدبروا له مكيدة ما، أن يضعوا في



جيبه رشوة بصورة غير ملحوظة ثم يضبطونه متلبساً بعد ذلك، أو أن يرتكب هو نفسه في الأوراق الحكومية خطأ عفوياً يرقى إلى منزلة التزوير، أو أن يضيع نقود العهدة ومن الغريب أن خياله لم يكن أبداً مرناً وخصباً كما هو الآن، إذ كان يتفتق كل يوم عن آلاف الحجج المختلفة التي تجعله يخاف على مصيره وشرفه ولكن في مقابل ذلك ضعف إلى حد كبير اهتمامه بالعالم الخارجي، خاصة بالكتب، وأصبحت ذاكرته تخونه كثيراً.

وفي الربيع، عندما ذاب الثلج وانحسر، اكتشفت في الغور المجاور للمقابر جثتا امرأة عجوز وصبي وبها آثار وفاة غير طبيعية ولم يعد الحديث يدور في المدينة إلا عن هاتين الجثتين والقَتلة المجهولين ولكي لا يظن أحد أن إيفان دميتريتش هو القاتل، أخذ يسير في الشوارع مبتساً، وعندما يلتقى بمعارف يشحب وجهه ثم يتفرج، وأخذ يؤكد أنه ليس هناك جريمة أشد دناءة من قتل الضعفاء والمساكين ولكن هذا الكذب سرعان ما أرهقه، وبعد قليل من التفكير قرر أن أفضل شيء له في وضعه هذا أن يختبئ في قبو ربة الدار ومكث في القبو نهاراً وليلة ونهاراً آخر، وبرد بشدة فانتظر حلول الظلام ثم صعد خفية إلى غرفته كاللص ووقف حتى الفجر في وسط الغرفة بلا حراك وهو يصيخ السمع وفي الصباح الباكر، قبل شروق الشمس



جاء البناءون إلى ربة الدار وكان إيفان دميتريتش يعلم جيداً أنهم جاءوا ليعيدوا بناء الفرن في المطبخ، ولكن الخوف صور له أنهم رجال شرطة متكرون في زى بنائين فخرج من الشقة في هدوء وبدون سترة أو غطاء رأس وقد استولى عليه الرعب، وركض في الشارع وانطلقت وراءه الكلاب وهي تتبج، وصاح خلفه شخص ما، وصفرت الريح في أذنيه، وخيل لإيفان دميتريتش أن طغيان العالم كله قد تجمع وراءه يطارده.

وأمسكوا به وأعادوه إلى المنزل وأرسلوا ربة الدار لاستدعاء الطبيب وأوصى الطبيب أندريه يفيمتش الذي سنتحدث عنه فيما بعد، بكمدات باردة على الرأس وبقطرات الغار والكرز، وهز رأسه في أسى وانصرف بعد أن قال لربة الدار إنه لن يعود بعد ذلك لأنه لا ينبغي إعاقة الناس عن الجنون ولما لم يكن لدى إيفان دميتريتش في المنزل ما يعيش ويتعالج به فقد أرسلوه إلى المستشفى ووضعوه هناك في عنبر الأمراض الجنسية ولم ينم الليالي وهو يتأفف ويزعج المرضى، وسرعان ما نقلوه بأمر أندريه يفيمتش إلى عنبر رقم 6. وبعد عام نسي أهالي المدينة إيفان دميتريتش تماماً، أما كتبه التي كومتها ربة الدار في المدخل تحت الرف فقد بددها الصبيان. كان جار إيفان دميتريتش الأيسر، كما قلت، هو اليهودي موسىكا،



أما جاره الأيمن ففلاح غطاء الشحم، مستدير تقريباً، ذو وجه بليد لا يعبر عن أي شيء كان ذلك حيواناً عديم الحركة، شرهاً، قدر الجسم، فقد منذ أمد بعيد القدرة على التفكير والإحساس وكانت تتبع منه باستمرار رائحة عفونة حادة خانقة.

وكان نيكيتا، الذي ينظف له مكانه، يضربه بفضاعة وبكل قوته، غير مشفق على قبضتيه ولم يكن المرعب في الأمر أنهم يضربونه، فهذا يمكن التعود عليه، وإنما المرعب أن هذا الحيوان البليد لم يكن يند عنه أثناء الضرب صوت أو حركة أو نظرة بل كان يتمايل قليلاً فحسب، كبر ميل ثقيل.

أما النزيل الخامس والأخير في عنبر رقم 6 فكان من الطبقة الوسطى يعمل في وقت ما فرازاً في البريد، وكان صغيراً، نحيلاً، أشقر ذا وجه طيب ولكنه مكر بعض الشيء ويبدو من عينيه الذكيتين الهادئتين اللتين تطل منهما نظرة صافية مرحة أنه حريص، ويحتفظ بسر مهم للغاية وسار ولديه تحت المرتبة شيء ما لا يريه لأحد، لا خوفاً من أن يخطفوه منه أو يسرقوه، بل خجلاً وأحياناً يقترب من النافذة، ويولى ظهره لرفاقه، ويرتدي شيئاً ما على صدره ويتطلع وقد أحنى رأسه وإذا اقترب منه أحد في تلك اللحظة يرتبك وينزع شيئاً ما في صدره بيد أنه ليس من الصعب معرفة سره وكثيراً ما



يقول لإيفان دميتريتش: هنئني، لقد رشحت لوسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية وبنجمة الطبقة الثانية والنجمة لا تمنح إلا للأجانب ولكنهم لسبب ما يريدون تقديم هذا الاستثناء لي وبيتسم ويهز كتفيه مستغرباً - أصارحك لم أكن أتوقع هذا فيقول إيفان دميتريتش بتجهم أنا لا أفهم شيئاً في هذه الأمور فيستطرد الفراز السابق وهو يزر عينيه بمكر: ولكن أتدري ما الذي سأبلغه عاجلاً أم آجلاً؟ سوف أحصل حتماً على النجم القطبي السويدي إنه وسام يستحق أن تسعى من أجله صليب أبيض وشريط أسود إنه جميل جداً.

وربما لا تسير الحياة في أي مكان آخر بمثل هذه الرتبة كما في الجناح ففي الصباح يغتسل المرضى، ما عدا المشلول والفلاح السمين، في الردهة من وعاء كبير ويجففون وجوههم بذيول أروابهم وبعد ذلك يشربون في أكواز معدنية الشاي الذي يأتي به نيكيتا من المبنى الرئيسي ويخص كلاً منهم كوز واحد وفي منتصف النهار يتناولون حساء من الكربن الحامض وعصيدة، وفي المساء يتعشون بالعصيدة المتبقية من الغداء وبين ذلك يستلقون وينامون ويتطلعون من النوافذ ويسيروا من ركن إلى ركن هكذا كل يوم وحتى الفراز السابق يتحدث دائماً عن الأوسمة نفسها.

ونادراً ما يرى أحد حديث في عنبر رقم 6 فالدكتور لم يعد من



زمن طويل يقبل مجانين جدد، أما هواة زيارة مستشفيات المجانين فقليلون في هذا العالم ومرة كل شهرين يأتي الحلاق سيميون لازريتش إلى الجناح ولن نروى هنا كيف يحلق للمجانين، وكيف يعاونه نيكيثا في ذلك، ومدى الاضطراب الذي يعتري المرضى في كل مرة يظهر فيها الحلاق الشمل المبتسم.

وبخلاف الحلاق لا يزور الجناح أحد لقد حكم على المرضى ألا يروا يوماً بعد يوم غير نيكيثا بيد أنه ترددت في مبنى المستشفى منذ فترة قريبة شائعة غريبة إلى حد كبير لقد قيل إن الدكتور أخذ يتردد على عنبر رقم 6.

فالدكتور أندريه يفيميتش راجين إنسان رائع من نوعه، ويقال إنه كان في صباه شديد التدين ويعد نفسه للخدمة الدينية، وإنه بعد أن أنهى الدراسة في المدرسة عام 1893 كان يعتزم الالتحاق بالأكاديمية الدينية، ولكن أباه، الدكتور الجراح، سخر منه سخرية لاذعة، وأعلن له بشكل قاطع أنه لن يعتبره ابناً له إذا ما أصبح قسيساً ولست أدري ما مدى صحة ذلك، ولكن أندريه يفيميتش نفسه اعترف غير مرة أنه لم يشعر أبداً بميل للطب وللعلوم المتخصصة بشكل عام وأياً كان الأمر فبعد أن تخرج من كلية الطب لم يصبح قسيساً ولم يبد عليه تدين خاص، وكان في بداية حياته العملية قليل



الشبه برجل الدين، مثلما هو الآن أيضاً.

كانت هيئته ثقيلة، خشنة، كهيئة فلاح وكان بوجهه ولحيته وشعره المسطح وبدنه القوي غير المتناسق أشبه بصاحب حانة على طريق رئيسي، متخم، متهور، وحاد الطباع كان وجهه قاسياً، مغطى بعروق زرقاء، وعيناه صغيرتين وأنفه أحمر وإلى جانب قامته الطويلة وكتفيه العريضتين كان ضخم الساقين واليدين، حتى ليخيل إليك أنه لو لكم لكمة لأزهق الروح ولكن وقع خطواته كان خفيفاً ومشيته حذرة، متلصصة، وعندما يقابل أحداً في ممشى ضيق يبادر إلى التوقف ليفسح الطريق، ويقول بصوت غليظ كما تتوقع، بل بصوت رفيع لين آسف وفي رقبته ورم صغير يعوقه عن ارتداء الياقات المنشأة الصلبة، ولذلك يرتدي دائماً قميصاً ناعماً من الكتان أو الشيت وعموماً فهندامه ليس هندام دكتور فهو يلبس نفس البدلة حوالي عشر سنوات، أما الملابس الجديدة التي يبتاعها عادة من متجر يهودي فتبدو عليه مستعملة ومجعدة كملابسه القديمة وكان في السترة نفسها يستقبل المرضى ويتناول الغداء ويزور المعارف ولم يكن ذلك بسبب البخل، بل لعدم اهتمامه بمظهره على الإطلاق.

وعندما وصل أندريه فيمتمش إلى المدينة ليتسلم عمله كان المستشفى في حالة فظيعة كان من الصعب أن تتنفس في العنابر



والطرقات وفناء المستشفى من العفونة وكأن خدم المستشفى والمريبات وأولادهم ينامون في العنابر مع المرضى وتعالى الشكوى من الصراخ والبقي والفئران وفي قسم الجراحة لم ينقطع مرض الحمرة ولم يكن في المستشفى كلها سوى مشرطين وليس بها ترمومتر واحد وكانوا يحفظون البطاطس في أحواض البانيو وكان المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم يسرقون المرضى، وقيل إن الدكتور العجوز، سلف أندريه يفيميتش كان يمارس سرّاً بيع كحول المستشفى، وكون لنفسه حزباً كاملاً من المريبات والمريضات وكانوا يعرفون في المدينة هذه الفوضى تمام المعرفة بل وبيالغون في وصفها لكنهم نظروا إليها بهدوء كان البعض يبررها بأن المستشفى لا ينزل به سوى متوسطى الحال والفلاحين، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا غير راضين لأن حياتهم في المنزل أسوأ بكثير من المستشفى، ومن غير المعقول أن تقدم لهم الديوك البرية ويبررها البعض الآخر بأن المدينة وحدها، دون مساعدة مجلس الإقليم، غير قادرة على تأمين مستشفى جيد، والحمد لله أن لدينا مستشفى حتى لو كان سيئاً أما مجلس الإقليم فلم يفتح مستشفى لافي المدينة ولا قربها تدرعاً بأن للمدينة مستشفاها.

وبعد أن تفقد أندريه يفيميتش المستشفى توصل إلى استنتاج



بأن هذه المؤسسة لا أخلاقية ومضرة إلى أقصى حد بصحة النزلاء وكان من رأيه أن أصوب مايمكن عمله هو إطلاق سراح المرضى وإغلاق المستشفى ولكنه أدرك أن إرادته وحدها لا تكفي لذلك وأنه لا فائدة من هذا؛ فإذا أزيلت القذارة الجسدية والخلقية من مكان فسوف تنتقل إلى مكان آخر ينبغي الانتظار إلى أن تتبخر بنفسها وعلاوة على ذلك فإذا كان الناس قد افتتحوا مستشفى ويتحملون بقاءه لديهم فمعنى ذلك أنهم بحاجة إليه فالخزعبلات وكل هذه الوضاعة والحقارة المعيشية مطلوبة لأنها بمضى الزمن تتحول إلى شيء مفيد، كما يتحول الروث إلى سماد وليس هناك في الدنيا شيء طيب إلا وكان فيه شيء حقير في أصله.

ويبدو أن أندريه يفيميتش، بعد أن تسلم الوظيفة، نظر إلى تلك الفوضى نظرة لا مبالية إلى حد كبير ولم يفعل سوى أن طلب من خدم المستشفى والمربيات ألا يبيتوا في العنابر، ووضع صواني بها أدوات جراحة أما المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم ومرضى الحمرة فقد ظلوا في أماكنهم.

وأندريه يفيميتش يهوي للغاية الحكمة والشرف، بيد أنه لا يملك من الإرادة والإيمان بحقه ما يكفي لكي يجعل الحياة من حوله حكيمة وشريفة وهو لا يجيد أبداً إصدار الأوامر والمنع والإصرار وكأنه



قطع على نفسه عهداً بالأل يرفع صوته أبداً وألا يستخدم صيغة الأمر ومن الصعب عليه أن يقول أعطني أو هات وعندما يريد أن يأكل، يسعل بتردد ويقول للطاهية: لو أمكن شاي أو لو أمكن أن أتغدى وأن يقول للمشرف بأن يكف عن السرقة، أو أن يطرده، أو يلغي تماماً هذه الوظيفة التي لا داعي لها، فهذا أمر لا يقوى عليه أبداً وعندما يخدعون أندريه يفيميتش أو يتملقونه، أو يقدمون له حساباً مزوراً عمداً ليوقع عليه فإنه يحمر كسرطان البحر، ويحس بنفسه مذنباً، بيد أنه يوقع الحساب وعندما يشكو له المرضى من الجوع أو من فظاظة المربيات، يخجل ويدمدم بنبرة اعتذار:

حسناً، حسناً، سأنظر في ذلك فيما بعد يبدو أن هناك سوء فهم وفي الأيام الأولى عمل أندريه يفيميتش باجتهاد كبير كان يستقبل المرضى كل يوم من الصباح إلى الظهر، ويجري العمليات الجراحية، بل ويمارس التوليد وقالت عنه النساء إنه معتن ويخمن الأمراض بصورة ممتازة خاصة أمراض الأطفال والنساء ولكن بمرور الزمن سئم العمل بشكل ملحوظ لرتابته وعدم جدواه الواضحة فاليوم تستقبل ثلاثين مريضاً، وإذا بك تستقبل غداً خمسة وثلاثين، وبعد غد أربعين، وهكذا يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، بينما نسبة الوفيات في المدينة لا تقل، ولا يكف المرضى عن المجيء وليس هنا كإمكانية



بدنية لمساعدة أربعين مريضاً مساعدة جادة من الصباح حتى الظهر، إذن فالنتيجة محض خداع رغماً عنك ويكتب في التقرير السنوي أنه تم الكشف على اثني عشر ألف مريض خارجي، أي ببساطة تم خداع اثني عشر ألف شخص كذلك فمن المستحيل وضع المرضى الخطرين في العنابر ومعالجتهم حسب القواعد العلمية لأن القواعد موجودة أما العلم فغير موجود وإذا ما تركنا الفلسفة جانباً واتبعنا القواعد بدقة، كما يفعل أطباء آخرون، فلا بد أولاً من توفر النظافة والتهوية لا القذارة، والغذاء السليم لا حساء الكربن الحامض الكريه الرائحة، والمعاونين الجيدين لا اللصوص.

وعموماً فلماذا نمنع الناس من أن يموتوا طالما أن الموت هو النهاية الطبيعية المشروعة لكل إنسان؟ وما جدوى أن يعيش تاجر أو موظف خمسة أو عشرة أعوام زيادة؟ وإذا اعتبرنا أن هدف الطب هو أن تخفف الأدوية الآلام فإن السؤال الذي يثور لا إرادياً هو: وما الداعي لتخفيفها؟ فأولاً: يقال إن الآلام تفضي بالإنسان إلى الكمال، وثانياً: لو أن البشرية تعلمت بالفعل أن تخفف آلامها بالحبوب والقطرات، فسوف تهجر تماماً الدين والفلسفة، اللذين وجدت فيهما حتى الآن لا مجرد الحماية من شتى المصائب، بل السعادة كذلك لقد عانى بوشكين قبل موته عذاباً رهيباً، وهاني



المسكين رقد مشلولاً عدة سنوات، فلماذا لا يمرض من يدعي أندريه يفيميتش أو ماتريونا سافيتشنا، اللذان تعتبر حياتهما تافهة، ولولا الآلام لأصبحت فارغة تماما كحياة الأميبا؟ وأثقلت هذه الأفكار على أندريه يفيميتش فتراخي ولم يعد يتردد على المستشفى كل يوم.

تسير حياته على النحو التالي: يستيقظ عادة في الثامنة صباحاً، فيرتدى ملابسه ويتناول الشاي ثم يجلس إلى مكتبه ليقراً أو يذهب إلى المستشفى وهنا، في المستشفى، وفي طرقة ضيقة مظلمة يجلس المرضى الخارجيون في انتظار الكشف ومن جوارهم يهرول الخدم والمربيات وهم يدقون بأحذيتهم على الأرضية الحجرية، ويمر المرضى الهزالي في أردية المستشفى وينقل الموتى والأوعية بالفضلات، ويكي الأطفال، وتهب تيارات الهواء وأندريه يفيميتش يعلم أن هذا الوضع بالنسبة للمرضى بالحمى والمسلولين، وعموماً للمرضى السريعى التأثير، وضع معذب، ولكن ما العمل؟ ويقابله في غرفة الاستقبال الحكيم سرجى سرجيتش، وهو رجل صغير بدين، ذو وجه نظيف حليق مكتنز، وحركات ناعمة انسيابية، وفي حلة جديدة فضفاضة، ويبدو أكثر شبهاً بسناتور منه بحكيم وله في المدينة زبائن لا حد لهم، وهو يضع ربطة عنق بيضاء ويعتبر نفسه أكثر إماماً من الدكتور الذي ليس لديه أي زبائن وفي ركن



غرفة الاستقبال أيقونة كبيرة في إطار قنديل ثقيل، وبالقرب منها حامل في غلاف أبيض وعلى الجدران صور الأساقفة ومنظر لدير سفيتاجورسك وأكاليل من الزهور البرية الجافة وسرجى سرجيتش رجل متدين يحب الرونق والجلال وقد وضع الأيقونة على نفقته وفي الآحاد يتلو أحد المرضى بأمر منه الدعاء بصوت مسموع، وبعد التلاوة يقوم سرجى سرجيتش بنفسه بالمرور على جميع العنابر بالمبخرة وهو يطلق البخور ولكثرة المرضى وقلة الوقت يقتصر الأمر على سؤال سريع للمريض وإعطائه دواء ما، مرهم مثلاً أو شربة زيت خروج ويجلس أندريه يفيميتش معتمداً بخده على قبضته ومستغرقاً في التفكير ويوجه الأسئلة ألياً وسرجى سرجيتش جالس أيضاً يفرك يديه ويتدخل أحياناً قائلاً نمرض ونعاني من الفقر لأننا لا نصلى للرب الرحيم جيداً نعم وأثناء الكشف لا يجري أندريه يفيميتش أية عمليات جراحية، فقد نسى كيف يقوم بها منذ زمن بعيد وأصبح منظر الدماء يثير فيه اضطراباً كريهاً وعندما يضطر إلى فتح فم طفل لينظر في حلقه بينما يصرخ الطفل ويحتمي نفسه بيديه، يدور رأسه من الطنين في أذنيه وتدمع عيناه ويسارع إلى كتابة الدواء ويشيح بيديه لكي تتصرف المرأة بالطفل سريعاً وأثناء الكشف سرعان ما يمل من رجل المرضى وقلة حيلتهم، ومن وجود سرجى سرجيتش الجليل بقربه، ومن الصور المعلقة على الجدران،



ومن أسئلته هو التي يوجهها دون تغيير منذ حوالي عشرين سنة
فينصرف بعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى أما البقية فيكشف
عليهم الحكيم.

ويعود أندريه فيميتش إلى المنزل بفكرة سارة وهي أنه والحمد
لله لم يعد يملك عيادة خاصة منذ زمن بعيد، ومن ثم فلن يزعجه أحد،
فيجلس على الفور في غرفة المكتب ويشرع في القراءة وهو يقرأ
كثيراً وباستمتاع كبير دائماً وينفق نصف راتبه في شراء الكتب، وتغص
ثلاث حجرات في شقته المكونة من ست غرف بالكتب والمجلات
القديمة يهوي أكثر شيء كتب التاريخ والفلسفة، أما في الطب فلا
يشارك سوى في مجلة الطبيب التي يبدأ قراءتها دائماً من آخر
صفحة ويستمر في القراءة كل مرة عدة ساعات بدون راحة ولا يتعب
وهو لا يقرأ بتلك السرعة والاندفاع مثلما كان يقرأ إيفان دميتريتش
في وقت ما، بل ببطء وتمعن وكثيراً ما يتوقف عند المواضيع التي
تعجبه أو التي لا يفهمها ويجوار الكتاب يوجد دائماً إبريق فودكا
وخيارة مملحة أو تفاحة مخللة موضوعة على جوخ المكتب مباشرة
بدون طبق وكل نصف ساعة يصب لنفسه قدح فودكا، وهو لا يحول
عينيه عن الكتاب، ويشربه، ودون أن ينظر يتحسس الخيارة ويقضم
منها قطعة وفي الساعة الثالثة يقترب من باب المطبخ بحذر ويسعل



ثم يقول: يا داريوشكا، لو أمكن أن أتغدى وبعد الغداء السيئ والكريه يتجول أندريه يفيميتش في غرف شقته وقد عقد ذراعيه على صدره وراح يفكر وتدق الساعة الرابعة، ثم الخامسة بينما لا يزال يتجول ويفكر وأحياناً يصر باب المطبخ، ويطل منه وجه داريوشكا الأحمر الناعس وتسأله بقلق: يا أندريه يفيميتش، ألم يحن الوقت لتناول البيرة؟ فيرد: كلا، ليس بعد سأنتظر سأنتظر ويأتي عادة في المساء مدير مكتب البريد ميخائيل أفيريانيتش، الإنسان الوحيد في المدينة كلها الذي لا تثقل صحبته على أندريه يفيميتش كان ميخائيل أفيريانيتش في وقت ما إقطاعياً غنياً جداً يخدم في سلاح الفرسان، ولكنه أفلس، واضطره العوز إلى الالتحاق بإدارة البريد وهو في شيخوخته وكان ذا هيئة أنشطة صحيحة، وسالفين أشيبين فاخرين، وحركات مهذبة وصوت جهورى لطيف وهو إنسان طيب، حساس ولكنه سريع الغضب.

وعندما يحتج أحد زوار مكتب البريد ويبدى عدم موافقته أو حتى يشرع في النقاش يتضجر وجه ميخائيل أفيريانيتش بحمرة قانية، ويرتعش بدنه كله ويصرخ بصوت كالرعد: اخرس، حتى إن مكتب البريد اكتسب منذ أمد طويل سمعة المؤسسة المرعبة لمن يزورها وميخائيل أفيريانيتش يحترم أندريه يفيميتش ويحبه لثقافته



ونبل أخلاقه، أما الآخرون فينظر إليهم بتعال، نظرته إلى مرؤوسيه. ويقول وهو يدخل على أندريه يفيميتش: ها أنا ذا مرحباً يا عزيزي أظن أنني قد أثقلت عليك، هه؟ فيرد الدكتور: بالعكس، أنا سعيد جداً أنا دائماً أسعد برؤياك ويجلس الصديقان في غرفة المكتب على كنبه، ويدخانان في صمت بعض الوقت ثم يقول أندريه يفيميتش: يا داريوشكا، لو أمكن بيعة.

ويشربان الزجاجاة الأولى أيضاً في صمت يشرب الدكتور مستغرقاً في التفكير، وميخائيل أفيريانيتش في هيئة مرحة متلهلة كالشخص الذي لديه قصة مشوقة جداً سيرويها والدكتور هو الذي يبدأ الحديث دائماً.

- مما يؤسف له يقول ببطء وصوت خافت وهو يهز رأسه ولا يتطلع إلى عيني محدثه وهو لا ينظر أبداً في العينين مما يؤسف له أشد الأسف يا ميخائيل أفيريانيتش المحترم، أنه لا يوجد في مدينتنا على الإطلاق أناس يستطيعون ويحبون أن يتحدثوا حديثاً ذكياً شيقاً هذه خسارة كبيرة لنا حتى المثقفون لا يرقون فوق مستوى الوضاعة أوكد لك أن مستوى رقيهم لا يعلو أبداً على مستوى الطبقة الدنيا.

- صحيح تماماً أنا متفق معك ويستترد الدكتور بصوت خافت



وبتمهل: أنت نفسك تعلم أن كل شيء في هذه الدنيا تافه وممل باستثناء أسمى مظاهر العقل الإنساني فالعقل يضع فاصلاً حاداً بين الحيوان والإنسان ملمحاً إلى ألوهية الأخير، وإلى حد ما يعوضه عن الخلود الذي لا وجود له وانطلاقاً من هذا يصبح العقل المصدر الوحيد المتاح للمتعة أما نحن فلا نسمع ولا نرى من حولنا العقل فإذا نحن محرومون من المتعة صحيح أن لدينا كتباً، ولكن ذلك يختلف تماماً عن الحديث الحي والتخاطب وإذا سمحت لي أن ألجأ إلى تشبيهه غير موفق تماماً فإن الكتب هي النوتة، أما الحديث فهو الغناء صحيح تماماً ويسود الصمت وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن بليد وتعتمد على قبصتها بوجهها وتقف في الباب لكي تسمع ويتهد ميخائيل أفيريانيتش قائلاً: - إيه أتريد عقلاً من هؤلاء.

ثم أخذ يتحدث عن أن الحياة في الماضي كانت رائعة ومرحة وشيقة، وكم كان المثقفون في روسيا أذكىء، وكم كانوا يقدرّون تقديراً عالياً مفاهيم الشرف والصدقة كانوا يقرضون النقود دون إيصال، وكان يعد من العار ألا تمدّ العون لرفيق محتاج ويا للرحلات، والمغامرات، والمصادمات، ويا للرفاق ويا للنساء والقوقاز يا له من بقعة مدهشة وهناك زوجة قائد إحدى الكتائب، امرأة غريبة، كانت



ترتدي زي الضباط وتصعد الجبال في المساء وحدها، دون دليل ويقال إنها كانت على علاقة غرامية بأحد الأمراء الصغار في القرى الجبلية. فتنهد داريوشكا قائلاً: أيتها السيدة العذراء، الرحمة وكيف كانوا يشربون كيف كانوا يأكلون وأي ليبراليين جسورين كانوا ويصغي أندريه يفيميتش إليه ولا يسمع، فهو يفكر في شيء ما ويجرع البيرة ويقول فجأة مقاطعاً ميخائيل أفيريانيتش كثيراً ما أرى في الحلم أناساً أذكاء وأنا أتحدث معهم لقد منحنى أبى تعليماً ممتازاً، ولكنه، تحت تأثير أفكار الستينيات، أجبرني أن أصبح طبيباً ويخيل إلى أنني لو لم أطاوعه آنذاك لكنت الآن في قلب الحركة الفكرية وربما كنت منضماً إلى عضوية كلية ما العقل بالطبع شيء غير خالد بل زائل، ولكنك تعلم الآن لماذا أشعر بالميل إليه فالحياة فخ محزن وعندما يحقق الشخص المفكر فرصته ويبلغ وعيه درجة النضج، يحس بنفسه لا إرادياً كأنه قد وقع في فخ لا مهرب منه وبالفعل، فقد جاء إلى الحياة من العدم رغم إرادته بفعل عوامل عارضة فلماذا؟ إنه يريد أن يعرف مغزى وهدف وجوده فلا يقال له، أو تقال له حماقات ويدق الباب فلا يفتح له أحد ويأتيه الموت أيضاً رغم إرادته وهكذا، كمافي السجن، عندما يشعر الأشخاص الذين جمعتهم المأساة المشتركة بنوع من الارتياح عندما يجتمعون معاً، كذلك في الحياة، لا



يحس الأشخاص الميالون إلى التحليل والتعميم بوجود الفخ عندما يجتمعون معاً ويقضون الوقت في تبادل الأفكار الحرة الأبية وبهذا المعنى يعتبر العقل متعة لا بديل لها .

صحيح تماماً ويمضي أندريه يفيميتش، دون أن يتطلع في عيني محدثه، في الحديث بصوت خافت مع فواصل صمت عن الأشخاص الأذكياء والحديث معهم، بينما يصغي ميخائيل أفيريانيتش إليه بانتباه ويصدق على ما يقول صحيح تماماً وفجأة يسأل مدير البريد: ألا تؤمن بخلود الروح؟ كلا، يا ميخائيل أفيريانيتش الموقر، لا أؤمن، وليس لدى سند للإيمان أصارحك بأني أيضاً أشك ومع ذلك فلدى إحساس بأني لن أموت أبداً وأحياناً أقول لنفسي: إيه أيها العجوز لقد حان الوقت لتموت ولكن صوتاً في داخلي يقول: لا تصدق، لن تموت وفي بداية الساعة العاشرة ينصرف ميخائيل أفيريانيتش ويقول وهو يرتدي معطفه في المدخل: انظر إلى أي ركن مهجور أقلت بنا الأقدار أكثر ما يحزن أننا سنموت هنا إيه بعد أن يودع أندريه يفيميتش صديقه يجلس إلى الطاولة ويشرع في القراءة ثانية ولا يعكر صمت المساء ثم بعد ذلك صمت الليل بلا أي صوت، ويبدو كأن الزمن قد توقف وتسمر مع الدكتور فوق الكتاب، ويبدو كأنما لا يوجد شيء غير هذا الكتاب والمصباح ذي الغطاء الأخضر، وشيئاً



فضيئاً يتهلل وجه الدكتور الخشن الفلاحي بابتسامة هيام وإعجاب بحركة العقل الإنساني ويقول لنفسه: أوه، لم لا يكون الإنسان خالداً؟ وما الداعي لمراكز المخ وتجاعيده، ما الداعي للبصر والكلام والإحساس والعبقرية، إذا كان مقدراً لكل هذا أن يواريه التراب ويبرد في النهاية مع قشرة الأرض، ثم يدور بعد ذلك ملايين السنين حول الشمس بلا معنى ولا غاية؟ فلكي يبرد ثم يدور بعد ذلك، لا داعي أبداً لاستخراج الإنسان من العدم بعقله السامي الذي يكاد يكون عقل إله، ثم تحويله بعدها إلى تراب وكأنها سخرية به.

التمثيل الغذائي ولكن باله من جبن أن يعزى المرء نفسه ببديل الخلود هذا إن العمليات غير الواعية التي تجرى في الطبيعة هي أدنى قدراً حتى من الحماقة الإنسانية، لأن الحماقة فيها مع ذلك وعي وإرادة، بينما ليس في العمليات أدنى شيء إن الجبان وحده، والذي لديه من الخوف أمام الموت أكثر مما لديه من الكرامة، هو الذي يمكن أن يعزى نفسه بأن جسده سوف يعيش مع الزمن في العشب والحجر والصفدعة أن يرى المرء خلوده في التمثيل الغذائي هو على نفس القدر من الغرابة مثلما تتنبأ بمستقبل باهر لصندوق الكمان بعد أن تحطم الكمان القيم وأصبح غير صالح للاستعمال وعندما تدق الساعة يضطجع أندريه يفيميتش على ظهر المقعد ويفغمض



عينيه لكي يفكر قليلاً وعن غير قصد، تحت تأثير الأفكار الجيدة التي قرأها في الكتب، يلقي نظرة على ماضيه وحاضره الماضى كريبه، من الأفضل ألا يتذكره والحاضر مثله مثل الماضي فهو يعلم أنه في الوقت الذي تدور أفكاره مع الأرض الباردة حول الشمس، هناك على مقربة من شقته، وفي مبنى المستشفى الرئيسي يعاني أناس تحت وطأة المرض والقذارة الجسدية وربما بينهم من لا ينام الآن وهو يصارع الحشرات، ومن يصاب بالحمرة أو يئن من الضمادة المربوطة بشدة وربما يلعب المرضى الورق مع المربيات ويجرعون الفودكا في التقرير السنوي تم خداع اثني عشر ألف شخص وكل أمور المستشفى، كما كانت منذ عشرين عاماً، قائمة على السرقة والمشاجرات والأقاويل والمحسوبة، وعلى الشعوذة الفضة، ولا يزال المستشفى، كما كان، مؤسسة لا أخلاقية وضارة للغاية بصحة النزلاء وهو يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى في عنبر رقم 6 خلف القضبان، وأن مويسيكا يطوف بالمدينة كل يوم ويجمع الصدقات ومن ناحية أخرى فهو يعلم جيداً أنه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية حدث تحول أسطوري في الطب فعندما كان يدرس في الجامعة خيل إليه أن الطب سيؤول عما قريب إلى ما آلت إليه الكيمياء والميتافيزيقا، أما الآن وعندما يقرأ في الليل فإن الطب يهزمه ويشير فيه الدهشة، بل الإعجاب وبالفعل فيا له من رقي غير متوقع، يا لها



من ثورة فبفضل مضادات التقيح تجرى العمليات التي كان بيروجوف العظيم يعتبرها مستحيلة حتى وأطباء الأرياف العاديون يقدمون على إجراء عملية استئصال مفصل الركبة، ومن كل مائة عملية شق الرحم تحدث حالة وفاة واحدة، أما مرض الحصى فيعتبر من التفاهة بحيث إنهم حتى لا يكتبون عنه، وثمة علاج جذري للزهري، ونظرية الوراثة، والتتويم المغناطيسي واكتشافات باستير وكوخ، والوقاية وطبنا الروسي الريفي؟ إن علم الأمراض النفسية بتقسيمه الحالي للأمراض، وطرق الاكتشاف والعلاج، هو، بالمقارنة مع ما كان في الماضي، جيل كامل المجانين الآن لا يعالجون بصب الماء البارد على رؤوسهم، ولا يلبسونهم قمصان الكتان بل يعاملونهم معاملة إنسانية، بل وكما تكتب الصحف يقيمون لهم التمثيليات والحفلات وأندريه يفيميتش يعرف أنه في ظل الآراء والأذواق الراهنة فإن وضاعة مثل عنبر رقم 6 لا يمكن أن توجد إلا على بعد مائتي فرسخ من السكة الحديدية، وفي مدينة رئيسها وجميع نواب بلديتها من صغار البرجوازيين أنصاف المتعلمين الذين يرون في الطبيب كاهناً ينبغي تصديقه بلا أي انتقاد حتى لو صب في الفم قصديراً مصهوراً ولو كان هذا في مكان آخر لكان الجمهور والصحافة قد مزقا قلعة الباستيل الصغيرة هذه إربا منذ زمن بعيد الكيمياء القديمة التي لم تكن قائمة على أسس علمية بل على الشعوذة والسحر ويسأل



أندريه يفيميتش نفسه وهو يفتح عينيه: ثم ماذا؟ ما الذي تمخض عن هذا؟ حقا هناك مضادات التقيح وكوخ وباستير ولكن جوهر الأمر لم يتغير أبداً فالمرض والموت ظلا كما هما والمجانين يشهدون التمثيليات والحفلات، ومع ذلك لا يطلق سراحهم إذن فكل ذلك هراء وأباطيل وليس هناك في الواقع أي فرق بين عيادة جيدة في فيينا وبين مستشفى ولكن الحزن وإحساساً يشبه الحسد يعوقانه عن أن يكون لامبالياً يبدو أن ذلك من أثر الإرهاق ويميل رأسه المثقل على الكتاب، فيضع يديه تحت وجهه ليجعل منها وسادة لينة، ويفكر:

إني أخدم قضية مضرّة وأنقاضى أجراً من الناس الذين أخدمهم أنا غير شريف ولكني في حد ذاتي لست شيئاً، أنا مجرد جزء صغير من الشر الاجتماعي المطلوب: جميع موظفي الأقاليم مضرون ويتقاضون أجورهم عبثاً إذن فلست أنا المذنب في عدم شرفي، بل الزمن لو أنني ولدت بعد مائتي عام لكنت شخصاً آخر وعندما تدق الساعة الثالثة يطفئ المصباح ويتجه إلى غرفة النوم ولا يشعر برغبة في النوم منذ حوالي عامين تكرم مجلس الإقليم فقرر تخصيص ثلاثمائة روبل سنوياً كمساعدة لتعزيز الطاقم الطبي في مستشفى المدينة لحين افتتاح مستشفى للإقليم، ودعت المدينة الطبيب الريفي يفجيني فيودوروفيتش خوبونوف لمعاونة أندريه يفيميتش



وكان هذا شخصاً شاباً للغاية لم يبلغ الثلاثين بعد أسود الشعر، طويل القامة ذا وجنتين عريضتين وعينين صغيرتين، إذ يبدو أن حدوده كانوا أجنب وقد جاء إلى المدينة خاوي الوفاض، بحقيبة صغيرة وامرأة شابة دميمة يسميها طاهيته ولدى هذه المرأة طفل رضيع ويحمل يفجيني فيودوروفيتش كسكتة وحذاء برقبة، وفي الشتاء معطفاً قصيراً وتوثقت صلته بالحكيم سرجى سرجيتش وبالصراف، أما بقية الموظفين فيسميهم لسبب ما بالأرستقراطيين ويتجنبهم وليس في شقته كلها سوى كتاب واحد هو أحدث وصفات عيادة فيينا لعام 1881 وعندما يتوجه لزيارة مريض يأخذ معه دائماً هذا الكتاب وفي المساء يلعب البلياردو في النادي، ولا يحب لعب الورق ويهوى في كلامه استخدام كلمات مثل: التسوييف، وخزعبلات بالخل، وكفاك مراوغة.

وهو يتردد على المستشفى مرتين في الأسبوع، ويطوف بالعنابر ويستقبل المرضى ويثير سخطه انعدام مضادات التقيح وكاسات الهواء، ولكنه لا يضع نظريات جديدة خوفاً من أن يهين بذلك أندريه يفيميتش وهو يعتبر زميله أندريه يفيميتش محتالاً عجوزاً، ويظن أن لديه أموالاً كثيرة ويحسده في سريرته ويود لو حل محله في إحدى أمسيات الربيع في نهاية مارس، عندما لم يعد هناك ثلج على



الأرض، وصدحت في فناء المستشفى الزراير خرج الدكتور إلى البوابة ليودع صديقه مدير البريد وفي تلك اللحظة دلف اليهودي موسيكا إلى الفناء عائداً من جولته كان بلا غطاء رأس، وفي نعل خفيف بدون جورب، ويحمل في يده كيساً صغيراً به الصدقات.

وقال للطبيب وهو يرتعد من البرد ويبتسم: - أعطني كوبيكا وأعطاه أندريه يفيميتش الذي لم يكن يستطيع أبداً أن يرفض، عشرة كوبيكات. وفكر وهو ينظر إلى قدميه العاريتين برسغيها الأحمرين النحيلين: يا له من شيء سيئ إن الأرض رطبة وبدافع هذا الإحساس الذي يشبه الشفقة والتقرز مضى إلى الجناح في أثر اليهودي، وهو ينظر تارة إلى صلعته، وتارة إلى رسغيه وعند دخول الطبيب هب نيكيتا واقفاً من فوق كومة النفايات وشد قامته وقال أندريه يفيميتش برفق: مرحباً، يا نيكيتا هل يمكن أن تصرف لهذا اليهودي حذاء، يعني، وإلا أصيب بالبرد.

- حاضر، يا صاحب السعادة سأبلغ المشرف من فضلك اطلب منه باسمي قل له إنني طلبت ذلك.

كان الباب المفضى من المدخل إلى العنبر مفتوحاً وأصغي إيفان دميتريتش، الذي كان راقداً في السرير وقد هم قليلاً معتمداً على



مرفقه إلى الصوت الغريب بقلق، وفجأة عرف فيه الدكتور وارتجف بدنه كله من الغضب، وقفز إلى وسط العنبر بوجه محتقن ساخط وعينين جاحظتين وصاح:

- الدكتور وصل ثم قهقه أخيراً وصل أيها السادة أهنتكم، لقد شرفكم الدكتور بزيارته وصرخ بلوعة لم يسبق لأحد في العنبر أن رأى مثلها الوغد الملعون ودق بقدمه فلنقتل هذا الوغد كلا، القتل قليل عليه فلنغرقه في المرحاض وأطل أندريه يفيميتش، الذي سمع هذا، من المدخل إلى العنبر وسأل برفق: ولماذا؟.

فصاح إيفان دميتريتش مقبلاً عليه بوجه متوعد وهو يلتف بالرداء في عصبية لماذا؟ لماذا؟ - وقال بتقزز وهو يحرك شفثيه وكأنه يريد أن يبصق لأنك لص محتال جلاد.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بذنب: هدئ نفسك أوكد لك أنني لم أسرق شيئاً أبداً، وفيما عدا ذلك أعتقد أنك تبالغ جداً أنا أرى أنك غاضب مني هدئ نفسك أرجوك إذا كنت تستطيع وخبرني بهدوء لماذا أنت غاضب مني؟ ولماذا تبقيني هنا؟ - لأنك مريض.

- نعم مريض، ولكن عشرات ومئات المجانين ينعمون بالحرية لأن جهلك غير قادر على تمييزهم عن الأصحاء فلماذا ينبغي على



أنا وهؤلاء التعساء أن نبقى هنا بدلاً من الجميع ككباش الفداء؟ أنت والحكيم والمشرف وكل أوغادكم في المستشفى أدني من أي واحد منا من الناحية الأخلاقية بما لا يقاس، فلماذا نبقى هنا وأنتم لا؟ أين المنطق؟ لا دخل للناحية الأخلاقية والمنطق هنا كل شيء متوقف على الصدفة من وضعه هنا فسيبقى، ومن لم يضعوه ينعم بالحرية، وهذا كل ما في الأمر ليس هناك أي أخلاق أو منطق في كوني دكتوراً وأنت مريض نفسي بل مجرد صدفة فارغة أنا لا أقبل هذا الهراء قال إيفان دميتريتش بصوت مكتوم وجلس على سريره أما موسيكا الذي استحي نيكيثا من تفتيشه في حضرة الدكتور فقد وضع على سريره كسر الخبز والأوراق والعظام التي جمعها، وقال بالعبرية شيئاً ما بسرعة وبصورة منغمة يبدو أنه تخيل أنه قد فتح دكاناً وقال إيفان دميتريتش بصوت متهدج: أطلق سراحى لا أستطيع لماذا إذن؟ لماذا؟.

- لأن هذا ليس في سلطتي ثم احكم بنفسك، ما الفائدة التي تجنيها إذا أطلقت سراحك؟ اذهب سيمسك بك أهل المدينة أو الشرطة ويعيدونك إلى هنا فقال إيفان دميتريتش ومسح جبينه نعم، هذا صحيح شيء فظيع ولكن ماذا أفعل؟ ما العمل؟.

أعجب صوت إيفان دميتريتش ووجهه الشاب الذكي ذو التقلصات أندرية يفيميتش وشعر برغبة في الترويح عن هذا الشاب وتهدئته



فجلس بجواره على الفراش، وفكر ثم قال: أنت تسأل ما العمل؟ إن أفضل شيء في وضعك هذا أن تهرب من هنا ولكن ذلك غير مجد للأسف فسوف يمسكون بك عندما يحمي المجتمع نفسه من المجرمين والمرضى النفسيين وعموماً من الأشخاص المتعبين، فإنه لا يمكن التغلب عليه، ولا يبقى لك غير شيء واحد: أن تهدئ نفسك بفكرة أن وجودك هنا ضروري.

لا أحد بحاجة إليه.

طالما توجد السجون ودور المجازيب فلا بد أن يبقى فيها أحد إن لم تكن أنت فأنا، إن لم أكن أنا فغيرنا انتظر إلى أن ينتهي في المستقبل البعيد وجود السجون ودور المجازيب، وعندئذ لن تكون هناك قضبان على النوافذ أو أبواب بالطبع سيأتي هذا العهد إن عاجلاً أم آجلاً.

فابتسم إيفان دميتريتش بسخرية، وقال وهو يزر عينيه: - أنت تمزح إن السادة أمثالك وأمثال مساعدك نيكيتا لا يهمهم المستقبل في شيء، ولكن ثق يا سيدي الكريم أنه سيأتي زمان أفضل ولتكن كلماتي مبتدلة، فلتضحك منها، ولكن فجر الحياة الجديدة سيهل، وسينتصر الحق وسيحل العيد في شارعنا لن أعيش إلى ذلك اليوم، سأنفق، ولكن أحفاد أشخاص غيري سيعيشون إنني أحبيهم من كل قلبي وأسعد،



أسعد لهم إلى الأمام فليرعاكم الله يا أصدقائي ونهض إيفان دميتريتش وعيناه تلمعان، ومد يديه نحو النافذة، ومضى يقول بصوت منفلعل: إنني أبارككم من وراء هذه القضبان يحيى الحق إنني أسعد .

فقال أندريه يفيميتش الذي بدت له حركات إيفان دميتريتش مسرحية، ولكنها أعجبتة جداً في الوقت نفسه: أنا لا أرى أي مبرر للسعادة نعم، لن تكون هناك سجون ودور مجازيب، والحق كما تفضلتم بالقول سوف ينتصر، ولكن جوهر الأمور لن يتغير، وستبقى قوانين الطبيعة كما هي سيظل الناس يمرضون ويهرمون ويموتون كما هو الآن ومهما كانت روعة الفجر الذي سيضيء حياتك فسوف يضعونك في النهاية في تابوت ويلقون بك في الحفرة الخلود؟ - آه، دعك من هذا .

إنك لا تؤمن ولكني أؤمن لقد قال شخص ما عند دوستوفسكي أو فولتير إنه لو لم يكن هناك إله لاخترعه الناس أما أنا فأؤمن إيماناً عميقاً بأنه إذا لم يكن هناك خلود فإن العقل البشري العظيم سوف يخترعه إن عاجلاً أم آجلاً .

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم مستمتعا أحسنت القول حسن أنك تؤمن بهذا الإيمان يمكن أن تعيش في هناء حتى لو كنت مدفوناً في جدار هل حصلت على تعليم في مكان ما؟ نعم، كنت في الجامعة،



لكني لم أكمل تعليمي.

- أنت إنسان مفكر ورزين وتستطيع في أي وضع أن تجد السكينة في نفسك.

إن التفكير الحر العميق الذي يسعى إلى فهم الحياة، والاحتقار التام لأباطيل الدنيا الحمقاء هما النعمتان اللتان لم يعرف الإنسان شيئاً أسمى منهما وبوسعك أن تحوزهما حتى لو كنت تعيش وراء ثلاث طبقات من القضبان لقد عاش ديوجين في برميل لكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم فقال إيفان دميتريتش متجهما

- ديوجينك هذا كان أحق لماذا تحدثني عن ديوجين وعن فهم الحياة؟ قال فجأة بغضب وقفز واقفاً إنني أحب الحياة، أحبها بشوق وعندني عقدة الاضطهاد، خوف مستمر معذب، ولكن تمر بي لحظات ينتابني فيها ظمأ للحياة، وعندها أخشى أن أجنكم أود أن أعيش، أوه كم أود.

وتمشي في العنبر بانفعال، وقال وقد خفض صوته: عندما أحلم تزورني الأشباح يأتيني أناس ما، وأسمع أصواتاً وموسيقى، ويخيل إلى أنني أتريض في غابات ما أو على شاطئ البحر، ويجتاحني شوق جارف إلى الزحام والمشاكل وسأل إيفان دميتريتش خبرني ماذا



هناك من جديد؟ ماذا هناك؟.

أتريد أن تعرف أخبار المدينة أم بشكل عام؟ حسناً، حدثني في البداية عن المدينة، وبعد ذلك بشكل عام حسناً الحياة في المدينة مملة إلى حد العذاب لاتجد من تتبادل معه كلمة ولا من تسمعه ليس هناك أشخاص جدد ولكن جاءنا منذ فترة قريبة الطبيب الشاب خوبوتوف لقد جاء عندما كنت هناك ماذا، أهو وقح؟ - نعم، شخص غير مهذب شيء غريب أندرى الدلائل كلها تشير إلى أنه ليس هناك ركود ذهني في عواصمنا، إذن فينبغي أن يكون هناك أناس حقيقيون، ولكن لسبب ما يرسلون إلينا كل مرة من هناك أناساً تود ألا تراهم يا لها من مدينة تعيسة فتنهد إيفان دميتريتش وضحك قائلاً:

- نعم، مدينة تعيسة وكيف الحال بشكل عام؟ عم تكتب الصحف والمجلات؟ كان الظلام قد خيم على العنبر ونهض الدكتور وراح يتحدث واقفاً عما يكتب في الخارج وفي روسيا وعن الاتجاه الفكري الملاحظ الآن وأصغي إيفان دميتريتش بانتباه ووجه إليه بعض الأسئلة، ولكنه أمسك برأسه فجأة وكأنه تذكر شيئاً فظليماً، وتمدد في السرير مولياً ظهره للدكتور.

وسأل أندريه يفيمييتش: ماذا بك؟ فقال إيفان دميتريتش بغلظة: لن تسمع مني بعد كلمة واحدة دعني لماذا؟ أقول لك دعني ما لك بي؟



فهز أندريه يفيميتش كتفيه وتهد ثم خرج وقال وهو يجتاز المدخل: لو أمكن تنظيف المكان يا نيكيتا الرائحة هنا فظيعة حاضر، يا صاحب السعادة.

وفكر أندريه يفيميتش في طريق عودته إلى الشقة: يا له من شاب لطيف طول فترة وجودي هنا يبدو أنه أول إنسان يمكن أن نتحدث معه إنه يجيد النقاش ويهتم بها ينبغي الاهتمام به.

وبينما كان يقرأ، ثم وهو يأوي للفراش بعد ذلك ظل يفكر طوال الوقت في إيفان دميتريتش، وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، تذكر أنه تعرف بالأمس على شخص ذكي ممتع، فقرر أن يزوره مرة أخرى في أول فرصة ممكنة كان إيفان دميتريتش راقداً في نفس الوضع الذي كان عليه بالأمس، وقد طوق رأسه بذراعيه وثنى ساقيه ولم يكن وجهه ظاهراً وقال أندريه يفيميتش: مرحباً، يا صديقي أألس نائماً؟ فقال إيفان دميتريتش في الوسادة:

أولاً أنا لست صديقك وثانياً عبأ تتعب نفسك: لن تحصل مني على كلمة واحدة فدمدم أندريه يفيميتش في ارتباك: غريبة بالأمس تحدثنا في سلام، ولكنك غضبت فجأة لسبب ما وقطعت الحديث ربما أكون قد أسأت التعبير، أو ربما أكون قد أعربت عن فكرة لا تتفق مع معتقداتك أظن أنني أصدقك هكذا ببساطة قال إيفان



دميتريتش وهو ينهض ويتطلع إلى الدكتور بسخرية وقلق وكانت عيناه حمراوين بوسعك أن تتجسس وتستطلع في مكان آخر، أما هنا فليس لديك ما تفعله لقد أدركت بالأمس سبب مجيئك وضحك الدكتور وقال: يا له من خيال غريب إذن فأنت تعتقد أنني جاسوس؟.

- نعم أعتقد جاسوس أم دكتور وضعوني عنده للاختبار، الأمر سيان أه يا لك من عفواً غريب الأطوار وجلس الدكتور على مقعد خشبي بجوار السرير وهز رأسه مؤنباً، وقال: - حسناً، لنفرض أنك على حق لنفرض أنني أحاول غدراً أن أوقع بك لتسليمك للشرطة سيقبضون عليك ويحاكمونك بعد ذلك ولكن هل سيكون وضعك في المحكمة وفي السجن أسوأ من هنا؟ ولو نفوك أو حتى حكموا عليك بالأشغال الشاقة، فهل سيكون ذلك أسوأ من بقائك هنا في هذا الجناح؟ أعتقد أنه ليس أسوأ فمم تخاف إذن؟.

ويبدو أن هذه الكلمات أثرت على إيفان دميتريتش، فجلس بهدوء كانت الساعة الخامسة مساءً، وهو الوقت الذي يتجول فيه أندريه فيميتش عادة في غرف شقته بينما تسأله داريوشكا عما إذا كان الوقت قد حان لتقديم البيرة وكان الجو في الخارج هادئاً وصحواً.

وقال الدكتور: خرجت بعد الغداء لأمشي، وعرجت عليك كما ترى الربيع قد حل تماماً فسأل إيفان دميتريتش: في أي شهر نحن الآن؟



مارس؟ نعم، نهاية مارس الأرض قذرة في الخارج؟ كلا، ليس إلى هذا الحد الحديقة بها دروب الآن فقال إيفان دميتريتش وهو يفرك عينيه كأنما استيقظ لتوه: ما أجمل أن تركب الآن عربة وتتجول في المدينة، ثم تعود إلى البيت، إلى غرفة مكتب دافئة ومريحة وتعالج لدى طبيب جيد من الصداق منذ فترة طويلة لم أعش عيشة إنسانية أما هنا فالحال مقرز مقرز بصورة لا تحتمل.

كان متعباً وخائر القوى بعد ثورة الأمس، وغير راغب في الكلام وكانت أصابعه ترتعش، وبدا واضحاً على وجهه أنه يعاني من صداع شديد فقال أندريه يفيميتش: ليس هناك أي فرق بين غرفة المكتب الدافئة المريحة وهذا العنبر إن سكينه الإنسان ورضاه ليست خارجه، بل في داخله. - ماذا تقصد؟.

- الإنسان العادي ينتظر الأمور الطيبة أو السيئة من الخارج، أي من العربة وغرفة المكتب، أما الإنسان المفكر فينتظرها من داخل نفسه. ذهب وبشر بهذه الفلسفة في اليونان، حيث الجو دافي وتفوح منه رائحة الفارنج، أما هنا فهي لا تلائم الجو مع من تحدثت عن ديوجين؟ أظن معك؟.

- نعم، معي بالأمس لم يكن ديوجين بحاجة إلى غرفة مكتب وبيت



دافئ، فالجو هناك حار فلتجلس في البرميل، وكل برتقالاً وزيتوناً أما لو قدر له أن يعيش في روسيا للجا إلى الغرفة لا في ديسمبر بل في مايو ولتجمدت أطرافه من البرد.

كلا البرد، مثله عموماً مثل أي ألم، يمكنك ألا تحس به لقد قال مرقس أوريليوس: أليس الألم سوى تصور حي عن الألم فلتبذل مجهوداً إرادياً لكي تغير هذا التصور، ولتطرحة عنك، ولتكف عن الشكوى، وسيختفي الألم وهذا حق فالحكيم، أو ببساطة الشخص المفكر الحصيف يتميز بأنه يحتقر المعاناة إنه دائماً راض ولا يدهشه شيء.

- إذن فأنا أبله، لأنني أعاني، وغير راض، وتدهشني الخسة البشرية.

- عبئاً تقول ذلك فلو أنك أمعنت التفكير لأدركت مدى تفاهة كل تلك الأشياء الخارجية التي تقلقنا ينبغي أن نسعى إلى فهم الحياة، ففيه النعمة الحقيقية وامتعض إيفان دميتريتش قائلاً:

- فهم الحياة الخارجي والداخلي عفواً، أنا لا أفهم هذا ثم نهض وقال وهو ينظر إلى الدكتور بغضب أنا لا أعرف سوى أن الله خلقني من دم دافئ وأعصاب، نعم والنسيج العضوي، إذا كان قادراً على الحياة، ينبغي أن يستجيب لكل مؤثر وأنا أستجيب أرد على الألم بالصراخ



والدموع، وعلى الخسة بالسخط وعلى الدناءة بالتقزز وأعتقد أن ذلك هو ما يسمى بالحياة وكلما كان الجسم أدنى مستوى، قلت حساسيته وضعفت استجابته للمؤثرات، وكلما ارتفع مستواه ازدادت حساسيته للواقع كيف لا تعرف هذا؟ دكتور ولا يعرف هذه الأمور التافهة لكي تحتقر المعاناة وتكون راضياً على الدوام ولا يدهشك شيء ينبغي أن تتردى إلى هذا المستوى وأشار إيفان دميتريتش إلى الفلاح البدين الذي غطاه الشحم أو أن تحصن نفسك بالألم إلى درجة أن تفقد أي إحساس به، أي بعبارة أخرى، أن تكف عن الحياة ومضى إيفان دميتريتش يقول بعصبية عفواً أنا لست حكيماً ولا فيلسوفاً، ولا أفقه شيئاً في ذلك أنا لست قادراً على المناقشة.

- بالعكس، أنت تناقش بشكل رائع.

- إن الرواقيين الذين تحاكيهم كانوا ممتازين، ولكن تعاليمهم تحجرت منذ ألفي سنة، ولم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ولن تتقدم، لأنها ليست عملية ولا حيوية ولم تلق رواجاً سوى لدى الأقلية التي تنفق حياتها في حفظ ولوك مختلف التعاليم، أما الأغلبية فلم تفهمها إن التعاليم التي تدعو إلى تجاهل الثروة وملذات الحياة، واحتقار الآلام والموت ليست مفهومة أبداً للغالبية الساحقة، لأن الغالبية لم تعرف قط لا الثروة ولا ملذات الحياة أما احتقار الآلام



فيعني بالنسبة لها احتقار الحياة نفسها، لأن جوهر الإنسان كله يقوم على أحاسيس الجوع والبرد والإهانات والخسائر وخوف هاملت من الموت الحياة كلها في هذه الأحاسيس يمكنك أن تشقى بالحياة، وتمقتها، ولكن لا تحتقرها نعم، هكذا، أكرر، إن تعاليم الرواقيين لن يكون لها مستقبل أبداً، أما التقدم فهو كما نرى، منذ مطلع القرن حتى اليوم، من نصيب الصراع، ورهافة الإحساس بالألم، والقدرة على الاستجابة للمؤثرات وفجأة فقد إيفان دميتريتش حبل أفكاره فتوقف، وفرك جبينه بأسى، وقال: أردت أن أقول شيئاً مهماً، ولكنني شردت عم كنت أتحدث؟ آه، نعم إنني أقول إذن إن واحداً من الرواقيين قد باع نفسه وأصبح عبداً لكي يحرر أحد الأقربين رأيت، ها هو ذا رواقى قد استجاب للمؤثر، لأن مثل هذا العمل الشهم، وهو أن تقضى على نفسك من أجل شخص قريب، يتطلب روحاً مغضبة عطوفاً لقد نسيت هنا في السجن كل ما درستته، وإلا لتذكرت أمثلة أخرى وخذ عندك المسيح لقد كان يستجيب للواقع بأن يبكي ويبتسم ويحزن ويغضب، بل كان يستوحش ولم يمض للقاء الآلام بابتسامة ولم يحتقر الموت، بل صلى في حديقة جنساني لكي يعبر عنه هذي الكأس وضحك إيفان دميتريتش ثم جلس وقال: لنفرض أن سكينه الإنسان ورضاه ليسا خارجه بل في داخله، ولنفرض أنه ينبغي احتقار الآلام وعدم الاندهاش لشيء ولكن، على أساس تدعو أنت لذلك؟ هل



أنت حكيم؟ فيلسوف؟ كلا، لست فيلسوفاً، ولكن كل إنسان ينبغي أن يدعو لذلك لأنه صواب.

- لا فخبطني لماذا تعتبر نفسك خبيراً في مسألة فهم الحياة واحتقار الآلام وما إلى ذلك؟ هل تألمت في حياتك؟ هل تفهم ما هي الآلام؟ اسمح لي: هل ضربت في طفولتك؟ كلا، كان والداي ينفران من العقاب الجسدي.

- أما أنا فكان أبي يضربني بقسوة، كان أبي موظفاً حاد الطبع، مصاباً بالبواسير، ذا أنف كبير ورقبة صفراء ولكن دعنا نتحدث عنك طوال حياتك كلها لم يمسسك أحد بإصبعه، ولم يرهبك أحد أو يقهرك وأنت صحيح كالثور وقد تربيت في كنف أبيك وتعلمت على حسابه، وبعد ذلك حصلت فوراً على وظيفة مريحة وعشت أكثر من عشرين سنة بالمجان في شقة بالتدفئة والنور والخدم وتملك الحق في أن تعمل بقدر ما تريد وكيفما تريد، حتى لو لم تعمل شيئاً وأنت بطبيعتك شخص كسول، رخو، لذلك سعيت إلى تدبير حياتك بحيث لا يزعجك شيء ولا يحركك من مكانك وقد سلمت الأمور للحكيم وبقية الأوغاد بينما جلست في الدفء والسكون، تدخل النقود وتطالع الكتب وتمتع نفسك بالتفكير في مختلف ألوان الهراء السامي ثم نظر إيفان دميتريتش إلى أنف الدكتور الأحمر وبالشراب وباختصار أنت



لم تر الحياة ولا تعرفها على الإطلاق، ولست مطلعاً على الواقع إلا من الجانب النظري وأنت تحتقر الآلام ولا يدهشك شيء لسبب بسيط للغاية، فاقول: هذا باطل الأباطيل، والاحتقار الداخلي والخارجي للحياة والآلام وللموت، وفهم الحياة، والنعمة الحقيقية كل ذلك هو أنسب فلسفة للتبيل الروسي أنت مثلاً ترى فلاحاً يضرب زوجته، فلماذا تتدخل؟ دعه يضربها، فكلاهما على أي حال سيموتان عاجلاً أم آجلاً زد على ذلك أن الضارب لا يهين بضربه الشخص المضروب بل نفسه والسكر عمل أحمق، غير لائق، ولكن سواء شربت أم لم تشرب فسوف تموت وتأتي إليك امرأة تشكو ألماً في أسنانها وماذا في ذلك؟ الألم ليس إلا تصوراً عن الألم، وعلاوة على ذلك لا يمكنك أن تعيش في هذه الدنيا دون أمراض، وكلنا سنموت، لذلك انصرفي أيتها المرأة، لا تعطيليني عن التفكير وشرب الفودكا ويسألك النصح شاب فيما ينبغي عليه أن يفعل وكيف يعيش ولو سألت شخصاً آخر لفكر قبل أن يجيب، أما هنا فالجواب حاضر: اسع لفهم الحياة أو للنعمة الحقيقية ولكن ما هي هذه النعمة الحقيقية الخيالية؟ بالطبع ليس هناك جواب ويحفظون بنا هنا وراء القضبان لنعفن وبعذبوننا، ولكن ذلك رائع ومعقول لأنه ليس هناك أي فرق بين هذا العنبر وغرفة المكتب الدافئة المريحة هذه فلسفة مريحة: لا تفعل شيئاً بينما ضميرك مستريح وتحس بنفسك حكيماً كلاً يا سيدي، هذه ليست



فلسفة، وليس تفكيراً، ولا سعة أفق، بل كسل، وزهد وأضغاث أحلام
نعم وعاود الغضب إيفان دميتريتش من جديد إنك تحتقر الآلام، ولكن
لو أن إصبعك انحسرت في الباب فلربما صرخت بأعلى صوتك.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بوداعة: وربما لا أصرخ كيف
لا؟ أما لو أصابك الشلل، أو لنفرض أن أحد الحمقى الوقحين
أهانك علناً مستغلاً مركزه ورتبته وأنت تعرف أنه لن يعاقب على
ذلك، لأدركت عندئذ ما معنى أن ترسل الآخرين إلى فهم الحياة
وإلى النعمة الحقيقية فقال أندريه يفيميتش وهو يضحك من المتعة
 ويفرك يديه: هذا طريف إن ما يذهلني فيك هو قدرتك على التعميم،
أما الصورة التي تفضلت من توك برسمها لشخصي فهي، ببساطة،
باهرة، أصارحك بأن الحديث معك يحمل لي متعة فائقة حسناً، لقد
استمعت إليك، فلتتكرم الآن بالاستماع إلى.

استمر هذا الحديث حوالي ساعة أخرى، وترك في نفس أندريه
يفيميتش، على ما يبدو، أثراً عميقاً وأصبح يتردد على العنبر كل يوم
كان يأتي في الصباح، وبعد الغداء، وكثيراً ما كانت ظلمة المساء تحل
وهو يتحدث مع إيفان دميتريتش.

وفي البداية كان إيفان دميتريتش ينفر منه ويرتاب في سوء
قصده، ويعرب بصورة سافرة عن نفوره، ولكنه تعود عليه فيما بعد،



وبدل معاملته الحادة له إلى نبرة متعالية ساخرة.

وسرعان ما سرت في المستشفى شائعة بأن الدكتور أندريه يفيميتش أصبح يتردد على عنبر رقم 6 ولم يستطع أحد لا الحكيم، ولا نيكيتا، ولا المربيات، أن يفهم السر وراء ذهابه إلى هناك، ولماذا يجلس ساعات طوال يتحدث في أشياء ما، ولماذا لا يكتب روستات وبدت تصرفاته غريبة وكثيراً ما كان ميخائيل أفيريانيتش لا يجده في البيت، الأمر الذي لم يحدث من قبل أبداً، وكانت داريوشكا في غاية الارتباك لأن الدكتور لم يعد يشرب البيرة في مواعيد محددة، بل كان أحياناً يتأخر عن الغداء وذات مرة، وكان ذلك في أواخر يونيو، ذهب الدكتور خوبوتوف إلى أندريه يفيميتش في أمر ما ولما لم يجده في المنزل مضى ليجث عنه في الفناء وهناك قيل له إن الدكتور العجوز ذهب إلى المرضى النفسيين ودلف خوبوتوف إلى الجناح وتوقف في المدخل فسمع الحديث التالي: لن نتفق أبداً، ولن نستطيع أن تحولني إلى دينك قال إيفان دميتريتش بعصبية أنت لا تعرف الواقع مطلقاً، ولم تتألم قط، بل كنت كالعلاقة تعيش على آلام الآخرين أما أنا فتألمت باستمرار، من مولدي حتى يومنا هذا لذلك أقول لك بصراحة: إنى أعتبر نفسي أعلى منك وأكثر خبرة من جميع النواحي لست أنت من يعلمني.



فقال أندريه يفيميتش بصوت خافت وبأسى لعدم الرغبة في فهمه:

أنا لا أسعى أبداً إلى تحويلك إلى ديني وليست تلك هي المسألة يا صديقي ليست المسألة أنك تألمت وأنا لم أتألم فالآلام والأفراح أشياء زائلة، دعنا منها، لها الله ولكن المسألة أننا، أنا وأنت، نفكر نحن نرى في بعضنا أناساً قادرين على التفكير والمناقشة، وهذا ما يجعلنا متضامنين مهما كانت آراؤنا مختلفة آه، لوتدرى يا صديقي كم مللت الجنون العام وانعدام المواهب والغباء، وكم أسعد في كل مرة بالحديث معك أنت رجل ذكي وأنا أستمتع بك.

وفتح خوبوتوف الباب قليلاً وأطل برأسه في العنبر كان إيفان دميتريتش بطرطوره والدكتور أندريه يفيميتش جالسين على السرير متجاورين وكان المجنون يقلص وجهه وينتفض ويلف نفسه في الروب بعصبية، بينما جلس الدكتور بلا حراك وقد نكس رأسه، ووجهه محتقن عاجز حزين وهز خوبونوف كتفيه وضحك بسخرية، وتبادل النظرات مع نيكيثا، فهز هذا أيضاً كتفيه وفي اليوم التالي جاء خوبوتوف إلى الجناح مع الحكيم ووقفا كلاهما في المدخل يسترقان السمع وقال خوبونوف وهما يغادران الجناح: - يبدو أن شيخنا خرف تماماً فتهده سرجى سرجينتش الجليل وهو يتحاشى البرك الصغيرة بعناية حتى لا يلوث حذاءه النظيف اللامع: رحماك يا ربي، اغفر لنا



ذونينا؟ أصارحك يا يفجيني فيودوروفيتش المحترم أنني كنت أتوقع ذلك من زمان.

أصبح أندريه يفيميتش بعد ذلك يلاحظ من حوله جواً من الغموض والأسرار فعندما كان خدم المستشفى والمريبات والمرضى يقابلونه، كانوا يتطلعون إليه بتساؤل ثم يتهايمسون أما الطفلة ماشا، ابنة المشرف، التي كان يحب لقاءها في حديقة المستشفى، فقد أصبحت الآن لسبب ما تهرب منه عندما يقترب منها مبتسماً لكي يمسح شعرها ولم يعد مدير البريد ميخائيل أفيريانيتش وهو يصغي إليه يقول صحيح تماماً، بل كان يدمدم بارتباك غير مفهوم نعم، نعم، نعم ويتطلع إليه بتفكير وأسي ولسبب ما راح ينصح صديقه أن يهجر الفودكا والبيرة، ولكنه، كشخص مهذب، لم يكن يقول ذلك مباشرة، بل ملمحاً، وهو يحدثه تارة عن قائد كتيبة، رجل ممتاز، وتارة عن قسيس فوج، وهو شاب رائع، كانا يقبلان على الشراب فمرضا، ولكنهما شفيا تماماً بعد أن تركا الشراب وجاء إلى أندريه يفيميتش زميله الدكتور خوبوتوف مرتين أو ثلاث، ونصحه هو أيضاً أن يترك عنه المشروبات الكحولية، وبدون أي مبرر واضح أوصاه بتناول البوتاسيوم مع البروم. وفي أغسطس تلقي أندريه يفيميتش من رئيس المدينة رسالة يرجوه فيها الحضور الأمر مهم للغاية وعندما وصل أندريه يفيميتش



في الوقت المحدد إلى مبنى الإدارة وجد هناك قائد الحامية، والمشرف على مدرسة المركز، وعضو مجلس الإدارة وخوبوتوف وسيداً بديناً أشقر، قدموه إليه على أنه دكتور وكان هذا الدكتور، الذي يحمل كنية بولندية صعبة النطق يعيش على بعد ثلاثين فرسخاً من المدينة، في مزرعة لتربية الخيول، وكان الآن ماراً في طريقه بالمدينة وقال عضو مجلس الإدارة مخاطباً أندريه يفيميتش بعد أن سلم الجميع وجلسوا إلى الطاولة:

- هنا طلب يخصك يقال يا يفجيني فيودور فيتش أن مكان الصيدلية في المبنى الرئيسي ضيق، وينبغي نقلها إلى أحد الأجنحة وهذا طبعاً أمر ممكن، ولكن السبب الرئيسي أن الجناح سيحتاج إلى تصليح.

فقال أندريه يفيميتش بعد تفكير قصير:

نعم، الأمر لن يخلو من التصليح فإذا أخذنا الجناح الركني للأجزاخانة فأعتقد أن ذلك سيحتاج إلى خمسمائة نفقات غير منتجة وصمتوا قليلاً واستطرد أندريه يفيميتش بصوت خافت: لقد تشرفت منذ عشر سنوات برفع تقرير، بأن المستشفى بحالته الراهنة يعتبر بالنسبة للمدينة ترفاً أكبر من إمكاناتها وقد شيد في الأربعينيات ولكن الأموال كانت آنذاك غيرها الآن إن المدينة تتفق أكثر من اللازم على المباني غير الضرورية والوظائف الزائدة



وأعتقد أنه بهذه الأموال يمكن، في ظل نظم أخرى، الإنفاق على مستشفيات نموذجيين.

فقال عضو مجلس الإدارة بحيوية: - إذن هيا رتب نظاماً أخرى لقد تشرفت برفع تقرير عن ذلك، واقترحت وضع الناحية العلاجية تحت إشراف مجلس الإقليم فضحك الطبيب الأشقر وقال نعم، أعطوا مجلس الإقليم النقود وسوف يسرقها فأمن عضو مجلس الإدارة على قوله وضحك أيضاً هذا ما يحدث فعلاً ونظر أندريه بتراخ واكتئاب إلى الدكتور الأشقر وقال: ينبغي أن نكون منصفين وصمتوا ثانية وجيء بالشاي ومد قائد الحامية يده عبر الطاولة، وهو مرتبك لسبب ما، ولمس يد أندريه يفيميتش وقال: لقد نسيتنا تماماً يا دكتور وعموماً فأنت راهب؛ لا تلعب الورق، ولا تهوى النساء إنك تشعر معنا بالملل وتحديث الجميع عن الملل الذي يشعر به ساكن هذه المدينة المحترم فليس هناك مسرح أو موسيقى، وفي آخر حفلة رقص في النادي كان هناك حوالي عشرين سيدة ومراقصان اثنان فقط والشبان لا يرقصون، بل يتزاحمون طوال الوقت قرب البوفيه أو يلعبون الورق وبدأ أندريه يفيميتش يتحدث ببطء وبصوت خافت دون أن يتطلع إلى أحد عن الأسف، والأسف العميق من أن أهالي المدينة يبددون طاقتهم الحيوية وقلوبهم وعقولهم في لعب



الورق وتناقل الشائعات ولا يستطيعون ولا يريدون أن يقضوا وقتهم في الحديث الممتع والقراءة، ولا يريدون استغلال المتع التي يوفرها العقل العقل وحده هو الطريف والرائع، أما غير ذلك فضحل ومنحط وأصغي خوبوتوف بانتباه إلى زميله ثم سأله بغتة: - في أي يوم من الشهر نحن الآن يا أندريه يفيميتش؟.

وبعد أن سمع الإجابة، أخذ هو والدكتور الأشقر يسألان أندريه يفيميتش بنبرة الممتحن الذي يشعر بعجزه: أي أيام الأسبوع اليوم، وكم عدد أيام السنة وهل صحيح أنه يوجد نبي رائع في عنبر رقم 6 ورد أندريه يفيميتش على السؤال الأخير متضرجاً نعم، إنه مريض، ولكنه شاب طريف ولم يوجهوا إليه أية أسئلة أخرى وعندما كان يرتدي معطفه في المدخل وضع قائد الحامية يده على كتفه وقال:
متهدا: أن لنا نحن الشيوخ أن نستريح.

عندما خرج أندريه يفيميتش من مبنى الإدارة أدرك أنها كانت لجنة معينة للكشف على قواه العقلية وتذكر الأسئلة التي وجهوها إليه فتضرج وجهه، ولسبب ما شعر الآن، ولأول مرة في حياته، بالأسى المر على الطب وفكر وهو يتذكر كيف فحصه الأطباء لتوه: يا إلهي، إنهم منذ فترة قريبة جداً درسوا علم الأمراض النفسية،



وأدوا فيه الامتحانات، فمن أين هذا الجهل المطبق؟ إنهم لا يعرفون شيئاً عن علم الأمراض النفسية ولأول مرة في حياته أحس بالمهانة والغضب وفي مساء نفس اليوم زاره ميخائيل أفيريانيتش اقترب منه مدير البريد دون أن يحييه وأمسك بكلتا يديه، وقال بصوت منفل:

- يا صديقي العزيز، برهن على أنك تثق في صدق شعوري نحوك وتعتبرني صديقك يا صديقي ومضى يقول بانفعال دون أن يعطي فرصة لأندرية يفيميتش إنني أحبك لثقافتك ونبيل روحك فلتسمعي يا عزيزي إن قواعد العلم توجب على الأطباء أن يخفوا عنك الحقيقة، ولكني، كعسكري أقول الحقيقة دون مواربة: أنت مريض اعذرني يا عزيزي، ولكنها حقيقة، وقد لاحظ ذلك كل من حولك منذ فترة طويلة وقال لي الآن الدكتور يفجيني فيودوروفيتش إنك بحاجة إلى الراحة والترويح من أجل صحتك صحيح تماماً رائع بعد أيام سأخذ إجازة وأسافر لكي أستشيق هواء آخر أثبت لي أنك صديق، ولنسافر معاً فلنرحل وننفض عنا الشيخوخة فقال أندرية يفيميتش بعد تفكير:- أنا أشعر بنفسي في صحة تامة ولا أستطيع أن أسافر ولتسمح لي أن أعرب لك بصورة أخرى عن صداقتي.

- أن يسافر إلى مكان ما، ولغرض غير معروف، بدون كتب، بدون داريوشكا، بدون البيرة، ويغير تغييراً حاداً نظام الحياة المستقر منذ



عشرين سنة، هذه الفكرة بدت لأندرية يفيميتش للوهلة الأولى غريبة وخيالية ولكنه تذكر الحديث الذي دار في مبنى الإدارة والمزاج المقبض الذي أحس به وهو عائد من مبنى الإدارة إلى البيت، فداعبته فكرة الرحيل لفترة قصيرة عن هذه المدينة التي يعتبره الأغبياء فيها مجنوناً وسأل: ولكن إلى أين تنوي السفر؟.

- إلى موسكو، وبطرسبرج، ووارسو لقد قضيت في وارسو خمس سنوات من أسعد سنوات عمري يا لها من مدينة مدهشة فلنساغفرا يا عزيزي بعد أسبوع عرضوا على أندرية يفيميتش أن يستريح، أي أن يقدم استقالته، فاستقبل ذلك بلا مبالاة، وبعد أسبوع آخر كان هو وميخائيل أفيريانيتش جالسين في عربة بريد متوجهين إلى أقرب محطة قطار كانت الأيام باردة صافية والسماء زرقاء والأفق شفافاً وقطعا مسافة المائتي فرسخ التي تفصلها عن المحطة في يومين، وباتا ليلتين في الطريق وعندما كانوا يقدمون لهما في محطات البريد أكواباً للشاي غير مغسولة جيداً أو يتأخرون في تسريح الجياد، كان ميخائيل أفيريانيتش يحمر، ويهتز بدنه كله ويصيح: اخرج ممنوع الكلام وعندما يجلس في العربة كان لا يكف دقيقة واحدة عن الحديث حول رحلاته إلى القوقاز والمملكة البولندية كم خاض من مغامرات، ويا للقاءات كان يتحدث بصوت عال وينظر



بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكن الظن بأنه يكذب وعلاوة على ذلك فقد كان، وهو يتحدث، يزفر في وجه أندريه يفيميتش ويقهقه في أذنه وكان يضايق الدكتور ويعوقه عن التفكير والتركيز ومن باب التوفير سافرا في الدرجة الثالثة في القطار، في عربة لغير المدخنين وكان نصف الركاب نظيفين، وسرعان ما تعرف ميخائيل أفيريانيتش بالجميع، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عال عن أنه لا ينبغي السفر في هذه الطرق المحنقة، الجميع من حولك محتالون ولكن السفر على ظهر جواد شيء آخر تقطع في اليوم مائة فرسخ وبعدها تحس بأنك صحيح ومنتعش أما قلة المحاصيل لدينا فسببها تجفيف مستنقعات بينسك وعموماً فالفوضى رهيبه كان يثور ويتحدث بصوت عال ولا يعطى للآخرين فرصة للكلام وقد أرهقت هذه الثثرة اللانهائية والمقترنة بالضحك العالى والحركات المعبرة أندريه يفيميتش.

وفكر بأسى: أينما المجنون يا ترى؟ أنا، الذي أحاول ألا أسبب أي إزعاج للركاب، أم هذا الأناني الذي يعتقد أنه أذكى وأطرف الجميع هنا، ولذلك يزعج الجميع؟ وفي موسكو ارتدى ميخائيل أفيريانيتش سترة عسكرية بدون شارات الرتبة وسروالاً بشرائط حمراء وكان يسير في الشوارع في عمرة عسكرية ومعطف فكان الجنود يؤدون



له التحية العسكرية وبدا لأندرية يفيميتش الآن أنه شخص قد بدد من أصله النبيل الذي كان له في وقت ما كل ما هو طيب ولم يبق لنفسه إلا ما هو سيئ فقط كان يحب أن يحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داع لذلك على الإطلاق إذ يكون الكبريت موضوعاً أمامه على الطاولة، وهو يراه ولكنه يصيح بالخادم لكي يقدم له كبريتاً ولم يكن يخجل من السير أمام عاملة الفندق بملابسه الداخلية، وينادي جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم ب أنت، وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لأندرية يفيميتش أن ذلك كان من طباع السادة، ولكنه شيء مقزز وقبل كل شيء قاد ميخائيل أفيريانيتش صديقه إلى كنيسة إيفير وصلّى بجرارة وهو يركع حتى الأرض وعيناه تدمعان، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصعداء وقال: عندما تصلّى، حتى لو لم تكن مؤمناً، تشعر براحة أكثر هيا ياعزيزى.

وارتبك أندريه يفيميتش وقبل الأيقونة، أما ميخائيل أفيريانيتش فقد مط شفتيه وأخذ يصلّى هامساً ورأسه يتمايل، واغرورقت عيناه بالدموع ثانية ثم توجهها إلى الكريملين وشاهدا هناك ملك المدافع وملك الأجراس بل وتحسساها بأصابعهما، ومليا النظر من منظر ما وراء نهر موسكو، وزارا معبد المخلص ومتحف روميا نتسفوتنا ولا الغداء في مطعم تيستوف وحدق ميخائيل أفيريانيتش طويلاً في



قائمة الطعام وهو يمسد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذي تعود أن يشعر بنفسه في المطاعم وكأنه في بيته:

فلنر ماذا ستطعمنا اليوم يا همام ان الدكتور يمشي ويتفرج ويأكل ويشرب، ولكنه لم يكن يحس إلا بشيء واحد، هو الأسى من ميخائيل أفيريانيتش وود لو يرتاح من صديقه ويتعد عنه ويختفي، ولكن الصديق اعتبر من واجبه ألا يتركه يتعد عنه خطوة، وأن يهيب له أكبر ما يمكن من المتع وعندما لم يكن هناك ما يشاهد، كان يسليه بالأحاديث وصبر أندريه يفيميتش على ذلك يومين، وفي اليوم الثالث أخبر صديقه أنه مريض ويريد أن يبقى في البيت طول اليوم فقال الصديق إنه في هذه الحالة سيبقى هو أيضاً وبالفعل ينبغي أن يستريح وإلا فلن تكفيه قدماء ورقد أندريه يفيميتش على الكنبه ووجهه إلى ظهرها، وزم أسنانه وهو يصغي لصديقه الذي أخذ يؤكد له بحرارة أن فرنسا ستهزم ألمانيا حتماً إن عاجلاً أم آجلاً، وأن في موسكو كثيراً جداً من المحتالين، وأنه لا يمكن الحكم على فصائل الجياد من مظهرها الخارجي وبدأ أندريه يفيميتش يحس بطنين في أذنيه وتسارع في ضربات القلب، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة على أن يطلب من صديقه أن يتركه أو يصمت ولحسن الحظ مل ميخائيل أفيريانيتش من البقاء في الغرفة، فانصرف بعد الغداء ليتنزه.



وعندما أصبح أندريه يفيميتش وحده استسلم للإحساس بالراحة ما أجمل أن تستلقي على الكنبه بلا حراك وأن تشعر بأنك وحيد في الغرفة السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة والملاك الساقط خان الرب ربما لأنه رغب في الوحدة التي لا يعرفها الملائكة وأراد أندريه يفيميتش أن يفكر فيما رآه وسمعه في الأيام الأخيرة، ولكن ميخائيل أفيريانيتش لم يفارق مخيلته وفكر الدكتور بأسى: ولكنه أخذ إجازة وسافر معي بدافع الصداقة، بدافع السياحة ليس هناك ما هو أسوأ من الوصاية باسم الصداقة إنه يبدو لك طيباً، وسمحاً، ومرحاً، ومع ذلك فهو ممل ممل إلى درجة لا تحتمل وهكذا قد تجد أناساً لا يقولون إلا كلمات ذكية جيدة ولكنك تحس بأنهم أناس بلداء.

وفي الأيام التالية كذلك ادعي أندريه يفيميتش المرض ولم يغادر الغرفة ظل راقداً ووجهه إلى ظهر الكنبه ويعاني عندما يسليه صديقه بالأحاديث، أو يرتاح عندما يكون الصديق غائباً وحنق على نفسه لأنه سافر، وعلى صديقه الذي كان يزداد ثرثرة وتبسطاً يوماً بعد يوم ولم يستطع أبداً أن يوجه أفكاره في اتجاه جاد سام.

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته: إنه الواقع يعصرني، الواقع الذي تحدث عنه إيفان دميتريتش وعموماً فهذا هراء عندما أرجع إلى البيت سيسير كل شيء كما كان في السابق وفي بطرسبرج تكرر



نفس الوضع كان لا يغادر الغرفة أياما بكاملها وهو راقد على الكنبة، ولا ينهض إلا ليشرب البيرة وكان ميخائيل أفيريانيتش طول الوقت يتعجل السفر إلى وارسو فيقول أندريه يفيميتش بضراعة:

- يا عزيزي، وما الداعي لذهابي أنا؟ سافر وحدك، واسمح لي أن أعود إلى البيت أرجوك فيحتج ميخائيل أفيريانيتش: لا يمكن بأي حال إنها مدينة رائعة قضيت فيها خمس سنوات من أسعد سنوات عمري ولم يكن لدي أندريه يفيميتش من الإرادة ما يكفي للإصرار على رأيه فساغر مكرهاً إلى وارسو وهناك لم يغادر الغرفة، وظل راقداً على الكنبة، وهو يحنق على نفسه وعلى صديقه، وعلى الخدم الذين أصروا بعناد على عدم فهم الروسية أما ميخائيل أفيريانيتش بصحته ونشاطه ومرحه كالعادة، فكان يتجول في المدينة من الصباح إلى المساء ويبحث عن معارفه القدامى ولم يبت في الفندق عدة مرات وبعد ليلة قضاها في مكان غير معروف رجع إلى الفندق في الصباح الباكر وهو في حالة انفعال شديد، أحمر الوجه، مشعث الشعر وأخذ يروح في الغرفة جيئةً وذهاباً فترة طويلة، وهو يدمدم بكلمات ما، ثم توقف وقال: الشرف قبل كل شيء ثم تمشى قليلاً، أمسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدي: نعم، الشرف قبل كل شيء اللعنة على تلك الساعة التي فكرت فيها أن آتي إلى بابل هذه



والتفت إلى الدكتور قائلاً يا عزيزي، فلتحتقرنى، لقد خسرت في القمار، أعطني خمسمائة روبل عد أندريه يفيميتش خمسمائة روبل وأعطها لصديقه في صمت فتفوه هذا بقسم ما غير ضروري، وهو لا يزال محتقناً من الخجل والغضب، وارتدي قبعته وخرج وعاد بعد حوالى ساعتين وتهالك في المقعد وتهد بصوت عال وقال: لقد أنفذ الشرف فلنرحل يا صديقى لا أريد أن أبقى في هذه المدينة الملعونة دقيقة واحدة المحتالون جواسيس النمسا؟.

عندما عاد الصديقان إلى المدينة كان نوفمبر قد حل، وغطى الشوارع ثلج كثير وشغل الدكتور خوبوتوف محل أندريه يفيميتش، وكان لا يزال يقطن الشقة القديمة في انتظار رحيل أندريه يفيميتش عن شقة المستشفى وأصبحت المرأة الدميمة التي كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل في أحد أجنحة المستشفى وسرت في المدينة شائعات جديدة عن المستشفى فقيل إن المرأة الدميمة تشاجرت مع المشرف، وأن الأخير زحف أمامها على ركبتيه طالباً الصفح واضطر أندريه يفيميتش في أول يوم لوصوله إلى البحث عن شقة وقال له مدير البريد بتردد: يا صديقى اعذرني على هذا السؤال غير المتواضع: كم لديك من المال؟ فعد أندريه يفيميتش نقوده في صمت وقال ستة وثمانون روبلاً فقال ميخائيل أفيريانيتش في



حرج وهو لم يفهم الدكتور لست أسأل عن هذا إنني أسأل كم تملك عموماً؟ لقد قلت لك: ستة وثمانون روبلاً ليس لدي أكثر من هذا كان ميخائيل أفيريانيتش يعتبر الدكتور شخصاً شريفاً ونبيلاً، ولكنه مع ذلك كان يحدس بأن لديه رصيماً يبلغ على الأقل عشرين ألفاً أما الآن، وبعد أن عرف أن أندريه يفيمينش شحاذ وليس لديه ما يعيش به، بكى فجأة لسبب ما وعانق صديقه سكن أندريه يفيمينش في منزل المواطنة بيلوفا ذي الثلاث نوافذ ولم يكن في هذا البيت سوى ثلاث غرف بخلاف المطبخ وشغل الدكتور غرفتين منها، بنوافذ تطل على الشارع، بينما سكنت داريوشكا وربة البيت وأطفالها الثلاثة الغرفة الثالثة والمطبخ.

وأحياناً كان عشيق ربة الدار يأتي للمبيت، وهو فلاح ثمل، كانت ثأثرته تنور في الليل فيلقى الرعب في قلوب الأطفال وداريوشكا وعندما يأتي ويتربع في المطبخ ويبدأ في المطالبة بالفودكا، كان الجميع يشعرون بضيق المكان الشديد فيأخذ الدكتور الأطفال الباكين شفقة بهم ويرقدهم عنده على الأرض، وكان ذلك يجلب له متعة كبيرة.

كان يستيقظ في الثامنة كسابق عهده، وبعد تناول الشاي يجلس ليقراً كتبه ومجلاته القديمة، إذ لم يعد لديه نقود لشراء



كتب جديدة وربما لأن الكتب قديمة أو ربما بسبب تغيير المكان لم تعد القراءة تستغرقه بل كانت ترهقه ولكي لا يبدد الوقت دون عمل، وضع كتالوجاً مفصلاً لكتبه، والصق بطاقات صغيرة بكعوبها، وبدا له هذا العمل الميكانيكي الدقيق أطرف من القراءة كان العمل الرتيب الدقيق يهدد أفكاره بصورة غير مفهومة، فلا يفكر في شيء ويمر الوقت بسرعة وحتى الجلوس في المطبخ مع داريوشكا لتقشير البطاطس أو تنظيف البرغل من الشوائب بدا له طريفاً وكان يتردد على الكنيسة في يومي السبت والأحد كان يقف بجوار الحائط ويصغي إلى الغناء مغمض العينين ويفكر في أبيه، وأمه والجامعة، والأديان، ويحس بالسكينة والحزن، وعندما ينصرف بعد ذلك من الكنيسة يشعر بالأسف لانتهاج الصلاة بسرعة وزار إيفان دميتريتش في المستشفى مرتين لكي يتحدث معه ولكن إيفان دميتريتش في كلتا المرتين كان هائجاً ومحنقاً بصورة غير عادية، فطلب منه أن يدعه وشأنه لأنه مل منذ فترة بعيدة هذه الثثرة الفارغة، وقال إنه لا يرجو من الأوغاد الملاحين غير مكافأة واحدة على كل آلامه: الحبس الانفرادي، فهل من المعقول أن يرفضوا حتى هذا الطلب؟ وعندما ودعه أندريه يفيميتش في المرتين متمنياً له ليلة هادئة، قال بغل: إلى الشيطان والآن لم يعد أندريه يفيميتش يعرف هل يزوره للمرة الثالثة أم لا وكانت به رغبة في الذهاب وفي السابق



كان أندريه يفيميتش يقضي فترة ما بعد الغداء في الطواف بالغرف والتفكير، أما الآن فأصبح يرقد من الغداء حتى شاي العشاء على الكنبه ووجهه إلى ظهرها ويستسلم لأفكار ضحلة لم يستطع التغلب عليها أبداً كان يحز في نفسه أنه مقابل خدمته التي جاوزت العشرين عاما لم يحصل لا على معاش ولا على مكافأة صحيح أنه بغير أمانة، ولكن المعاش يحصل عليه جميع الموظفين بغير تمييز، سواء كانوا أمناء أم لا والعدالة المعاصرة إنها تتجلى في أن الرتب والأوسمة والمعاشات لا تمنح مكافأة على الخصائص الخلقية والقدرات، بل على العمل بشكل عام، وأياً كان فلماذا ينبغي أن يكون هو وحده الاستثناء؟ لم يكن لديه نقود على الإطلاق وكان يشعر بالخجل من المرور أمام الدكان والنظر إلى ربة الدار وكان مديناً باثنين وثلاثين روبلاً مقابل البيرة وداريوشكا تبيع شيئاً فشيئاً الملابس والكتب القديمة وتكذب على ربة الدار قائلة إن الدكتور سيحصل عما قريب على مبلغ ضخم وحنق على نفسه لأنه أنفق في الرحلة الألف روبل التي كان قد ادخرها كم كانت تنفعه هذه الألف الآن وكان يشعر بالأسى لأن الناس لا تدعه وشأنه فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه أن يزور زميله المريض من حين لحين كان كل ما فيه بغيضاً على نفس أندريه يفيميتش: وجهه الشبعان، ونبرته المتعالية السيئة، وكلمة زميل وحذاؤه العالي أما أكثر شيء بغضاً فهو أنه كان يرى من



واجبه أن يعالج أندريه يفيميتش، ويعتقد أنه يعالج بالفعل وفي كل زيارة كان يأتي معه بقارورة من البوتاسيوم والبروم وحبوب الراوند .

وكان ميخائيل أفيريانيتش أيضاً يرى من واجبه أن يزور صديقه ويسرى عنه كان يدخل على أندريه يفيميتش في كل مرة في تبسط مفتعل، ويقهقه بتكلف، ويؤكد له أن هيئته اليوم تبدو رائعة، وأن الأمور تسير والحمد لله نحو التحسن، وكان يمكن أن تستتج من ذلك أنه يعتبر حالة صديقه ميئوساً منها ولم يرد بعد دين وارسو فكان مهموماً من الخزي الشديد، ومتوتراً، لذلك يحاول أن يقهقه بصوت أعلى ويروى بصورة أكثر إضحাকা وبدت مزحاته وحكاياته الآن بلا نهاية، وكانت مضمينة سواء لأندريه يفيميتش أم له هو نفسه .

وفي حضرته كان أندريه يفيميتش يتمدد عادة على الكنبه ووجهه إلى الحائط ويستمتع وقد أطبق أسنانه وتترسب المرارة على قلبه طبقات، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحسب أن هذه الترسبات تصبح أعلى فأعلى وكأنها تقترب من حلقه ولكي يخمد هذه الأحاسيس التافهة كان يسارع إلى التفكير في أنه هو نفسه، وخوبوتوف وميخائيل أفيريانيتش مصيرهم إلى الزوال عاجلاً أم آجلاً، دون أن يخلفوا في الطبيعة حتى مجرد بصمة ولو تخيلنا أنه بعد مليون سنة حلقت روح ما في الفضاء مارة بالكرة الأرضية فلن



ترى سوى الطين والصخور العارية سيندثر كل شيء ستندثر الثقافة وقانون الأخلاق، حتى دون أن يغطيها العشب فماذا يعني الخجل من صاحب الدكان، وماذا يعني خوبوتوف التافه، والصدقة المرهقة مع ميخائيل أفيريانيتش؟ كل هذا هراء وتفاهة ولكن هذه الأفكار لم تعد تسعفه فيها ان يتصور الكرة الأرضية بعد مليون سنة، حتى يطل خوبوتوف بجذائه العالي من وراء صخرة عارية أو ميخائيل أفيريانيتش وهو يقهقه بتوتر، بل يسمع هما خجلاً: سأرد لك يا عزيزي دين وارسو في الأيام القادمة حتماً.

جاء ميخائيل أفيريانيتش ذات مرة بعد الغداء عندما كان أندريه يفيميتش راقداً على الكنبه واتفق أن جاء في نفس الوقت خوبونوف أيضاً حاملاً البوتاسيوم بالبروم ونهض أندريه يفيميتش بتناقل وجلس معتمداً بكلتا يديه على الكنبه وبدأ ميخائيل أفيريانيتش يقول: أما اليوم يا عزيزي فلون وجهك أفضل بكثير من الأمس، نعم برفوعليك أي والله برفو؟.

وقال خوبونوف متثائباً: حان الوقت للشفاء يا زميلي، حان الوقت عساك سئمت هذا التسوييف فقال ميخائيل أفيريانيتش بمرح: سوف نشفي وسنعيش مائة عام أخرى نعم، هكذا.

فقال خوبونوف موسياً: مائة أم لا، لكن لديه ما يكفي لعشرين



عاماً أخرى لا بأس، لا بأس يا عزيزي، لا تحمل هما كفاك مراوغة. وقهقهه ميخائيل أفيريانيتش وربت على ركبة صديقه قائلاً: سوف نريكم من نحن سوف نريكم في الصيف القادم إن شاء الله نرحل إلى القوقاز ونطوف به كله على ظهور الجياد هوب هوب هوب وبعد أن نعود من القوقاز، من يدري، ربما نشهد حفل الزفاف وغمز ميخائيل أفيريانيتش بعينه في خبت سنزوجك يا صديقي العزيز، سنزوجك. وفجأة أحس أندريه يفيميتش أن المرارة تقترب من حلقة، ودق قلبه بعنف فقال وهو ينهض بسرعة متجهاً إلى النافذة: هذا ابتذال ألا تدركان أنكما تقولان أشياء مبتذلة؟.

وأراد أن يستطرد بلطف واحترام لكنه رغماً عنه شد قبضتيه فجأة ورفعهما أعلى من رأسه وصاح بصوت غير صوته وهو يتضرج وجسده كله يرتعش: دعوني اخرجاً من هنا أنتما الاثنان اخرجاً ونهض ميخائيل أفيريانيتش وخوبوتوف وحدقا فيه في البداية بدهشة، ثم بخوف ومضى أندريه يفيميتش يصيح: اخرجاً من هنا أيها البلاداء أيها الأغبياء لست بحاجة إلى الصداقة أو إلى أدويتك أيها البليد يا للابتذال يا للحقارة وتبادل ميخائيل أفيريانيتش وخوبوتوف النظرات في ارتباك وتراجعا إلى الباب وخرجاً إلى المدخل والتقط أندريه يفيميتش قارورة البوتاسيوم بالبروم وقذف بها في أثرهما، فتحطمت



القارورة على العتبة برنين اذهبا إلى الشيطان صاح بصوت باك وهو يندفع إلى المدخل إلى الشيطان.

وبعد خروج الضيفين، استلقي أندريه يفيميتش على الكنبه وهو يرتعش كالمحموم، ظل طويلاً يردد: البلاء الأغبياء وعندما هدأت ثأثرته كان أول ما تبادر إلى ذهنه أن ميخائيل أفيريانيتش المسكين لا بد يشعر الآن بالخجل الرهيب والكآبة، وأن كل هذا فظيغ لم يحدث له من قبل أبداً شيء مثل هذا، فأين ذكاؤه ولباقتة؟ وأين فهم الأشياء واللامبالاة الفلسفية؟.

لم يغمض للدكتور جفن طول الليل من الخجل والحنق على نفسه، وفي الصباح، حوالى الساعة العاشرة، اتجه إلى مكتب البريد واعتذر لمدير البريد فقال ميخائيل أفيريانيتش وهو يتنهد متأثراً ويشد بقوة على يده:

دعنا من ذكر الماضي ما فات مات يا لوبافكين صاح فجأة بصوت عال انتفض له الساعة والزوار هات مقعداً أما أنت فانتظري صاح في امرأة كانت تمد له عبر النافذة رسالة مسجلة ألا ترين أنني مشغول؟ ومضى يقول بلطف مخاطباً أندريه يفيميتش دعنا من ذكر الماضي اجلس يا صديقى، تفضل أرجوك.



وصمت دقيقة وهو يمسك ركبتيه، ثم قال لم يخطر ببالي أبداً أن أغضب منك فالمرض يجلب الكرب أنا أعرف لقد أزعجتني أنا والدكتور النوبة التي أصابتك بالأمس، وقد تحدثنا بعدها طويلاً عنك يا عزيزي، لماذا لا تريد أن تهتم جدياً بمرضك؟ أمن المعقول أن تبقى هكذا؟ وهمس ميخائل أفيريانيتش اعذرني على صراحتي الودية، إنك تعيش في ظروف غير ملائمة أبداً: في مكان ضيق، غير نظيف، وليس هناك من يركعك، وليس لديك ما تتعالج به يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أنا والدكتور من صميم قلوبنا، اقبل نصيحتنا وادخل المستشفى هناك الطعام الصحي، والرعاية والعلاج ويفجيني فيودروفتش، رغم أنه موفي تون، إلا أنه بيني وبينك، رجل عليم، يمكن الاعتماد عليه تماماً وقد وعدني أن يهتم بك كان أندريه يفيميتش متأثراً بهذه المشاركة المخلصة وبالدموع التي لمعت فجأة على خدي مدير البريد فهمس وهو يضع يده على قلبه.

يا صديقي المحترم، لا تصدق لا تصدقهم هذا خداع مرضى إلا أنني خلال عشرين سنة لم أجد في المدينة كلها سوى رجل ذكي واحد، وفوق ذلك فهو مجنون ليس بي أي مرض، وإنها ببساطة وقعت في حلقة مفرغة لا مخرج منها الأمر عندي سيان، أنا مستعد لأي شيء.

- ادخل المستشفى يا عزيزي سيان عندي، ولو السجن عدني يا



عزيزى بأنك سوف تطيع يفجيني فيودر وفتش في كل شيء تفضل، أعدك ولكني أكرر لك أنني وقعت في حلقة مفرغة وكل شيء الآن، حتى المشاركة المخلصة من جانب أصدقائي، تتجه نحو شيء واحد نحو هلاكى إنى أمضي إلى الهلاك، ولدي من الشجاعة ما أدرك به ذلك.

- ستشفى يا عزيزى فقال أندريه يفيميتش بعصبية: ما الداعي لهذا الكلام؟ قليلون هم الذين لا يعانون في أواخر أيامهم ما أعانيه الآن فعندما يقال لك إن الكلى لديك سيئة وقلبك متضخم فتشرع في العلاج، أو يقال لك إنك مجنون أو مجرم، أي باختصار عندما يوجه الناس انتباههم إليك فجأة، فلتعلم أنك وقعت في حلقة مفرغة لن تخرج منها أبداً وإذا ما حاولت أن تخرج ستضل أكثر فلتستسلم، لأنه لن تتقذك أية جهود بشرية هكذا يبدو لي وفي تلك الأثناء تجمع الجمهور بجوار النافذة، فنهض أندريه يفيميتش مودعاً لكي لا يعرقل العمل وأخذ منه ميخائيل أفيريانيتش مرة أخرى كلمة شرف، وصاحبه حتى الباب الخارجي وفي نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف بغتة في معطفه القصير وحذائه العالى إلى أندريه يفيميتش وقال وكأن شيئاً لم يحدث بالأمس لقد جئتك في موضوع يا زميلي جئت أدعوك، ألا تريد أن تشترك معى في كونسولتو؟ هه؟

وظن أندريه يفيميتش أن خوبوتوف يريد أن يسرى عنه



بالترييض، أو يعطيه بالفعل فرصة للكسب، فارتدى ثيابه وخرج معه إلى الشارع كان سعيداً بفرصة تصحيح خطأ الأمس والتصالح، وكان في قرارة نفسه ممتناً خوبوتوف الذي لم ينبس حتى بينت شفة عما حدث بالأمس، رحمة به فيما يبدو وكان من الصعب أن تتوقع من شخص غير مهذب كهذا مثل هذه اللباقة وسأل أندريه يفيميتش: وأين مريضك؟.

عندي في المستشفى لقد أردت منذ فترة طويلة أن أعرضه عليك حالة طريفة جداً ودلنا إلى فناء المستشفى، ودارا حول المبنى الرئيسي متجهين إلى الجناح الذي ينزل به المرضى العقليون ولسبب ما جرى ذلك في صمت وعندما دخلا الجناح قفز نيكيكا كالعادة وشد قامته وقال خوبونوف بصوت خافت وهو يدخل مع أندريه يفيميتش إلى العنبر: لقد أصيب أحدهم هنا بمضاعفات في الرئتين انتظرني هنا، سأتى حالاً سأذهب لإحضار الساعة وخرج حل الغسق كان إيفان دميتريتش ممدداً على سريره وقد دس وجهه في الوسادة وجلس المشلول دون حراك وهو يبكي بصوت خافت ويحرك شفثيه أما الفلاح السمين والفراز السابق فكانا نائمين.

جلس أندريه يفيميتش على سرير إيفان دميتريتش وأخذ ينتظر ولكن بعد أن مضى حوالي نصف ساعة، بدلاً من خوبوتوف دخل



نيكيثا ممسكاً تحت إبطه روبا وملابس داخلية ما وحذاء وقال بصوت خافت: تفضل البس يا صاحب السعادة هذا هو فراشك، تفضل هنا قال مشيراً إلى سرير فارغ، يبدو أنهم قد وضعوه مؤخراً لا بأس، إن شاء الله ستشفى.

وفهم أندريه يفيميتش كل شيء ودون أن يتفوه بكلمة انتقل إلى السرير الذي أشار إليه نيكيثا وجلس وعندما رأى أن نيكيثا ما زال واقفاً ينتظر، نزع ثيابه حتى تعري تماماً وأحس بالخجل ثم ارتدى ثياب المستشفى كان السروال قصيراً جداً، والقميص طويلاً، وفاحت من الروب رائحة سمك مدخن وردد نيكيثا: ستشفى إن شاء الله وجمع تحت إبطه ثياب أندريه يفيميتش وخرج وأغلق الباب خلفه سيان فكر أندريه يفيميتش وهو يشد الروب على جسده بحياء ويحس أنه يشبه السجناء بملابسه الجديدة سيان، بدلة السهرة أم البدلة الرسمية، أم هذا الروب ولكن الساعة؟ والمفكرة التي في جيب السترة؟ والسجائر؟ إلى أين أخذ نيكيثا الثياب؟ في الغالب لن يقدر له حتى الممات أن يرتدي السروال والصديري والحذاء وكل هذا يبدو غريباً وغير مفهوم للوهلة الأولى وحتى الآن كان أندريه يفيميتش مقتنعاً بأنه ليس هناك أي فرق بين بيت المواطنة بيلوفا وعنبر رقم 6، وأن كل شيء في هذا العالم هراء وباطل الأباطيل، ومع



ذلك ارتعشت يداها، وبردت قدمها، واستولى عليه الرعب من فكرة أن إيفان دميتريتش سوف يستيقظ ويراه مرتدياً الروب فنهض، وتمشى قليلاً، ثم جلس ها هو ذا قد جلس نصف ساعة، ساعة، وتملكه الملل إلى درجة الكتابة أمن المعقول أن يعيش المرء هنا يوماً، أسبوعاً، بل أعواماً، مثل هؤلاء الأشخاص؟ ها هو ذا قد جلس، وتمشي، ثم جلس من جديد من الممكن أن يذهب إلى النافذة ويتطلع منها، ثم يتمشى من ركن لركن وماذا بعد ذلك؟ هل يجلس طوال الوقت كالأبله ويفكر؟ كلا، هذا شبه مستحيل.

ورقد أندريه يفيميتش، ولكنه نهض لتوه، ومسح بكفه العرق البارد من جبينه وأحس أن وجهه كله قد تشبع برائحة السمك المدخن وعاد فتمشي ثانية وقال وهو يشيح بيديه في استغراب هذا سوء فهم ماينبغي أن أستوضح، ثمة سوء فهم هنا وفي تلك اللحظة استيقظ إيفان دميتريتش جلس واعتمد بخديه على قبضتيه وبصق ثم تطلع بكسل إلى الدكتور، ويبدو أنه لم يفهم شيئاً للوهلة الأولى، لكن وجهه الناعس سرعان ما أصبح غاضباً وساخراً وقال بصوت أبح من أثر النوم وقد زر إحدى عينيه: آه، أنت أيضاً وضعوك هنا يا عزيزي سعيد جداً كنت تشرب دم الناس، والآن سيشرّبون دمك رائع.

- هذا سوء فهم ما قال أندريه يفيميتش وقد أخافته كلمات إيفان



دميتريتش، وهز كتفيه وأضاف سوء فهم ما وبصق إيفان دميتريتش ورقد ودمدم بسخط: حياة لعينة والمحنق والمرير في الأمر أن هذه لن تنتهي بمكافأة على الآلام أو بمشهد ختامى كما في الأوبرا، بل بالموت يأتي خدم المستشفى ويسحبون الميت من يديه وقدميه إلى القبور ولكن لا بأس في العالم الآخر سنحیی عيدنا سوف آتی من العالم الآخر إلى هنا ظلالاً أخيف هؤلاء الأوغاد سآشيبهم وعاد موسيكا، ورأى الدكتور فمد له يده قائلاً: - أعطنى كوبيكا .

ذهب أندريه يفيميتش إلى النافذة ونظر إلى الحقل كان الظلام قد هبط، وفي الجانب الأيمن من الأفق سعد قمر بارد أحمر وعلى مقربة من سور المستشفى، على بعد مائة ذراع لا أكثر قام منزل أبيض عال، محاط بجدار حجري كان ذلك مبنى السجن وفكر أندريه يفيميتش: هذا هو الواقع، وأحس بالرعب كان القمر مربعاً، والسجن ومسامير السور، واللهب البعيد في مصنع معالجة العظم وسمع أندريه يفيميتش من ورائه زفرة، فالتفت فرأى رجلاً بنجوم لامعة وأوسمة على صدره، كان يبتسم له ويغمز بعينه في خبث وبدا هذا أيضاً مربعاً.

وأخذ أندريه يفيميتش يؤكد لنفسه أنه ليس هناك أي شيء خاص في القمر والسجن، وأنه حتى الأشخاص الأصحاء نفسياً يحملون



الأوسمة، وأن كل ذلك بمرور الزمن سيزول ويتحول إلى طين، ولكن اليأس تملكه فجأة، فأمسك بالقضبان بكلتا يديه وهزها بكل قوته، ولكن القضبان القوية لم تستجب له.

ولكي يخفف من وطأة الخوف اتجه إلى سرير إيفان دميتريتش ودمدم وهو يرتعش ويحفف عرقه البارد: لقد انهرت يا عزيزي انهرت فأجاب إيفان دميتريتش بسخرية: جرب أن تتفلسف إذن يا إلهي، يا إلهي نعم، نعم لقد تفضلت ذات مرة وقلت إنه ليس في روسيا فلسفة، ولكن الجميع يتفلسفون، حتى الصغار، ولكن تفلسف الصغار لا يعود بضرر على أحد قال أندريه يفيميتش بنبرة خاصة وكأنه أراد أن يبيكي أو يستدر الشفقة ما الداعي يا عزيزي لهذه السخرية الحاقدة؟ وكيف لا يتفلسف هؤلاء الصغار إذا كانوا لا يشعرون بالارتياح؟ الإنسان النبيه المتعلم، الأبى، الحر، الشبيه بالإله لا يجد مخرجاً سوى أن يصبح طبيباً في مدينة صغيرة قذرة غبية، ويقضى عمره كله في وضع كؤوس الهواء ودود العلق والكمادات يا للاحتيال وضيق الأفق والابتدال أوه يا إلهي.

أنت تثرثر بحماقات إذا كنت تنفر من الطب فاعمل وزيراً لا يمكن، لا يمكن، مستحيل نحن ضعفاء يا عزيزي كنت لا مبالياً أناقش بهمة ومنطق، وما إن مستني الحياة بخشونة حتى انهرت خارت قواي



ضعفاء نحن، سيئون نحن وأنت أيضاً يا عزيزي أنت ذكي، نبيل، رضعنت مع لبن الأم الانفعالات النبيلة، ولكن ما إن دخلت معترك الحياة حتى تعبت ومرضت ضعفاء، ضعفاء.

كان ثمة شيء آخر ملح، غير الخوف والشعور والخنق، يرهق أندريه يفيميتش طوال الوقت منذ حلول المساء وأخيراً أدرك أن ذلك بسبب رغبته في تناول البيرة والتدخين وقال سأخرج من هنا يا عزيزي، سأطلب منهم أن يشعلوا النور هنا أنا لا أستطيع هكذا لا أحتمل ومضى أندريه يفيميتش إلى الباب وفتحته، ولكن نيكيثا هب واقفماً على الفور وسد عليه الطريق، وقال:

- إلى أين؟ ممنوع، ممنوع حان وقت النوم فقال أندريه يفيميتش بوجل: سأخرج دقيقة واحدة فقط، سأتمشي في الفناء ممنوع، ممنوع الأوامر لا تسمح أنت نفسك تعرف وصفق نيكيثا الباب وارتكز عليه بظهره وسأل أندريه يفيميتش وهو يهز كتفيه: ولكن هل سيحدث لأحد شيء إذا خرجت من هنا؟

أنا لا أفهم وقال بصوت متهدج يا نيكيثا ينبغي أن أخرج، أنا بحاجة إلى ذلك فقال نيكيثا أما: لا تسبب الفوضى عيب وفجأة صاح إيفان دميتريتش وهب واقفماً: الشيطان يعلم ما هذا؟ بأي حق يمنعه من الخروج؟ كيف يجروون على إبقائنا هنا؟ القانون ينص



بوضوح فيما يبدو على عدم جواز حبس أي شخص بدون محاكمة هذا طغيان تعسف فقال أندريه يفيميتش وقد شجعه صياح إيفان دميتريتش: طبعاً تعسف أنا بحاجة إلى الخروج، ينبغي أن أخرج ليس من حقه أن يمنعي دعني قلت لك وصاح إيفان دميتريتش ودق الباب بقبضته: أسمع أيها الحيوان البليد؟ افتح وإلا كسرت الباب أيها السفاح وصاح أندريه يفيميتش وجسده كله يرتعش: افتح أنا أطالبك فرد نيكيتا من خلف الباب: أكمل، أكمل، هيا تكلم على الأقل استدع يفجيني فيودور فيتش قل له إني أرجوه أن يأتي لدقيقة واحدة سيأتي غداً بنفسه ومضى إيفان دميتريتش يقول في أثناء ذلك: لن يطلقوا سراحنا أبداً سيجعلوننا نتعض هنا أوه يا إلهي، أحقاً لا يوجد جحيم في العالم الآخر وسيغفر لهؤلاء الأوغاد؟ أين العدالة إذن؟ وصاح بصوت أبح وتحامل على الباب افتح أيها الوغد، إني أختنق سأحطم رأسى، يا قتلة وفتح نيكيتا الباب بسرعة، ودفع أندريه يفيميتش بيديه وركبته بخشونة، ثم طوح بيده إلى الورااء ولكمه بقبضته في وجهه وخيل لأندريه يفيميتش أن موجة مالحة ضخمة قد غطته حتى رأسه وسحبته إلى السرير وبالفعل شعر في فمه بطعم مالح بيد أن الدم تدفق من أسنانه ولوح بيديه وكأنما يريد أن يطفو، وتشبث بسرير ما، وفي تلك اللحظة أحس أن نيكيتا ضربه مرتين في ظهره وصرخ إيفان دميتريتش بصوت عال لا بد أنه هو أيضاً كان



يضرب ثم هدأ كل شيء وتسرب ضوء القمر الضعيف عبر القضبان، وارتدى على الأرض ظل يشبه السمكة وساد الرعب وتمدد أندريه يفيميتش وقد حبس أنفاسه كان يتوقع في رعب ضربة أخرى وأحس كأنما غرز أحدهم فيه منجلاً وأداره بضع مرات في صدره وأحشائه وعض الوسادة من الألم وضغط على أسنانه، وفجأة ومضت في ذهنه بوضوح وسط الفوضى فكرة رهيبة لا تحتل، وهي أن مثل هذا الألم كان ينبغي أن يتحملة أعواماً، ويوماً إثر يوم، هؤلاء الأشخاص الذين يلوحون الآن في ضوء القمر ظللاً سوداء وكيف أمكن أن يحدث أنه طوال أكثر من عشرين سنة لم يعرف ولم يرد أن يعرف هذا؟ لم يكن يعرف ولا يتصور ما هو الألم، إذن فهو غير مذنب، ولكن ضميره، العنيد والفظ تماماً مثل نيكيتا، جعله يتلج من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقفز، وأراد أن يصرخ بكل قواه ويهرب بسرعة لكي يقتل نيكيتا، ثم خوبوتوف والمشرف والحكيم، ثم يقتل نفسه، ولكن لم يخرج من صدره أي صوت ولم تستجب له ساقاه وشد القميص والروب عند صدره وهو يختنق ومزقهما، وارتدى على السرير فاقد الوعي في صباح اليوم التالي أحس بصداع، وطنين في أذنيه، وتعب في جسده كله ولم يخجل من تذكر ضعفه بالأمس لقد كان بالأمس جباناً، وخاف حتى من القمر، وعبر بصراحة عن مشاعر وأفكار لم يكن يظن قبلاً أنها تراوده مثلاً فكرة عدم الرضا لدى الصغار



المتفلسفين أما الآن فلم يعد بهمه شيء.

لم يأكل، ولم يشرب، وتمدد بلا حراك ولزم الصمت وفكر عندما كانوا يواجهون إليه أسئلة: الأمر سيان عندي لن أرد الأمر سيان.

وبعد الغداء جاء ميخائيل أفيريانيتش وأحضر معه ربع رطل من الشاي ورطلاً من الحلوى، وجاءت داريوشكا أيضاً ووقفت ساعة كاملة بجوار السرير وعلى وجهها تعبير حزن بليد وزاره أيضاً الدكتور خوبوتوف، وجاء معه بقارورة بوتاسيوم بالبروم وأمر نيكيتا أن يبخر العنبر وقبيل المساء توفي أندريه يفيميتش أثر نوبة نزيف في البداية أحس بقشعريرة مذهلة وغثيان وشده شيء ما مقزز، كما خيل إليه، من معدته إلى رأسه وملأ أذنيه وعينيه وهو يتغلغل في كل جسده، حتى في أصابعه وغامت عيناه وأدرك أندريه يفيميتش أنها النهاية فتذكر أن إيفان دميرتيتش وميخائيل أفيريانيتش وملايين الناس يؤمنون بالخلود وربما هو موجود؟ ولكنه لم يكن يريد الخلود، فلم يفكر فيه سوى لحظة وركض ماراً به قطع من الغزلان الفائقة الجمال والرشاقة التي قرأ عنها بالأمس ثم مدت امرأة يدها له برسالة مسجلة وقال ميخائيل أفيريانيتش شيئاً ما ثم اختفى كل شيء وغاب أندريه يفيميتش إلى الأبد.

وجاء خدم المستشفى فسحبوه من يديه ورجليه إلى المصلى



الجزء الثالث

وهناك تمدد على طاولة وعيناه مفتوحتان وأضاء القمر ليلاً وفي الصباح جاء سرجى سرجيتش، وصلى بورع على الصليب، وأغلق عيني رئيسه السابق ودفن أندريه يفيميتش بعد يوم ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل أفيريانيتش وداريوشكا.



المبارزة

كانت الساعة الثامنة صباحاً، وهي الساعة التي يذهب فيها الضباط والموظفون والوافدون عادة للاستحمام في البحر بعد ليلة حارة خانقة، ثم يقصدون المقصف لتناول القهوة أو الشاي وعندما جاء إيفان أندريتشلايفسكى وهو شاب في حوالي الثامنة والعشرين، نحيف أشقر، يرتدي عمرة وزارة المالية وشبشباً إلى الشاطئ للاستحمام وجد هناك الكثيرين من معارفه، ومن بينهم صديقه الدكتور العسكري سامويلنكو.

كان سامويلنكو هذا، برأسه الكبير الحليق، وانعدام عنقه، ووجهه الأحمر الكبير الأنف، وحاجبيه الأسودين الكثرين، وسالفه الأشيبين، والجسد السمين المترهل، وعلاوة على ذلك بصوته العسكري الأبح، يترك في نفوس الوافدين الجدد انطباعاً منفرداً عن رجل جلف أبح، ولكن ما إن يمر على التعارف الأول يومان أو ثلاثة، حتى يبدأ وجهه يبدو لهم طيباً بصورة غير عادية، ولطيفاً بل حتى جميلاً فرغم هيئته الخرقاء ونبرته الفظة كان رجلاً وديعاً، طيباً بلا حدود، بشوشاً



وخدمواً كان يعرف جميع أهل المدينة معرفة قريبة، ويقرض الجميع ويعالج الكل ويزوجهم ويصالحهم، ينظم النزعات الخلوية التي يشوى أثناءها الكباب ويطهو حساءاً لذيذاً للغاية من سمك البوري وكان دائماً يسعى لأحد ما ويرجو، ويفرح دائماً لأمر ما كان بإجماع الآراء رجلاً نقياً، لا يعيبه إلا شيئان: فقد كان، أولاً، يخجل من طبيته، فيحاول تمويهها بنظرة صارمة وخشونة مصطنعة، وكان، ثانياً، يحب أن يناديه الممرضون والجنود بلقب صاحب المعالي بالرغم من أنه لم يكن سوى مستشار دولة فقط.

أجبني على سؤال واحد يا ألكسندر دافيديتش قال لايفسكى بعد أن نزل هو وصامويلنكو البحر وغاصا حتى أكتفاهما فلنفرض أنك أحببت امرأة واتصلت بها، ولنفرض أنك عشت معها أكثر من عامين، وكما يحدث أحياناً، لم تعد تحبها وأصبحت تشعر أنها غريبة بالنسبة لك كيف تتصرف في هذه الحالة؟ بكل بساطة اذهبي يا صاحبتى إلى حيث تريدين وانتهى الأمر.

ليست المسألة بهذه البساطة وإذا لم يكن لديها مكان تذهب إليه؟ فهي امرأة وحيدة، بلا أهل، ليس لديها من النقود قرش، لا تجيد العمل - فليكن خمسمائة روبل دفعة واحدة في يدها، أو خمسة وعشرون روبلاً شهرياً وانتهينا بكل بساطة.



فلنترض أن لديك خمسمائة روبل وخمسة وعشرين شهرياً، ولكن المرأة التي أتحدث عنها مثقفة وذات كرامة فهل تجرؤ حقاً على أن تعرض عليها نقوداً؟ وبأية صورة؟ أراد صامويلنكو أن يقول شيئاً، ولكن موجة عالية غمرتهما معاً في تلك اللحظة، ثم اصطدمت بالشاطئ وارتدت إلى الوراء في صخب فوق الحصى الصغير وخرج الصديقان إلى الشاطئ وأخذا يرتديان ملابسهما .

وقال صامويلنكو وهو ينفذ الرمل عن حدائه: من الصعب طبعاً أن تعيش مع امرأة إذا كنت لا تحبها ولكن ينبغي يا فانيا أن تتناول الأمر من ناحية إنسانية لو حدث هذا لي لما أظهرت لها أبداً أنني لم أعد أحبها، ولعشت معها إلى الممات.

وفجأة أحس بالخجل مما قاله، فأسرع يقول مستدركاً لو كان الأمر بيدي لما رغبت أن تكون هناك نساء فليذهبن إلى الجحيم ارتدى الصديقان ملابسهما وذهبا إلى المقصف وهنا كان صامويلنكو كصاحب البيت، وكانوا يحتفظون له بآنية خاصة كانوا يقدمون له كل صباح على صينية قدح قهوة وكوباً طويلاً مضملاً ماء مثلج كأساً من الكونياك فيشرب أولاً كأس الكونياك، ثم القهوة الساخنة، وبعد ذلك الماء المثلج، وكان ذلك، على ما يبدو، لذيذ جداً، لأن عينيه بعد الشرب تصبحان لا معتين، ويمسح سالفيه بكلتا يديه ويقول وهو



ينظر إلى البحر منظر في غاية الروعة.

أما لايفسكى، فبعد ليلة طويلة أنفقت في تفكير كئيب عقيم عاقه عن النوم، وبدا كأنما زاد من حدة ظلام الليل وجوه الخائق، فكان يشعر أنه مضطرب وذابل ولم تتحسن حالته حتى بعد الاستحمام والقهوة.

وقال: فلنواصل حديثنا يا ألكسندر دافيديتش لن أخفي عنك شيئاً ولأقل لك بصراحة كصديق: إن أموري سيئة مع ناديجدا فيودوروفنا سيئة للغاية عفوياً إذا كنت أقحمك في أسراري، ولكنني بحاجة إلى أن أفضى بها في قلبي كان صامويلنكو يحدس علام سيدور الحديث فخفض بصره وبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة ومضى لايفسكى يقول: - لقد عشت معها سنتين ثم لم أعد أحبها، وبالأصح أدركت أنه لم يكن هناك أي حب كانت هاتان السنتان خداعاً.

كان من عادة لايفسكى أثناء الحديث أن يتفحص باهتمام راحتيه الورديتين ويقضم أظفاره أو يلوي أساوره بأصابعه والآن أيضاً كان يفعل ذلك وقال:

- إنني أدرك جيداً أنك لا تستطيع أن تساعدني، ولكنني أتحدث إليك في هذا، لأنه بالنسبة لنا، نحن الفاشلين الضائعين، لا منقذ سوى الأحاديث ينبغي أن أعمم كل تصرف من تصرفاتي، ينبغي أن



أجد تفسيراً وتبريراً لحياتي الحمقاء في نظريات علماء ما، وفي الشخصيات الأدبية، وفي أننا نحن النبلاء مثلاً نتفرض وننحط وخلافة في الليلة الماضية مثلاً كنت أعزي نفسي بأن أفكر طوال الوقت: نعم كم هو محق تولستوى، محق بقسوة وقد خفف هذا عني وبالفعل يا أخي، ياله من كاتب عظيم مهما قلت عنه.

أحس صامويلنكو، الذي لم يقرأ تولستوى قط وينوي كل يوم أن يقرأه، بالهرج وقال: نعم، جميع الكتاب يكتبون من الخيال، أما هو فمن الطبيعة مباشرة فقال لايفسكى متتهداً: يا إلهي، إلى أي حد أفسدتنا الحضارة لقد أحببت امرأة متزوجة، وهي أيضاً أحببتي في البداية كان لنا قبلات، وأمسيات هادئة، وأيمان، وسبنسر ومثل عليا واهتمامات مشتركة يا للكذب لقد هربنا في الواقع من زوجها، ولكننا كذبنا على أنفسنا بأننا نهرب من فراغ حياتنا الذهنية وبدا لنا مستقبلنا على هذا النحو في البداية نذهب إلى القوقاز، وإلى أن نتعرف على المكان والناس أرتدي الحلة الرسمية والتحق بالخدمة، ثم نأخذ قطعة أرض في مكان رحب، ونكد وتعرق، فنغرس كرماً، ونزرع حقلاً وخلافه ولو كنت أنت مكاني، أو صاحبك عالم الحيوان فون كورين، فربما عشتما مع ناديجدا فيودووفنا ثلاثين عاماً وتركتما لورثتكما كرماً وفيراً وألف ديسياتينا من الأذرة، أما أنا فأحسست



أنى مفلس من أول يوم ففي المدينة حر لا يطاق، وملل ووحدة، وإذا خرجت إلى الحقل يتراءى لك تحت كل أَيْكة وحجر عناكب وعقارب وثعابين، أما وراء الحقل فليس إلا الجبال والصحراء أناس غرباء وطبيعة غريبة ثقافة بائسة وكل هذا يا أخي ليس سهلاً مثل التتزه في شارع نيفسكى في معطف فراء، متأبطاً ذراع ناديجدا فيودورفنا بينما تحلم بالأماكن البعيدة الدافئة هنا لا بد من معركة حياة أو موت، وأي مناضل أنا؟ أنا بائس منهار الأعصاب، مرفه أدركت من أول يوم أن أفكارى عن حياة الكد وعن الكروم لا تساوى قلامة ظفر أما بخصوص الحب، فينبغي أن أقول لك إن العيش مع امرأة قرأت سبنسر، ومضت معك إلى آخر الدنيا، ليس طريفاً، تماماً مثل العيش مع أية أنفيسا أو أكوлина فمنها أيضاً تفوح رائحة المكواة والبودرة والعقاقير نفس ورق تجعيد الشعر كل صباح، وخداع النفس عينه.

- المكواة لا غنى عنها في شئون البيت قال صامويلنكو وهو يتضرج لأن لايفسكى يتحدث معه بصراحه عن امرأة يعرفها أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج كما ألاحظ ناديجدا فيودورفنا امرأة رائعة، مثقفة، وأنت شخص نادر الذكاء ومضى صامويلنكو يقول وهو يتلفت نحو الموائد المجاورة أنتما بالطبع لم تعقدا قرانكما، ولكن هذا ليس ذنبكما، وعلاوة على ذلك ينبغي أن نتجرد من التحيز ونقف



على مستوى الأفكار الحديثة أنا أقف في صف الزواج المدني نعم، ولكنني أعتقد أنه طالما اقترنتما فينبغي أن تعيشا معاً حتى الممات.

- بلا حب؟ فقال صامويلنكو: سأوضح لك الآن منذ حوالي ثماني سنوات كان لدينا هنا وكيل، رجل عجوز، نادر الذكاء وكان يقول: أهم شيء في الحياة الزوجية هو الصبر هل تسمعي يا فانيا؟ ليس الحب، بل الصبر الحب لا يمكن أن يستمر طويلاً لقد عشت حوالي عامين في ظل الحب، والآن يبدو أن حياتك العائلية دخلت مرحلة عليك فيها، لكي تحافظ على التوازن، كما يقال، أن تستخدم كل ما لديك من صبر.

- أنت تؤمن بما قاله صاحبك الوكيل العجوز، أما بالنسبة لي فنصحيته هراء عجوزك كان بوسعه أن يوافق، كان بوسعه أن يتمرن على الصبر وفي الوقت نفسه ينظر إلى الشخص الذي لا يحبه باعتباره شيئاً ضرورياً لتمريناته، ولكنني لم أسقط بعد إلى هذه الدرجة من الانحطاط فإذا ما أردت أن أتمرن على الصبر فسأشتري أثقلاً حديدية أو حصاناً سريعاً، أما الإنسان فسأدعه في حاله.

طلب صامويلنكو نبيذا أبيض بالثلج وبعد أن شرب كل منهما كوباً سأله لايفسكى فجأة: - قل لي من فضلك، ما معنى تلين المخ؟



- كيف أشرح لك إنه مرض يصبح المخ بسببه أكثر ليناً أكثر سيولة يعنى.

- هل يمكن علاجه؟

نعم، إذا لم يكن قد استشرى حمامات باردة، حشرات الذراع ثم بالطبع شيء ما باطنياً.

مفهوم وهكذا فوضعى كما ترى لا أستطيع أن أعيش معها، هذا فوق طاقتي أنا معك هنا أتفلسف وأبتسم، أما في البيت فأنهار تماماً أشعر بضيق لا يطاق إلى درجة أنه لو قيل لي مثلاً إنني لا بد أن أعيش معها ولو شهراً آخر لأطلقت على رأسى رصاصة كما أعتقد وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أهجرها فهي وحيدة، لا تقدر على العمل، وليس هناك نقود لدى أو لديها فإلى أين تذهب؟ إلى من تتوجه؟ لا أجد أي حل وهكذا فلنتقل لي: ما العمل؟

فدمدم صامويلنكو وهو لا يدري ماذا يقول: أم هل هي تحبك؟ نعم، تحبني بالقدر الذي تحتاج فيه في سنها وبطبع كطبعها إلى رجل فسيكون من الصعب عليها أن تتركنى مثلما عليها أن تترك البودرة أو ورق تجعيد الشعر أنا بالنسبة لها جزء ضروري لا يتجزأ من غرفة نومها أحس صامويلنكو بالحرج فقال: أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج



يبدو أنك لم تتم.

- نعم، نمت نوماً سيئاً وعموماً يا أخي أشعر بحالتي في غاية السوء في رأسي فراغ، وقلبي متوقف، أحس بضعف لا أعرف كنهه يجب أن أهرب - إلى أين؟

- إلى هناك، إلى الشمال إلى الصنوبر والفطر، إلى الناس، إلى الأفكار أنا مستعد أن أعطى نصف عمري مقابل أن أستحم الآن في نهير في مكان ما بمحافظة موسكو أو تولا، وأشعر بالبرد، أتدرى، ثم أتسكع ثلاث ساعات ولو مع أبلد طالب وأثرثر، أثرثر ورائحة الدريس، ما أروعها هل تذكر؟ أما في الأمسيات، عندما تتجول في البستان، تتناهى إليك من البيت أنغام البيانو، وتسمع ضجيج قطار. وضحك لايفسكي من المتعة، وأغرورقت عيناه بالدموع، ولكي يداريتها، مد جسمه إلى الطاولة المجاورة ليأخذ كبريتاً دون أن ينهض من مكانه.

وقال صامويلنكو: - أما أنا فلم أذهب إلى روسيا منذ ثمانية عشر عاماً نسيت كيف تبدو هناك أعتقد أنه ليس هناك مكان أروع من القوقاز..

- عند فيريشاجين صورة: في قاع بئر سحيقة ألقى بأشخاص حكم عليهم بالإعدام قوقازك الرائع يبدو لي مثل هذه البئر تماماً



ولو خيرت بين أمرين: أن أكون منظم مداخلن في بطرسبرج أو أميراً هنا لاخترت وظيفة منظم المداخلن واستغرق لايفسكي في التفكير وعندما نظر صامويلينكو إلى جسمه المحني، وعينية المحدقتين في نقطة واحدة، وإلى وجهه الشاحب العرقان وصدغيه الغائرين، وإلى أظفاره المقضومة، وإلى شبشبه الذي تدلى من كعبه فكشف جوربا قد رتق بصورة سيئة، أحس بالشفقة عليه، وربما لأن لايفسكي بدا له كطفل عاجز فقد سأله: - هل أمك على قيد الحياة؟ نعم، ولكننا افترقنا لم نستطع أن تغفر لي هذه العلاقة.

كان صامويلينكو يحب صديقه كان يرى في لايفسكي فتى طيباً، طالباً، وشخصاً نزيهاً، يمكن معه أن تشرب وتضحك وتتحدث بما في نفسك وكانت الجوانب التي يفهمها فيه هي التي لا تعجبه أبداً فقد كان لايفسكي يشرب كثيراً وفي الوقت غير المناسب، ويلعب الورق، ويحتقر وظيفته، ويعيش بأكثر مما يسمح به دخله، ويستخدم كثيراً في حديثه عبارات غير لائقة، ويسير في الشارع بالشبشب، ويتشاجر مع ناديدجا فيودوروفنا أمام الغرباء وهذا ما لم يكن يعجب صامويلينكو، أما أن لايفسكي كان في وقت ما طالباً بكلية الآداب، ومشاركاً الآن في مجلتين من المجلات السميكة، وكثيراً ما يتحدث بذكاء بحيث لا يفهمه إلا القليلون، ويعاشر امرأة مثقفة فكل هذا لم يكن صامويلينكو



يفهمه، وكان يعجبه، وقد اعتبر لايفسكى أعلى منه واحترمه.

وقال لايفسكى وهو ينفذ رأسه: هناك شيء آخر وليكن هذا بيننا فقط ما زلت أخفيه عن ناديجا فيودورينا فلا تتفوه به عرضاً أمامها لقد تلقيت منذ ثلاث أيام رسالة بأن زوجها توفي من تليف المخ فتتهد صامويلنكو وقال: عليه الرحمة ولماذا تخفي عنها ذلك؟.

اطلاعتها على الرسالة سيعني: تفضلي إلى الكنيسة لنعقد قراننا بينما أولاً ينبغي أن نستوضح علاقتنا وعندما نتأكد من أننا لا نستطيع أن نعيش معاً سأريها الرسالة عندها لن يكون ذلك خطراً أتدري يا فانيا؟ - قال صامويلنكو واكتسى وجهه فجأة بتعبير حزين وضارع، كأنما كان ينوي أن يطلب شيئاً حلواً للغاية ويخشى أن يرفض طلبه تزوج يا عزيزي ما الداعي؟.

- قم بواجبك إزاء هذه السيدة الرائعة لقد مات زوجها، وهكذا فهذه هي العناية الإلهية تشير لك بما يجب عمله.

- يا لك من غريب فلتفهم أن مستحيل الزواج عن غير حب انه عمل وضيع وغير جدير بالإنسان تماماً كأن تؤم الصلاة وأنت غير مؤمن.

ولكن ذلك واجب عليك فسأل لايفسكى بعصبية: ولماذا هو واجب على؟ لأنك أخذتها من زوجها وأصبحت مسؤولاً عنها ولكني أقول لك



باللغة الروسية: أنا لا أحبها إذا لم يكن هناك حب فلتحترمها، ولتبهجها فقال لايفسكى مقلداً نبرته بسخرية: فلتحترمها، ولتبهجها كأنها هي كبيرة الراهبات أنت سيكولوجى وفسولوجى سيئ إذا كنت تعتقد أنك يمكن أن تعيش مع امرأة على الاحترام والإبهاج فقط المرأة بحاجة قبل كل شيء إلى غرفة نوم فقال سامويلنكو بخجل: فانيا، فانيا أنت طفل عجوز، منظر، أما أنا فعجوز شاب، وعمل، ولن يفهم أحدنا الآخر أبداً من الأفضل أن نترك هذا الحديث وصاح لايفسكى على النادل يا خوروف، كم حسابنا؟ فانزعج الدكتور وأمسك بذراع لايفسكى لا، لا أنا سأدفع أنا الذي طلبت وصاح بخوروف سجله على حسابى.

نهض الصديقان وسارا في صمت على الكورنيش وتوقفا عند مدخل البوليفار وصافحا بعضهما بعضاً مودعين وقال سامويلنكو متهدداً كم أنتم مدلون أيها السادة لقد ساقت لك الأقدار امرأة شابة، جميلة، مثقفة، وإذا بك ترفضها، ولو أعطاني الله ولو عجوزاً مهدمة، بشرط أن تكون رقيقة وطيبة، لما وسعتني الدنيا من الفرحة ولعشت معها في كرمننا واستدرك سامويلنكو فقال: ولتعدلى الشاي، هذه الساحرة الشمطاء.

وودع لايفسكى ومضى في البوليفار وعندما سار في البوليفار، رزيناً، مهيباً، بتعبير صارم على الوجه، وفي سترته البيضاء الناصعة



وحذائه الطويل الملمع بصورة ممتازة، وقد نفخ أمامه صدره المزدان بوسام فلاديمير، في تلك اللحظة أحس بإعجاب شديد بنفسه، وخيل إليه أن العالم كله ينظر إليه بسرور وتطلع حواليه دون أن يدير رأسه فوجد أن البوليفار منسق جيداً، وأن أشجار السرو الفتية والكافور، والنخل القبيح الأعجف جميلة جداً وسوف تنشر بمضى الزمن ظلالها الوارفة، وأن الشركس قوم شرفاء وكرماء وفكر في نفسه: من الغريب أن القوقاز لا يعجب لا يفسكى، غريب جداً.

وقابله خمسة جنود يحملون البنادق فأدوا له التحية وعلى الرصيف الأيمن للبوليفار مرت زوجة أحد الموظفين مع ابنها التلميذ فصاح صامويلنكو محيياً وهو يبتسم بارتياح: صباح الخير يا ماريا قسطنطينوفنا هل كنت تستحمين؟ هاهاها تحياتي لنيكوديم ألكسندريتش وواصل سيره وهو لا يزال يبتسم بارتياح، ولكنه عندما رأى ممرضاً عسكرياً يسير في اتجاهه عبس فجأة واستوقفه وسأله:

- هل هناك أحد في المستشفى؟ لا أحد يا صاحب المعالي.

هيه؟ لا أحد يا صاحب المعالي حسناً، انصرف.

واتجه وهو يتأرجح بعظمة إلى كشك مرطبات، حيث كانت تجلس امرأة يهودية عجوز كبيرة الصدر، وتدعي أنها جورجية، وقال لها



بصوت عال وكأنه يقود فوجاً: لو سمحت رجاء، أعطيني ماء صودا
كان عدم حب لايفسكي لناديجدا فيودورفنا يتجلى أساساً في
أن كل ما كانت تقوله وتفعله يبدو له كذبا أو شبيها بالكذب، وكل ما
كان يقرأه ضد النساء والحب بدا له منطبقاً أكثر شيء عليه وعلى
ناديغدا فيودوروفنا وعلى زوجها وعندما عاد إلى البيت كانت جالسة
بجوار النافذة، وقد ارتدت ملابسها وصففت شعرها، تشرب القهوة
بوجه مهموم وتقلب صفحات عدد من مجلة سميكة، ففكر لايفسكي
بأن شرب القهوة ليس حدثاً بهذه الأهمية التي تستدعي إضفاء تعبير
الهم على الوجه، وأنها عبثاً ضيعت الوقت في تسريحة موضة لأنه
لا يوجد هنا من يبدي إعجابه ولا حاجة لذلك وفي عدد المجلة رأى
كذباً أيضاً وفكر أنها تتأنق وتصفف شعرها لكي تبدو جميلة، وتقرأ
لكي تبدو ذكية.

وسألته: هل هناك مانع في أن أذهب اليوم للاستحمام؟

حسناً لو ذهبت أو لم تذهبي فلا أظن أن زلزالاً سيحدث بسبب
ذلك.

لا، ولكنني أسأل لأنني أخشى أن يغضب الدكتور أسألي الدكتور
إذن أنا لست دكتوراً في هذه المرة كان أكثر شيء لم يعجب لايفسكي



في ناديجدا فيودوروفنا عنقها الأبيض المكشوف وخصلاتها المجددة على قفاها، فتذكر أن أنا كارينينا عندما لم تعد تحب زوجها لم يعجبها فيه قبل كل شيء أذناه، ففكر: كم هذا صحيح كم هو صحيح وأحس بضعف وخواء ذهني فاتجه إلى غرفة مكتبه، واستلقي على الكنبة، وغطى وجهه بمنديل لكيلا يزعجه الذباب وامتدت في ذهنه أفكار ذابلة متناقلة عن نفس الشيء كقافلة عربات طويلة في مساء خريف مطر، فاستولت عليه حالة قهر وخمول وخيل إليه أنه مذب في حق ناديجدا فيودوروفنا وزوجها، وأن زوجها مات بسببه خيل إليه أنه مذب في حق حياته هو التي أفسدها، في حق عالم الأفكار السامية والمعارف والعمل، فبدا له هذا العالم الرائع ممكناً وموجوداً ليس هنا، على شاطئ البحر، حيث يتسكع الأتراك الجوعى والأبخازيون الكسالى، بل هناك، في الشمال، حيث الأوبرا والمسارح والصحف وكل صور النشاط الذهني لا يمكن للإنسان أن يكون شريفاً، ذكياً، سامياً وطاهراً إلا هناك وليس هنا واتهم نفسه بأنه ليست لديه مثل عليا وفكرة موجّهة في الحياة، رغم أنه كان يفهم ذلك الآن بصورة غامضة فمنذ عامين، عندما أحب ناديجدا فيودوروفنا، بدا له أنه ما إن يتحد بها ويسافر معها إلى القوقاز حتى ينجو من وضاعة الحياة وخوائها؛ وها هو ذا الآن أيضاً واثق من أنه ما إن يهجر ناديجدا فيودوروفنا ويرحل إلى بطرسبرج حتى يحصل على كل ما يحتاج إليه.



- الهرب - دمدم وقد جلس وأخذ يقضم أظفاره - الهرب.

وتصور في خياله كيف يستقل السفينة، ثم يفطر، ويشرب البيرة المثلجة يتحدث على السطح مع السيدات، ثم يستقل القطار في سيفاستوبول ويرحل مرحباً أيتها الحرية وتمرق المحطات الواحدة تلو الأخرى، ويصبح الهواء أكثر برودة وصلابة، وها هي ذي أشجار البتولا والشوح، ها هي ذي كورسك، وموسكو وفي المقاصف حساء الكرنب، وضأن بالعصيدة، وسمك الحفش، والبيرة، وباختصار ليست تلك النواحي الآسيوية، بل روسيا، روسيا الحقيقية والمسافرون في القطار يتحدثون عن التجارة والمطربين الجدد، وعن الميول الفرنسية الروسية وفي كل مكان تحس بالحياة المثقفة، المهدبة، الحية، النشطة بسرعة، وبسرعة وها هو ذا أخيراً شارع نيفسكى، وشارع البحر الكبير، وهاهي ذي حارة كوفنسكى، حيث كان يعيش مع الطلبة في وقت ما، وها هي ذي السماء الرمادية الحبيبية، ورذاذ المطر، والحوزية المبتلون.

وصاح أحد ما في الغرفة المجاورة: إيفان أندريتش؟ هل أنتم هنا؟ فأجاب لايفسكى: - أنا هنا ماذا تريد؟ - أوراق.

نهض لايفسكى بكسل، وبدوار في رأسه، ومضى إلى الغرفة المجاورة وهو يتنأب ويقرقع بالششبش وعند النافذة المفتوحة وقف



في الشارع أحد زملائه الموظفين من الشبان وهو يرتب على حافة
النافذة أوراقاً رسمية.

لحظة يا عزيزي قال لايفسكى بنعومة وذهب ليبحث عن المحبرة
،وعندما عاد إلى النافذة وقع على الأوراق دون أن يقرأها وقال حر
- نعم هل ستأتون اليوم إلى العمل؟.

لا أعتقد متعب قليلاً قل يا عزيزي لشيشكوفسكى إنني سأمر
عليه بعد الغداء.

انصرف الموظف واستلقى لايفسكى من جديد على الكنبه في
غرفة مكتبة وأخذ يفكر: إذن، ينبغي أن أزن جميع الأمور وأتدبرها
قبل أن أرحل ينبغي أن أسدد ديوني أنا مدين بحوالي ألفي روبل
وليس لدى نقود بالطبع ليس هذا مهما سأدفع الآن جزءاً كيفما كان،
والباقي أرسله بعد ذلك من بطرسبرج المهم ناديجدا فيودورفنا قبل
كل شيء ينبغي أن نستوضح علاقاتنا نعم وبعد فترة قصيرة فكر:
أليس من الأفضل أن أذهب إلى صامويلنكو للتشاور؟.

وقال في نفسه: من الممكن أن أذهب، ولكن أي فائدة من ذلك؟
سأحدثه مرة أخرى بلا مناسبة عن غرفة النوم، وعن النساء، وعمما
هو شريف وغير شريف يا للشيطان، أية أحاديث يمكن أن تكون عما



هو شريف وغير شريف إذا كان من الضروري إنقاذ حياتي بسرعة إذا كنت أختنق في هذا السجن اللعين وأقضى على نفسي؟ على في النهاية أن أفهم أن الاستمرار في حياة كحياتي وضاعة وقسوة يتضاءل أمامها كل شيء آخر ينبغي أن أهرب دمدم وهو يجلس أن أهرب.

أدخل منظر الشاطي المقفر، والقيظ المحرق، ورتابة الجبال المملعة بغلالة ضبابية ليلية، والمتشابهة والصامتة أبداً، والوحيدة أبداً، على نفس لايفسكى الوحشة، وخيل إليه أنها تخدره وتسرقه وربما كان ذكياً جداً، موهوباً وشريفاً بدرجة رائعة، وربما لو لم تحصره الجبال والبحر من جميع الجهات لأصبح شخصية محلية ممتازة أو رجل دولة وخطيباً أو كاتباً صحفياً، أو مناظلاً من المتحمسين الغيورين من پدرى وإذا كان الأمر كذلك فأليس من الغباء أن تناقش ما إذا كان عملاً شريفاً أم غير شريف إذا ما قام إنسان موهوب أو نافع، كالموسيقار أو المصور مثلاً، بكسر جدار السجن وخداع حراسه كي يهرب من الأسر؟ كل شيء شريف بالنسبة لإنسان في وضع كهذا.

في الساعة الثانية جلس لايفسكى وناديچدا فيودورفنا إلى مائدة الغداء وعندما قدمت لهما الطاهية حساء أرز بالطماطم قال لايفسكى:
- كل يوم نفس الشيء لماذا لا تطهون حساء كرنب؟ لا يوجد



كرب غريبة عند صامويلنكو يطهون حساء كرب، وعند ماريا قسطنطينوفنا حساء كرب، أنا الوحيد الذي يجب عليه لسبب ما أن يأكل هذا السائل المائع المسكر لا يصح هذا يا عزيزتي.

ومثلما لدى الغالبية العظمى من الأزواج لم يكن أي غداء لدى لايفسكى وناديجدا فيودورفنا قبلاً يخلو من النزوات والمشاحنات، ولكن منذ أن قرر لايفسكى أنه لم يعد يجبها فقد حرص على أن يتنازل أمامها في كل أمر، وكان يخاطبها بنعومة وأدب، وبيتسم ويناديهما عزيزتي وقال وهو بيتسم: هذا الحساء يشبه بمذاقه العرق سوس وأجبر نفسه على أن يبدو بشوشاً ولكنه لم يصبر فقال لا أحد عندنا يراعي شئون البيت إذا كنت مريضة إلى هذه الدرجة أو مشغولة بالقراءة فليكن، سأتولى أنا شئون المطبخ وكانت قبلاً قد ترد عليه: تولها أنت كما يبدو تريد أن تجعل منى طاهية أما الآن فقد نظرت إليه فقط بتهيب، وتضرج وجهها.

فسألها برقة: حسناً، كيف حالك اليوم؟ اليوم لا بأس فقط ضعف بسيط يجب أن تحافظي على نفسك يا عزيزتي أنا خائف عليك جداً.

كانت ناديجدا فيودورفنا مريضة بشيء ما وقال صامويلنكو إن عندها حمى متقطعة وأخذ يطعمها الكينا أما الطبيب الآخر، والمدعو أو ستيموفيتش، وهو رجل طويل القامة، نحيف، منعزل عن



الناس، يجلس نهاراً في البيت ويخرج مساءً ويتجول على الكورنيش بهدوء عاقداً يديه خلفه وماداً عصا بطول ظهره ويسعل، فقد وجد لديها مرضاً نسائياً ووصف لها كمادات ساخنة وفي السابق، عندما كان لايفسكي يحب ناديجدا فيودوروفنا، كان مرضها يثير شفقتة وخوفه، أما الآن فكان يرى الكذب حتى في مرضها فالوجه الأصفر النعسان، والنظرات الذابلة والتثاؤب، التي كانت تطراً على ناديجدا فيودوروفنا، بعد نوبات الحمى، وتدثرها أثناء النوبة بالحرام بحيث تبدو أكثر شبهاً بصبي منها بامرأة، واختناق الجو في غرفتها ورائحتها غير الطيبة كل ذلك كان في رأيه محطماً للأوهام ومضاداً للحب والزواج.

وكان الطبق الثاني الذي قدم إليه هو سبانخ بالبيض المسلوق، أما ناديجدا فيودوروفنا فقدم إليها، كمريضة، مهلبية فواكه مع اللبن وعندما لمست المهلبية بالملعقة في البداية بوجه مهموم، ثم أخذت تتناولها بكسل وتبلعها باللبن فيسمع لايفسكي بلغاتها، تملكته كراهية شديدة حتى إنه أحس بحك في رأسه كان يعي أن مثل هذا الشعور يمكن أن يكون مهيناً حتى تجاه كلب، إلا أنه لم يكن مستاء من نفسه بل من ناديجدا فيودوروفنا لأنها هي التي أثارت فيه هذا الشعور، وأدرك السبب الذي يدفع بالعشاق أحياناً إلى قتل عشيقاتهم وما كان هو



بالتبع ليقتل، ولكن لو أنه أصبح في مكان محلف لبراً القاتل Merci يا عزيزتي يقال بعد الغداء وقبل نادي جدا فيودوروفنا في جبينها .

وعندما دخل غرفة مكتبه ظل يذرعها من ركن لركن حوالي خمس دقائق، وهو يتطلع بطرف عينه إلى الحذاء الطويل، ثم جلس على الكنبه ودمدم: الهرب، الهرب استيضاح علاقاتنا، ثم الهرب .

استلقي على الكنبه وتذكر من جديد أن زوج نادي جدا فيودوروفنا قد مات ربما بسببه .

وأخذ يقنع نفسه وهو مستلق رافعاً ساقيه لكي يرتدي الحذاء الطويل: من الغباء تحميل إنسان الذنب لأنه أحب أو لم يعد يحب الحب والكرهية لا يخضعان لسلطاننا أما بخصوص زوجها فربما أكون، بصورة غير مباشرة، أحد أسباب موته، ولكن هل أنا مذنب في أنني أحببت زوجته وهي أحببتني؟

ثم نهض وتناول عمرته، وخرج متوجها إلى زميله شيشكوفسكي الذي كان الموظفون يجتمعون عنده يومياً للعب الورق وتناول البيرة المتلجة .

وفكر لايفسكي وهو سائر في الطريق: إنني أشبه هملت في ترددى كم كان شكسبير على حق في ملاحظته أوه كم كان على حق .

لكي يتجنب الدكتور صامويلنكو الملل، واستجابة منه لحاجة



الوافدين الجدد والعزاب، الذين لم يكن لديهم مكان يتغدون فيه لعدم وجود فنادق في المدينة، فقد فتح في بيته شيئاً أشبه بالتابل دوت وفي الوقت الذي نروى عنه كان يتناول الطعام لديه شخصان فقط: عالم الحيوان الشاب فون كورين، الذي كان يأتي صيفاً إلى البحر الأسود لدراسة علم أجنة قناديل البحر، والشماس بوبيدوف، الذي تخرج حديثاً من المعهد الديني وأرسل إلى هذه المدينة الصغيرة في مهمة ليتولى أعمال الشماس العجوز المسافر للعلاج وكان كل منهما يدفع اثني عشر روبلاً في الشهر مقابل الغداء والعشاء، وأخذ صامويلنكو منهما عهداً بأنهما سيجيئان للغداء في الساعة الثانية دون تأخير.

وفي العادة كان فون كورين يأتي أولاً يجلس صامتاً في غرفة الجلوس ويتناول ألبوماً من فوق الطاولة ويتفحص باهتمام الصور الباهته لرجال ما غير معروفين بسرراويل عريضة وقبعات أسطوانية وسيدات بتورات مبطنه بالأسلاك وقلنسوات ولم يكن صامويلنكو يذكر إلا أسماء القليلين منهم، أما أولئك الذين نسيهم فيقول عنهم متتهداً رجل رائع، نادر الذكاء وبعد أن يفرغ فون كورين من الألبوم يتناول مسدساً من الرف، ويزر عينه اليسرى ويسدده طويلاً إلى صور الأمير فورونتسوف، أو يقف أمام المرأة ويتأمل وجهه الأسمر



وجبينه العريض وشعره الأسود المجعد كشعر الزنجي، وقميصه المصنوع من قماش شيت كابي اللون بأزهار كبيرة، والذي يشبه سجادة عجمية، وحزامه الجلدي العريض الذي يحل محل الصديري وكان تأمل النفس يجلب له متعة لا تكاد تقل عن متعة وجبة طعام تقدم في وقت معين وبسعر محدد.

تفحص الألبوم أو المسدس ذى الحلية الثمينة كان في غاية الرضا عن وجهه، وعن لحيته الجميلة المقصوفة، وعن كتفيه العريضتين اللتين كانتا دليلاً واضحاً على صحته الجيدة وبنائه القوي وكان راضياً عن بدلته الأنيقة ابتداء برابطة العنق المختارة حسب لون القميص، وانتهاء بالحذاء الأصفر.

وبينما هو يتفحص الألبوم أو يقف أمام المرآة يسعى صامويلنكو في هذه الأثناء في المطبخ أو بجواره، في المدخل بدون سترة وصديري، عريان الصدر، منفعلاً والعرق يتصبب منه، ويدور حول الطاوات وهو يعد السلاطة أو صلصة ما، أو يقطع اللحم والخيار والبصل لحساء الأكروشكا، وفي الوقت نفسه يحملق بعينين جاحظتين غاضبتين في جندي المراسلة الذي يعاونه ويلوح له مهدداً تارة بالسكين وتارة بالملقعة ويأمره: هات الخل لا، ليس الخل بل الزيت ويصيح فيه ويدق بقدميه - إلى أين يا حيوان؟



فيقول الجندي المأخوذ بصوت رفيع متحشرج لأحضر الزيت يا صاحب المعالي.

- بسرعة إنه في الصوان وقل لداريا أن تضع بعض الشبت في برطمان الخيار الشبت غلط القشدة يا مسطول وإلا سقط فيها الذباب.

وبدا أن البيت كله يئنز من صراخه وقبل أن تبلغ الساعة الثانية بعشر أو خمس عشرة دقيقة يأتي الشمس، وهو شاب، في حوالي الثانية والعشرين، نحيل، طويل الشعر، بلا لحية، وبشارب لا يكاد يلحظ وعندما يدخل غرفة الجلوس يرسم علامة الصليب في اتجاه الأيقونة، ويبتسم، ويمد يده إلى فون كورين فيرد عالم الحيوان بيروود.

مرحباً أين كنت؟ في المرفأ كنت اصطاد السمك مفهوم طبعاً يبدو لي أيها الشمس أنك لن تزاول عملاً أبداً فيقول الشمس وهو يبتسم ويدس يديه في جيبي قفطانه الأبيض العميقين لغاية: ولم لا؟ العمل ليس دباً لن يهرب إلى الغابة فينتهد عالم الحيوان لا يوجد من يؤدبك وتمر خمس عشرة أو عشرون دقيقة أخرى دون أن يدعوها أحد إلى الغداء، ولا يزال يسمع وقع حذاء الجندي وهو يجري من المدخل إلى المطبخ وبالعكس، وبينما صامويلنكو يصيح: ضعه على الطاولة إلى أين تمده؟ اغسله أولاً ويبدأ الشمس وفون كورين، وقد شعرا بالجوع، في دق الأرض بكعوبها، معربين بذلك عن نفاذ صبرهما كالمشاهدين



في أعلى المسرح وأخيراً يفتح الباب ويعلن الجندي المعذب: الأكل جاهز وفي غرفة الطعام يستقبلهم صامويلنكو، محمراً، متفصداً عرقاً بسبب جو المطبخ الخانق، وغاضباً وينظر إليهما بغل، ثم يرفع غطاء وعاء الحساء والرعب يكسو وجهه، ويصب لكل منهما طبقاً، وبعد أن يتأكد أنهما يأكلان بشهية وأن الطعام يعجبهما، عندها فقط يتنفس الصعداء ويجلس في فوتيله العميق ويصبح وجهه ساهماً، مدهناً ويصب لنفسه على مهل كأساً من الفودكا ويقول في صحة الجيل الجديد وبعد حديثه اليوم مع لايفسكى ظل صامويلنكو طوال الوقت من الصباح إلى الغداء، ورغم مزاجه الرائع، يشعر في قرارة نفسه بانقباض مبهم كان يشفق على لايفسكى ويرغب في مساعدته وبعد أن شرب قبل الحساء كأس فودكا تنهد وقال: رأيت اليوم فانيا لايفسكى مسكين، شقى في حياته الناحية المادية لديه لا تبشر بخير، والأهم من ذلك أن الناحية السيكلوجية سحقتة إنني أشفق على هذا الشاب فقال فون كورين: هذا هو من لا أشفق عليه لو أن هذا الرجل اللطيف أوشك على الغرق لدفعته بالعصا: اغرق يا أخي، اغرق.

- غير صحيح ما كنت لتفعل ذلك فهز عالم الحيوان كتفيه وقال ولماذا تظن ذلك؟ أنا أيضاً، مثلك، قادر على عمل الخير فسأل الشماس وهل إغراق إنسان عمل خير؟ وضحك إذا كان لايفسكى؟



نعم فقال صامويلنكو رغبة منه في تغيير مجرى الحديث: يبدو أن الأكروشكا ينقصها شيء ما فمضى فون كورين يقول: لايفسكى بلا شك ضار وخطر على المجتمع مثل ميكروب الكوليرا وإغراقه خدمة.

- ليس مما يشرفك أن تقول هذا عن قريب لك خبرني، لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟.

- لا تقل كلاماً فارغاً يا دكتور إن كراهية ميكروب أو احتقاره حماقة، أما أن نعتبر من الأقربين كل من هب ودب دون تمييز ومهما كان الأمر، فكلا، أشكركم، إن هذا يعني ألا نناقش ونفكر، معناه التخلي عن الموقف العادل تجاه الناس أي نفض اليدين باختصار إنني أعتبر لايفسكى صاحبك وغداً ولا أخفي ذلك، وأنظر إليه كوغد بكل ما في من استقامة أما أنت فتعتبره من أقربائك، حسناً فلتعانهقه ولتقبله تعتبره من الأقربين، وهذا معناه أنك تنظر إليه كما تنظر إلى وإلى الشمس، أي لا نظرة أنك عديم الاكتراث بالجميع على حد سواء.

فدمدم صامويلنكو وهو يقطب مشمئزاً تسمى الإنسان وغداً هذا معيب إلى درجة لا أستطيع أن أصفها لك فاستطرد فون كورين:

- الناس تحاكم بتصرفاتها فلتحكم أنت يا شماس سوف أتحدث إليك فنشاط السيد لايفسكى مبسوط أمامك بوضوح كمخطوط



صيني طويل، وبوسعك أن تقرأه من أوله إلى آخره فما الذي فعله خلال عامين من إقامته هنا؟ فلنعد ذلك على الأصابع أولاً: علم أهل المدينة لعبة الفنت ولم تكن هذه اللعبة معروفة هنا منذ سنتين، أما الآن فالجميع، حتى النساء والمراهقون، يلعبون الفنت من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل وثانياً: علم البرجوازيين الصغار شرب البيرة، التي لم تكن معروفة هنا أيضاً والبرجوازيون مدينون له كذلك بمعرفة شتى أنواع الفودكا، حتى إنهم يستطيعون الآن بأعين مغمضة أن يميزوا فودكا كوشيليف عن فودكا سميرنوف رقم واحد وعشرين وثالثاً: كانوا هنا سابقاً يعاشرون زوجات الآخرين سراً، لنفس الاعتبار التي بسببها يسرق اللصوص سراً لاعلانية، فقد كان الزنى يعد شيئاً يخجل الناس من عرضه للفرجة العامة أما لايفسكى فكان رائداً في هذا الصدد: فهو يعاشر زوجة رجل آخر بصورة سافرة ورابعاً أكل فون كورين حساءه بسرعة وأعطى الطبق الفارغ للجندي ومضى يقول مخاطباً الشمساس: لقد فهمت لايفسكي من الشهر الأول لتعارفنا جئنا إلى هنا في وقت واحد والناس من أمثاله يحبون جداً التصادق والتقارب والتضامن وما إلى ذلك، لأنهم دائماً بحاجة إلى صحبة للعب الفنت وللشراب والطعام، وفوق ذلك فهم ثرثارون وبحاجة إلى مستمعين وتصادقنا، أعني أنه كان يتسكع عندي كل يوم، فيعوقني عن العمل ويتصارع معي بخصوص خليلته



ومنذ الوهلة الأولى أذهلني زيفه إلى درجة أثارته في الغثيان وكصديق أنبته: لماذا يشرب كثيراً، ولماذا ينفق أكثر من دخله ويستدين، ولماذا لا يفعل ولا يقرأ شيئاً، ولماذا هو ضعيف الثقافة إلى هذا الحد وقليل المعرفة، فكان يرد على كل أسئلتني بابتسامة مريرة ويتهدد ويقول: أنا فاشل، أنا إنسان ضائع أو ماذا تريد منا يا أبتاه، نحن حطام نظام القنانة؟، أو إننا نقرض أو يشرع في النقوه بهراء طويل عن أونيجين وبتشورين وقابيل بايرون وبازاروف، الذين كان يقول عنهم: إنهم آباؤنا جسداً وروحا وكأنما يريد منا أن نفهم أنه ليس المذنب في أن المظاريف الرسمية تتكدس بالأسابيع دون أن يفتحها، وفي أنه يشرب ويسكر الآخرين، بل المذنب في ذلك أونيجين وبتشورين وتورجينيف الذي خلق نموذج الإنسان الفاشل الضائع وكما يرى، فإن سبب الانحلال الفائق وسوء السلوك ليس فيه نفسه، بل في مكان ما خارجه، في الفضاء وعلاوة على ذلك ويا لها من حيلة بارعة فليس هو وحده المنحل والمزيف والوضيع، بل نحن نحن جيل الثمانينيات، ونحن ذرية عصر القنانة، الذابلة العصبية يفجيني أونيجين بطل رواية شعرية للشاعر الروسي بوشكين تحمل نفس الاسم.

وبتشورين بطل رواية بطل من هذا الزمان للشاعر الروسي، خليفة بوشكين، ميخائيل اليرمنتوف وكلا البطلين نموذج للجيل الضائع في



أوائل القرن التاسع عشر في ظروف حكم القيصر المطلق وقابيل
بطل قصيدة مسرحية تحمل نفس الاسم للشاعر البريطاني اللورد
بايرون أما بازاروف فبطل رواية الكاتب الروسي إيفان تورجينيف.



الآباء والأبناء

نحن شوهتنا الحضارة وباختصار فعلينا أن نفهم أن رجلاً عظيماً مثل لايفسكى عظيم حتى في سقوطه؛ وأن انحلاله، وضحاياه ودنائه تعتبر ظاهرة تاريخية طبيعية تملئها الضرورة، وأن الأسباب هنا عالمية، عفوية، وأنه علينا أن نعلق أمامه قنديلاً لأنه ضحية نحس الزمن والاتجاهات والوراثة وما إلى ذلك وكان الموظفون والسيدات جميعاً يصغون إليه يتأوهون ويتهدون، أما أنا فلم أستطع لفترة طويلة أن أفهم مع من أتعامل مع عياب ساخر أم مع نصاب بارع؟ إن هذه الأنماط من أمثاله الذين يبدون من الخارج مثقفين، مهذبين قليلاً والذين يتحدثون كثيراً عن نبلمهم، يجيدون التظاهر بأنهم شخصيات معقدة للغاية.

فانفجر صامويلنكو: اسكت لن أسمح في حضوري بأن يتحدث أحد بسوء عن رجل من أنبل الناس فقال فون كورين ببرود: لا تقاطعني يا ألكسندر دافيديتش سأفرغ من كلامي حالاً إن لايفسكى كيان غير معقد أبداً وإليك إطاره الأخلاقي: في الصباح الشبشب والاستحمام



والقهوة، ثم بعد ذلك وحتى الغداء الشبشب والترييض والأحاديث، في الساعة الثانية الشبشب والغداء والخمر، وفي الخامسة الاستحمام والشاي والخمر، ثم الفنت والكذب، وفي العاشرة العشاء والخمر، وبعد منتصف الليل النوم وجود محصور في هذا البرنامج الضيق كالبيضة في القشرة وسواء كان يسير، أو يجلس، أو يفضب، أو يكتب، أو يفرح فكل شيء يؤول إلى الخمر والورق والشبشب والمرأة أصبح عاشقاً وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره وعندما كان طالباً بالصف الأول الجامعي عاشر سيدة، كان لها تأثير مفيد عليه.

ويدين لها بثقافته الموسيقية وفي الصف الثاني حرر بالنقود بغياً من بيت دعارة ورفعها إلى مستواه، أي اتخذها خلية، أما هي فعاشت معه نصف عام وهربت لتعود ثانية إلى صاحبة البيت، وسبب له هذا الهرب كثيراً من المعاناة الروحية ويا للحسرة، لقد عاني إلى درجة أنه اضطر إلى ترك الجامعة والعيش سنتين بلا عمل في بيت أهله ولكن ذلك كان مفيداً فقد عاشر في البيت أرملة نصحته بأن يترك كلية الحقوق ويلتحق بكلية الآداب وهذا ما فعله وبعد أن تخرج من الكلية أحب بشغف صاحبه الحالية ما اسمها؟ تلك المتزوجة، وكان عليه أن يهرب بها إلى هنا، إلى القوقاز كأنما سعيا وراء المثل



العليا واليوم أو غداً سيكف عن حبها ويهرب عائداً إلى بطرسبرج،
وأيضاً سعياً وراء المثل العليا.

فدمدم صامويلنكو وهو يحدق بغل في عالم الحيوان: ومن أين
لك أن تعرف؟ كل أحسن.

وقدم لهم سمك البورى المسلوق بالصلصة البولندية ووضع
صامويلنكو لكل من نزلييه سمكة كاملة وصب عليها الصلصة بنفسه
ومرت دقيقتان في صمت ثم قال الشماس: - المرأة تلعب دوراً
جوهرياً في حياة كل إنسان ولا حيلة لنا في ذلك نعم، ولكن إلى
أي مدى؟ المرأة لدى كل منا أم وأخت وزوجة، وصديق، أما لدى
لايفسكى فهي كل شيء، وفي الوقت نفسه هي عشيقة فقط فهي،
أي معاشرتها، سعادة حياته وغرضه إنه مرح، حزين، ضجر، خائب
الأمل بسبب المرأة فإذا سئم الحياة فالمرأة هي المذنبية، وإذا أشرق
فجر حياة جديدة، وظهرت المثل العليا المفقودة، فلنفتش هنا أيضاً
عن المرأة ولا ترضيه إلا الكتابات أو الصور التي توجد فيها امرأة
وعصرنا في رأيه سيئ وأسوأ من الأربعينيات أو الستينيات فقط
لأننا لا نعرف كيف نستسلم لنشوة الغرام وشهوته إلى درجة الذهول
ويبدو أن لدى طالبي اللذة هؤلاء تنوعاً خاصاً في المخ مثل الورم
اللحمي الخبيث، سحق مخهم ويتحكم في كل سيكولوجيتهم فلتراقب



لايفسكى عندما يجلس في أحد المجتمعات وتلاحظ أنه عندما تثير أمامه قضية ما عامة، حول الخلية مثلاً أو الغريزة، فستجده يجلس بعيداً، صامتاً ولا يسمع ومنظره ساهم، خائب الأمل، لا شيء يثير اهتمامه، وكل شيء وضع وتافه ولكن ما إن تتحدث عن الإناث والذكور، عن أن أنثى العنكبوت مثلاً تأكل الذكر بعد عملية الإخصاب، حتى تلمع عيناه بالفضول، ويتهلل وجهه، وباختصار يستيقظ فيه الإنسان إن كل أفكاره، مهما كانت نبيلة وسامية أو لا مبالية، لها دائماً نقطة التقاء مشتركة فإذا سرت معه في الشارع وصادفكما حمار مثلاً قل لي لو سمحت يسألك لايفسكى ماذا يحدث لو جامع الجمل حمارة؟ وأحلامه هل روي لك أحلامه؟ إنها رائعة فمرة يحلم بأنهم يزوجونه من القمر، ومرة يستدعونه إلى الشرطة ويأمرونه هناك بأن يتزوج من قيثارة.

وقهقه الشمساس بضحكات رنانة، أما صامويلنكو فقد عبس وقطب وجهه بغضب لكيلا يضحك، ولكنه لم يتمالك نفسه فقهقه.

وقال وهو يمسح دموعه كذاب على طول الخط أي والله كذاب؟ كان الشمساس ضحوكاً جداً، يضحك لأي سبب تافه إلى حد الألم في الجنب، إلى حد الإغماء وبدا كأنما لم يكن يحب الاختلاط بالنساء لأن فيهم جوانب مضحكة ولأن من الممكن إطلاق أسماء مضحكة



عليهم وقد سمى صامويلنكو بالعنكبوت وجندي مراسلته بذكر البط، وتملكه الإعجاب عندما وصف فون كورين كلاً من لايفسكى وناديغدا فيودورفنا ذات مرة بالنسانيس وكان يحدق في الوجوه بنهم ويصغي دون أن تطرف عيناه، ويبدو بوضوح كيف تمتلئ عيناه بالضحك، وكيف يتوتر وجهه في انتظار اللحظة المناسبة لينفلت مطلقاً عنان الضحكات.

ومضى عالم الحيوان يقول بينما حملق فيه الشمس بعينين نهمتين في انتظار كلمات مضحكه إنه نمط فاسق وفساد ومن النادر أن تجد مثل هذا التافه إنه ذابل الجسد، خائر، عجوز، أما ذهنه فلا يتميز عن ذهن تاجرة سمينة لا تفعل شيئاً سوى أن تأكل وتشرب وتنام على فراش من الريش وتتخذ من حوزيها عشيقاً وقهقه الشمس من جديد فقال فون كورين:

- لا تضحك يا شماس، فهذه، في النهاية، حماقة منك ثم انتظر حتى كف الشمس عن الضحك واستطرد ما كنت لألتفت إلى تفاهته، ولكنك تجاهلته، لو لم يكن ضاراً و خطراً إلى هذا الحد وضرره يتجلى قبل كل شيء في أنه يحوز على إعجاب النساء، وبالتالي فهناك احتمال بأن تكون له ذرية، أي أن يهدي العالم دسنة من آل لايفسكى، ضعفاء وفسادين مثله وثانياً فهو معد إلى أقصى درجة ولقد سبق أن تحدثت لك عن لعبة الفن والبيرة ولن يمضي عام أو عامان حتى يكون قد



غزا شاطئ القوقاز كله وأنت تعلم إلى أي مدى تثق الجماهير، خاصة شريحتها المتوسطة، في المثقفين وخريجي الجامعات، وفي طريقة السلوك الراقية وبلاغة الحديث فمهما ارتكب لايفسكى من دناءة فإن الجميع يتقون في أن ذلك حسن، وأن هذا هو ما ينبغي، لأنه شخص مثقف، ليبرالي وجامعي وعلاوة على ذلك فهو إنسان فاضل، ضائع، مريض بالعصاب، ضحية الزمن، وهذا يعني أن كل شيء مباح بالنسبة له وهو فتى لطيف، وشخص طيب القلب، وكم يعطف على ضعف البشر وهو سلس القياد، متساهل، مطواع، غير متكبر، يمكن معه أن تشرب وتغتاب الناس، وتثرثر الجماهير ميالة دائماً إلى التجسيد في الدين والأخلاق، وهي تحب أكثر شيء تلك الآلهة التي تتميز بنفس النواقص التي لديها هي فلتحكم بنفسك إلى أي مدى يمتد مجال عدواه وعلاوة على ذلك فهو ممثل لا بأس به ومنافق بارع ويعرف جيداً من أين تؤكل الكتف انظر إلى حيله وألاعيبه، ولو مثلاً إلى موقفه من الحضارة إنه لم يشم حتى رائحة الحضارة ومع ذلك يقول: آه، كم أفسدتنا الحضارة آه، كم أغبط أولئك المتوحشين، أبناء الطبيعة هؤلاء، الذين لا يعرفون الحضارة وهكذا فعلينا، كما ترى، أن نفهم أن حضرته كان في العهود الخوالي، من أشد المخلصين للحضارة، وكرس حياته لخدمتها، وسير كل أغوارها، لكنها أعيته، وخيبت أمله، وخدعته إنه كما ترى إذن فاوست، تولستوى الثاني أما



شوبنهاور وسبنسر فيستخف بهما كطفلين ويربت على كنفيهما بأبوة: حسناً، كيف الحال يا أخي سبنسر؟ وهو بالطبع لم يقرأ سبنسر، ولكن ما أطفه عندما يقول عن سيدته بسخرية خفيفة واستهانة: إنها قرأت سبنسر ويصغون إليه ولا يريد أحد أن يفهم أن هذا المهرج لا يحق له لا أن يذكر سبنسر بهذه النبرة فحسب، بل ولا حتى أن يقبل نعل حدائه إن تقويض أسس الحضارة، والأسماء الشهيرة، وهياكل الآخرين، وتلويتها بالقاذورات، والغمز نحوها بتهريج، فقط بغية تبرير وإخفاء الضعف الذاتي والبؤس الأخلاقي كل ذلك لا يصنعه إلا حيوان مغرور جدا ومنحط ودنى وقال صامويلنكو وهو ينظر هذه المرة إلى عالم الحيوان لا بغل، بل بنظرة مذنبية: أنا لا أعرف يا كوليا ما الذي تريده منه؟ إنه إنسان ككل الناس بالطبع لا يخلو من نواقص، ولكنه يقف على مستوى الأفكار الحديثة، ويخدم، ويعود بالفائدة على الوطن منذ عشر سنوات كان يعمل هنا وكيل عجوز رجل نادر الذكاء ولقد قال هذا الرجل فقاطعه عالم الحيوان: في، كفى تقول إنه يخدم فكيف يخدم؟ هل بمجيئه إلى هنا أصبحت الأمور أفضل والموظفون أكثر انضباطاً وأمانة وتادباً؟ بالعكس، فكل ما صنعه أنه صادق على فسادهم بسمعته كرجل مثقف، جامعي إنه لا يكون منضبطاً إلا في العشرين من كل شهر، عندما يتقاضى المرتب، أما في بقية الأيام فهو فقط يحك الأرض بشبشبه في البيت، ويسعى إلى أن يضفي على



نفسه تعبيراً، كأنما هو يقدم خدمة كبيرة للحكومة الروسية بمعيشتته في القوقاز لا يا ألكسندر دافيديتش، لا تدافع عنه فلست صادقاً من البداية حتى النهاية فلو كنت حقاً تحبه وتعتبره من أقربائك، لما كنت قبل كل شيء لامباليا تجاه نواقصه، ولما عاملته بتسامح، بل لحاولت من أجل مصلحته أن تقضى على ضرره ماذا تعني؟.

- أن تقضى على ضرره ولما كان مستحيلاً إصلاحه فإن القضاء على ضرره ممكن فقط بوسيلة واحدة ومر فون كورين بإصبعه أمام عنقه وأضاف قائلاً: أو ربما إغراقه فلمصلحة البشرية، ولمصلحته هو ينبغي القضاء على هؤلاء الناس من كل بد.

فدمدم صامويلنكو وهو ينهض وينظر بدهشة إلى وجه عالم الحيوان الهادي البارد: ماذا تقول؟ يا شماس، ماذا يقول؟ هل جننت؟ فقال فون كورين: أنا لا أصر على الحكم بالإعدام إذا ثبت أن الحكم بالإعدام شيء ضار فلتبتكروا شيئاً آخر القضاء على لايفسكي غير ممكن، حسناً، اعزلوه إذن، جردوه من شخصيته، أرسلوه إلى أعمال السخرة ماذا تقول؟ قال صامويلنكو بارتياح بالفلفل، بالفلفل صاح بصوت يائس عندما رأى الشماس يأكل القرع المحشو بدون فلفل ماذا تقول، أنت الرجل النادر الذكاء؟ نرسل صديقنا، الرجل الأبى، المثقف إلى أعمال السخرة إذا كان أبيضاً وقاوم، فليكبل بالقيود لم



يستطع صامويلنكو إزاء هذا أن ينطق بكلمة واحدة، بل حرك أصابعه فقط ونظر الشمس إلى وجهه المذهول، والمضحك حقاً، وقهقهه.

وقال عالم الحيوان: دعونا من الحديث عن ذلك ولكن تذكر شيئاً واحداً يا ألكسندر دافيديتش، تذكر أن البشرية البدائية كانت محصنة ضد أمثال لايفسكى بالصراع من أجل البقاء وبالانتخاب الطبيعي أما الآن فقد أضعفت ثقافتنا إلى حد كبير الصراع والانتخاب، وعلينا أن نهتم نحن بالقضاء على الضعفاء والفاستدين، وإلا فإن أمثال لايفسكى، عندما يتكاثرون، فسيقضون على الحضارة وستنفسخ البشرية تماماً وسنكون نحن المذنبين فقال صامويلنكو: إذا كان علينا أن نفرق الناس ونشققهم، فلتذهب حضارتك إلى الشيطان، ولتذهب البشرية إلى الشيطان إلى الشيطان اسمع ما سأقوله لك: أنت عالم كبير، رجل نادر الذكاء، ومفخرة للوطن، لكن الألمان أفسدوك نعم الألمان الألمان.

منذ أن غادر صامويلنكو مدينة دربت التي درس فيها الطب لم ير الألمان إلا نادراً، ولم يقرأ كتاباً ألمانياً واحداً، ولكن كل الشر في السياسة والعلم كان في رأيه صادراً عن الألمان ولم يكن بوسعهم أن يفسر من أين جاء بهذا الرأي، ولكنه كان متمسكاً به بشدة وردد مرة أخرى: - نعم، الألمان هيا نتناول الشاي.

نهضوا ثلاثتهم وارتدوا قبعاتهم وخرجوا إلى الحديقة وجلسوا



هناك في ظل أشجار القيقب والكمثرى والقسطل الشاحبة جلس عالم الحيوان والشماس على أريكة بجوار الطاولة، أما صامويلنكو فجلس في مقعد مجدول بمسند عريض مائل وقدم لهم جندي المراسلة الشاي والمربي وزجاجة عصير مركز.

كانت الحرارة شديدة، حوالي ثلاثين درجة في الظل وسكن الهواء القاطئ وجمد، وتدلّت خيوط العنكبوت المنسدلة من القسطل إلى الأرض بضعف ولم تتحرك وتناول الشماس القيثارة الموضوعة هناك دائماً على الأرض بجوار الطاولة، وضبط أوتارها وغني بصوت خافت رفيع صبيان المعهد الديني وقفوا بباب الحانة ولكنه صمت على الفور من شدة الحر، ومسح العرق من جبينه ونظر إلى أعلى، إلى السماء الزرقاء الساخنة وكان النوم يداعب صامويلنكو فمن الحر والهدوء ونعاس ما بعد الغداء اللذيذ الذي شمل كل أطرافه بسرعة أحس صامويلنكو بالضعف والسكر تدلت ذراعاه، وضاحت عيناه، ومال رأسه على صدره وتطلع إلى فون كورين والشماس بتأثر داعم ودمدم: الجيل الجديد نجم العلم وكوكب الكنيسة ربما صرت يا صاحب القفطان الطويل مطراناً، إذن سيكون على أن أقبل يدك لا قدر الله لايهم ليوفقك الله.

وسرعان ما تردد شخير وشرب فون كورين والشماس شايا



وخرجنا إلى الشارع وسأل عالم الحيوان ستذهب ثانية إلى المرفأ لتصيد السمك؟ كلا، الدنيا حر تعال معي ستساعدني في تغليف الطرد ونسخ بعض الأشياء وبالمناسبة سنتحدث عما يمكن أن تشغل به نفسك ينبغي أن تعمل يا شماس لا يصح هكذا فقال الشماس:

كلامك صحيح ومنطقي، ولكن ما يغفر لي كسلي هو ظروف حياتي الحالية فأنت تعلم أن الوضع غير المحدد يساعد كثيراً على الخمول الله وحده يعلم هل أرسلوني إلى هنا مؤقتاً أم بصفة دائمة أنا أعيش هنا في المجهول، أما زوجتي البائسة فتقيم عند أبيها وتشعر بالحنين وأصارك بأن الحر قد سيح مخين فقال عالم الحيوان: كل هذا هراء الحر يمكن التعود عليه، وبدون زوجتك يمكن أن تتعود على الحياة دعك من الدلع ينبغي أن تسيطر على نفسك.

مضت ناديجدا فيودوروفنا صباحاً إلى البحر لتستحم، ومن خلفها سارت طاھيتها أولجا حاملة إبريقا وطستاً نحاسياً وملاءات وإسفنجة وكانت تقف في الميناء سفينتان غير معروفتين، بمداخن بيضاء قذرة، ويبدو أنهما سفينتا شحن أجنبيتان وسار على رصيف المرفأ رجال ما يرتدون ملابس بيضاء وأحذية بيضاء وهم يصيحون عالياً بالفرنسية، فيردون عليهم من السفينتين ودقت أجراس كنيسة المدينة بحماس.



وتذكرت ناديجدا فيودورفنا بارتياح: اليوم الأحد.

أحست أنها في صحة تامة، وكان مزاجها مرحاً وعيدياً وبدأت لنفسها لطيفة جداً في فستانها الجديد الفضفاض، المصنوع من الحرير الصيني الخشن، وفي قبعة كبيرة من القش كانت حوافها العريضة مطوية بقوة إلى الأذنين حتى بدا كأن وجهها يطل مباشرة من علبة وفكرت بأنه لا توجد في المدينة كلها سوى امرأة واحدة، شابة، جميلة، مثقفة، هي هذه المرأة، وأنها وحدها التي تستطيع أن ترتدي ثياباً رخيصة ولكنها أنيقة ومختارة بذوق فهذا الفستان مثلاً يساوي اثنين وعشرين روبلاً فقط، ومع ذلك كم يبدو لطيفاً وهي الوحيدة في المدينة التي يمكن أن تعجب الرجال، وما أكثرهم، ولذلك فعليهم جميعاً، شاءوا أم أبوا، أن يغبطوا لايفسكى.

وسرها أن لايفسكي في الآونة الأخيرة يعاملها ببرود وبأدب متحفظ، وأحياناً حتى بتهور وخشونة وكانت من قبل ترد على كل نزواته ونظرات احتقاره الباردة أو الغريبة، وغير المفهومة، بالدموع وبالتأنيب والتهديد بالرحيل عنه أو بقتل نفسها جوعاً، أما الآن فتتضرج رداً على ذلك، وتتنظر إليه بإحساس بالذنب وتبتهج لأنه لا يتودد إليها ولو أنه سبها أو هدها لكان ذلك أفضل وأكثر مدعاة للسرور، فهي تشعر بأنها مذنبية في حقه من جميع الوجوه بدا لها



أنها مذنبية، أولاً، في عدم تعاطفها مع أحلامه عن حياة العمل، التي من أجلها هجر بطرسبرج وجاء هنا إلى القوقاز، وكانت واثقة من أنه غاضب عليها في الفترة الأخيرة لهذا السبب بالذات وعندما توجهت إلى القوقاز خيل إليها أنها ستجد هنا من أول يوم ركناً آمناً على الشاطئ، وحديقة مريحة بظلال وعصافير وجداول، حيث يمكن غرس الزهور والخضروات، وتربية البط والدجاج، واستضافة الجيران ومعالجة الفلاحين الفقراء وتوزيع الكتب عليهم ولكن اتضح أن القوقاز جبال عارية وغابات ووديان هائلة، وأن عليك أن تختار طويلاً وتسعى وتبني، وليس هنا أي جيران، والحرارة شديدة، وقد يسطو عليك اللصوص ولم يكن لايفسكى متعجلاً في الحصول على قطعة أرض، وكانت هي سعيدة بذلك، وبدا كأنهما اتفقا معاً دون كلام ألا يذكرنا أبداً أي شيء عن حياة العمل وظنت أن صمته معناه أنه غاضب منها لأنها صامته.

وثانياً، فقد اشترت دون علمه مختلف الأشياء الصغيرة من متجر أشميانوف خلال عامين بما قيمته حوالي ثلاثمائة روبل كانت تشتري بكميات قليلة تارة منسوجات وتارة حرير، وتارة شمسية، ودون أن تلاحظ تراكم هذا الدين.

- اليوم سأخبره بذلك قررت بينها وبين نفسها وعلى الفور وجدت



أنه لن يكون مناسباً أن تحدث لايفسكى عن الديون وهو بهذا المزاج. وثالثاً، فقد استقبلت مرتين في غياب لايفسكى مفتش الشرطة كيريلين: مرة في الصباح عندما ذهب لايفسكى ليستحم، ومرة في منتصف الليل، عندما كان في الخارج يلعب الورق وإذ تذكرت ناديجدا فيودوروفنا ذلك تخرج وجهها والتفتت إلى الطاهية وكأنها تخشى أن تكون قد سمعت أفكارها لقد أدت الأيام الطويلة المملة، الحارة إلى درجة لا تطاق، والأمسيات الرائعة المضنية، والليالي الخائقة، وكل هذه الحياة، عندما لا تعرف من الصباح إلى المساء فيم تتفق الوقت الذي لا لزوم له، والأفكار المتسلطة بأنها أجمل وأصبي امرأة في المدينة، وأن شبابها يضيع هباء، وأن لايفسكى نفسه، شريف وذو عقيدة، ولكنه رتيب ودائماً يحك الأرض بشبشه ويقضم أظفاره ومحل بنزواته أدى كل ذلك إلى أن تملكها الرغبات شيئاً فشيئاً، وأصبحت تفكر كالمجنونة ليل نهار في شيء واحد لم تكن تحس في أنفاسها، ونظراتها، وفي نبرة صوتها وخطوتها سوى بالرغبة وأوحي هدير البحر إليها بأنها في حاجة إلى حب، وظلام المساء كذلك، والجبال وعندما بدأ كيريلين يغازلها لم يكن في وسعها، ولم تشأ ولم تستطع أن تقاوم، فاستسلمت له والآن ذكرتها السفينتان الأجنبيتان والرجال ذوو الملابس البيضاء لسبب ما بصالة كبيرة ورنت في



سمعها إلى جانب الأصوات الفرنسية أنغام الفالس فارتعش صدرها بفرحة لاسبب لها وأحست برغبة في الرقص والتحدث بالفرنسية.

وفكرت بفرح في أن خيانتها لا تنطوي على شيء رهيب فروحها لم تشارك في هذه الخيانة، بل ما زالت تحب لا يفسكى، ويتجلى ذلك في أنها تغار عليه وترثي له وتشعر بالشوق إليه إذا غاب عن البيت أما كيريلين فقد ظهر أنه لا شيء، فظ إلى حد ما، رغم أنه جميل، وقد قطعت علاقتها به ولن يتكرر هذا بعد ذلك ما فات مات، وليس لأحد شأن بذلك، ولو علم به لا يفسكى فلن يصدق كان على الشاطئ كشك استحمام واحد للنساء، أما الرجال فكانوا يستحمون في العراء وحينما دخلت ناديجدا فيودوروفنا الكشك وجدت هناك سيدة كبيرة السن، هي ماريا قسطنطينوفنا بيتو جوفنا، زوجة أحد الموظفين وابنتها التلميذة كاتيا التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها كانتا جالستين على الأريكة وتخلعان ملابسهما كانت ماريا قسطنطينوفنا امرأة طيبة، منبهرة ولبقة، وكانت تتكلم ببطء وحماس وحتى الثانية والثلاثين من عمرها كانت تعمل مربية أطفال، ثم تزوجت من الموظف بيتو جوفنا، وهو رجل صغير أصلع، يمشط شعره على صدغيه، ووديع جداً وحتى الآن ما زالت مولعة به، وتغار عليه، وتتضرج خجلاً لدي ذكر كلمة الحب، وتؤكد للجميع أنها سعيدة جداً.



- يا عزيزتى - قالت بانبهار عندما رأت ناديجدا فيودوروفنا، وأضفت على وجهها تعبيراً كان يسميه جميع معارفها لوزيا يا حبيبتي، كم هو لطيف أنك جئت سوف نستحم معاً، هذا ساحر ونزعت أولجا فستانها وقميصها بسرعة وأخذت تنزع ملابس سيدتها.

وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تتكلم من ملامسة جسد الطاهية العارية الخشن لجسدها: الطقس اليوم ليس حاراً كما بالأمس، أليس كذلك؟ كدت أموت أمس من الاختناق.

- أوه نعم يا عزيزتي أنا أيضاً كدت أختق هل تصدقين، بالأمس استحممت ثلاث مرات تصورى يا عزيزتى، ثلاث مرات حتى لقد قلق على نيكوديم ألكسندريتش.

أمن الممكن أن يكون الإنسان قبيحاً إلى هذا الحد؟ فكرت ناديجدا فيودوروفنا وهي تنظر إلى أولجا وعلى زوجة الموظف وتطلعت إلى كاتيا وفكرت: لا بأس بجسدها ثم قالت: زوجك نيكوديم ألكسندريتش لطيف جدا جدا أنا ببساطة مغرمة به فضحكت ماريا قسطنطينوفنا بتكلف: - هاهاها هذا ساحر؟ وعندما تجردت ناديجدا فيودوروفنا من ملابسها وانتها الرغبة في الطيران وخيل إليها أنها لو رفرت بذراعيها لارتفعت حتما محلقة ولاحظت بعد أن تعرت أن أولجا تنظر باشمئزاز إلى جسدها الأبيض كانت أولجا زوجة جندي شابة، تعيش



مع زوجها الشرعي، لذلك كانت تعتبر نفسها أفضل وأعلى منها وأحست ناديها فيودوروفنا أيضاً أن ماريًا قسطنطينوفنا وكاتيا لا تحترمانها وتخافان منها وكان هذا كرهاً، فقالت لكي تعلق من شأنها في أنظارهما: موسم الاصطياف لدينا في بطرسبرج الآن في عزه وما أكثر المعارف لدى ولدي زوجي ينبغي أن أسافر لأراهم.

فسألت ماريًا قسطنطينوفنا بوجل: زوجك مهندس على ما أظن؟

- أنا أتحدث عن لا يفسكي لديه معارف كثيرون جداً، ولكن أمه، للأسف، أرستقراطية متكبرة، ضيقة الأفق.

لم تكمل ناديها فيودوروفنا كلامها وقفزت إلى الماء ونزلت في أثرها ماريًا قسطنطينوفنا وكاتيا واستطردت ناديها فيودوروفنا تقول: لدينا في المجتمع الراقي الكثير من الأحكام المسبقة والحياة فيه ليست سهلة كما يبدو.

فقالت ماريًا قسطنطينوفنا التي عملت مربية لدى عائلات أرستقراطية وخبرت المجتمع الأرستقراطي: أوه، نعم هل تصدقين يا عزيزتي، كان آل جاراتينسكي يتطلبون ملابس خاصة للإفطار وللغداء، ولذلك كنت أحصل، بخلاف المرتب، على بدل ملابس، وكأني ممثلة.



ووقفت بين ناديجدا فيودوروفنا وكاتيا، وكأنها تفصل ابنتها عن تلك المياه التي كانت تغسل جسد ناديجدا فيودوروفنا ومن باب كشك الاستحمام المفتوح والمفضي إلى البحر ظهر شخص ما سابحاً على بعد مائة خطوة من الكشك وقالت كاتيا ماما، إنه أخي كوستيا.

آه، آه - قامت ماريا قسطنطينوفنا مذعورة كالدجاجة آه، كوستيا وصاحت عد يا كوستيا عد ولكي يتباهى كوستيا، الصبي ابن الأربعة عشر، بشجاعته أمام أمه وأخته، غطس وسبح أبعد، لكنه تعب فأسرع عائداً، وبدا من وجهه الجاد المتوتر أنه غير واثق من قواه.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وقد هدأت: مصيبة هؤلاء الصبيان يا عزيزتي بين لحظة وأخرى قد يكسر عنقه آه يا عزيزتي ما أجمل أن تكوني أمماً، وما أصعب ذلك في الوقت نفسه تخافين من كل شيء.

ارتدت ناديجدا فيودوروفنا قبعتها القش وسبحت من الكشك إلى عرض البحر ابتعدت حوالى أربع أذرع واستلقت على ظهرها وكانت ترى البحر حتى الأفق، والسفن، والناس على الشاطئ، والمدينة وأثارها كل هذا، بالإضافة إلى القيظ والأمواج الشفافة الرقيقة، وهمس لها بأنها لا بد أن تعيش وتعيش ومر بجوارها بسرعة زورق شراعي وهو يشق الأمواج والهواء بنشاط وتطلع إليها الرجل الجالس إلى الدفة، فسرها أنه ينظر إليها وبعد أن استحمت السيدات لبسن



ثيابهن وانصرفن معاً وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تعلق شفيتها
المالحتين بعد الاستحمام وترد بابتسامة على تحيات المعارف: -
الحمى تتابني يوماً بعد يوم، ومع ذلك لا ينقص وزني كنت دائماً
ممتلئة،والآن يبدو أنني أكثر امتلاء.

- هذا يا عزيزتي بسبب الاستعداد الفطري من ليس لديه استعداد
للسمنة،مثلي أنا، فلن يسمن مهما أكل ولكنك يا عزيزتي بللت قبعتك.
- لا بأس، ستجف.

ورأت ناديجدا فيودوروفنا مرة ثانية الرجال ذوي الملابس البيضاء
وهم يسيرون على الكورنيش ويتحدثون بالفرنسية، والسبب ما تحركت
الفرحة في صدرها، وتذكرت بصورة غامضة صالة ما، رقصت فيها في
وقت من الأوقات، أو ربما رأتها في الحلم وهمس لها شيء ما في أعماق
روحها بصوت مبهم خافت بأنها امرأة ضحلة، وضيعة، سيئة، تافهة.

توقفت ماريا قسطنطينوفنا أمام بوابة بيتها ودعتها للدخول.

ادخلي يا عزيزتي- قالت بصوت ضارع، وفي الوقت نفسه نظرت
إلى ناديجدا فيودوروفنا بلوعة وأمل: لعلها ترفض الدعوة ولا تدخل.

بكل سرور وافقت ناديجدا فيودوروفنا أنت تعرفين كم أحب
زيارتك ودخلت وأجلستها ماريا قسطنطينوفنا وقدمت لها القهوة



وضيفتها كعكاً.

ثم فرجتها على صور مخدوميهما السابقين آنسات آل جاراتينسكى اللائى تزوجن بعد ذلك، وأطلعتهما كذلك على علامات امتحانات كاتيا وكوستيا كانت علامات جيدة جداً، ولكن لكي تبدو أفضل، فقد اشتكت وهي تنتهد من صعوبة الدراسة في المدرسة في هذه الأيام كانت ترعى الضيفة وفي الوقت نفسه تشفق عليها وتعاني من فكرة أن ناديجدا فيودورفنا يمكن أن تؤثر تأثيراً سيئاً بحضورها على أخلاق كوسيتا وكاتيا، وابتهجت لعدم وجود نيكوديم ألكسندريتش في البيت ولما كانت تعتقد أن الرجال يحبون هؤلاء فقد كان من الممكن أن تؤثر ناديجدا فيودوروفنا تأثيراً سيئاً على نيكوديم ألكسندريتش أيضاً.

وبينما كانت ماريا قسطنطينوفنا تتحدث مع الضيفة لم تتس طوال الوقت أنه ستقام مساء اليوم نزهة خلوية، وأن فون كورين رجاها رجاء حاراً ألا تخبر النسائيس بذلك، أي لايفسكي وناديجدا فيودورفنا، ولكن لسانها زل، فتضرجت تماماً وقالت بارتباك: أمل أن تكوني أنت أيضاً هناك واتفقوا على المضي سبعة كيلومترات خارج المدينة في الطريق الجنوبي والتوقف قرب الدوخان، عند التقاء النهرين الأسود والأصفر، وهناك يعدون حساء السمك ورحلوا في بداية الساعة السادسة في المقدمة سار صامويلنكو ولايفسكي



في عربة تشاربوت، ومن خلفها ماريا قسطنطينوفنا وناديجدا فيودوروفنا وكاتيا وكوستيا في عجلة تجرها ثلاثة خيول وكان معهم سلة بها مأكولات وأوعية وفي العربة التالية كان مفتش الشرطة كيريلين وأتشميانوف الشاب، ابن ذلك التاجر اتشميانوف الذي كانت ناديجدا فيودوروفنا مدينة له بثلاثمائة روبل وجلس قبالتها على المقعد نيكوديم ألكسندریتش، منكمشان طاوياً ساقية، صغيراً مهنداً، بصدغين مصفضي الشعر وخلف الجميع سارت عربة فون كورين والشماس وعند قدمي الشماس استقرت سلة بها سمك.

- إلى اليمين.

كان صامويلنكو يصيح بأعلى صوته عندما تقابلهم عربة أو أبخازي على ظهر حمار وقال فون كورين للشماس:

- بعد عامين، عندما يتوفر لي المال اللازم والناس سأمضي في بعثة سأبحر بمحاذاة الساحل من فلاديفوستوك على مضيق بهرنج، ثم من المضيق إلى مصب نهر پنیسی سنرسم خريطة وندرس عالم الحيوان والنبات، وننكب بجد على الجيولوجيا والأبحاث الأنثروبولوجية والأثنوجرافية إن مجيئك معي يتوقف عليك وحدك فقال الشماس: - هذا مستحيل.



لماذا؟.

- أنا رجل مرتبط، صاحب أسرة.

- ستسمح لك زوجتك سنكفل لها سبل العيش والأفضل لو استطعت أن تقنعها، لصالح القضية العامة، أن تحلق شعرها وتدخل ديراً فهذا يعطيك أنت الفرصة لكي تحلق شعرك وتأتي معنا في البعثة راهباً أستطيع أن أرتب لك ذلك.

لزم الشماس الصمت فسألته عالم الحيوان هل تعرف أمور اللاهوت جيداً؟ - لا، قليلاً أم أنا لا أستطيع أن أقدم لك أية نصائح في هذا الصدد لأن معرفتي باللاهوت ضعيفة أعطني قائمة بأسماء الكتب المطلوبة وسوف أرسلها لك من بطرسبرج شتاء وسيكون عليك أيضاً أن تقرأ مذكرات الرحالة الدينيين، يوجد بينهم أثنووجرافيون جيدون وخبراء في اللغات الشرقية وبعد أن تتعرف على أساليبهم سيصبح من السهل عليك أن تشرع في العمل ولكن إلى حين وصول الكتب لا تضع الوقت عبثاً، تردد على وسأعلمك استخدام البوصلة، وأطلعك على علم الأرصاد فكل هذا مطلوب فدمدم الشماس ثم ضحك:

هذا صحيح ولكن لقد طلبت تعييني في روسيا الوسطى، ووعدني عمي، وهو كبير كهنة، بالمساعدة ولو سافرت معك فسيكون معناه



أنني أزعجته بلا داع.

لست أفهم ترددك فباستمرارك في العمل شماساً عادياً، عليه أن يقيم الصلاة في الأعياد فقط وفي بقية الأيام يتسكع، ستظل حتى بعد عشر سنوات كما أنت الآن، ولن تزيد شيئاً، اللهم إلا شارباً ولحية، في حين أنك، بعد عودتك من البعثة وبعد نفس السنوات العشر، ستكون إنساناً آخر، وستزداد غنى بإدراكك أنك صنعت شيئاً.

وترددت من عربة النساء صرخات فزع وإعجاب فقد كانت العربات تسير على طريق حفر في شاطئ صخري شديد الانحدار، فبدا للجميع أنهم يجرون فوق رف مثبت إلى جدار عال، وأن العربات سوف تسقط الآن في الهوة وإلى اليمين امتد البحر، وعلى اليسار جدار غير مستو، بني اللون ببقع سوداء وعروق حمراء وجذور زاحفة، ومن فوق أطلت إلى أسفل شجرات صنوبر كثة منحنية كأنما عن رهبة وفضول وبعد دقيقة تردد العويل والضحك ثانية، فقد مروا تحت صخرة ضخمة معلقة.

وقال لايفسكى: لست أدري أي شيطان دفعني إلى المجيء معكم ما أغيب هذا وأوضعه ينبغي على أن أذهب إلى الشمال، أن أهرب، أن أنجو، بينما أذهب لسبب ما إلى هذه النزهة الحمقاء.



فقال له صامويلنكو عندما انعطفت الخيول يساراً فانكشف منظر وادى النهر الأصفر، ولمعت مياه النهر الصفراء، العكرة، المجنونة: انظر أية بانوراما فأجاب لايفسكى: لا أرى يا ساشا أي شيء جميل في ذلك إن إبداء الإعجاب الدائم بالطبيعة يعنى إظهار فقر الخيال فبالمقارنة مع ما يمكن أن يقدمه لي خيالي ليست كل هذه النهيرات والأحجار سوى حقارة ولا شيء أكثر كانت العربات الآن تسيير على شاطئ النهر وبدأت الشطآن الصخرية المرتفعة تلتقى شيئاً فشيئاً والوادي يضيق حتى بدا في الأمام شعباً وكان الجبل الصخري الذي ساروا بجواره قد ركبته الطبيعة من أحجار ضخمة يضغط بعضها فوق بعض بقوة رهيبه حتى إن صامويلنكو كان يزحر لا إراديا كلما نظر إليها وفي بعض المواضع تشق هذا الجبل الجميل العابس شقوق وشعاب، هبت منها على السائرين رطوبة وغموض وعبر الشعاب لاحت جبال أخرى، بنية، ووردية، وليلكية، ومضبة أو جبال يغمرها ضوء ساطع وأحياناً، عندما كانوا يمرون بجوار الشعاب كان يسمع صوت مياه تسقط أعلى الأحجار من عل في مكان ما .

وتنهذ لايفسكى يا للجبال اللعينة كم أضجرتنى .

في نقطة التقاء النهر الأسود بالأصفر، حيث كانت المياه السوداء التي تشبه الحبر تلوث المياه الصفراء وتتصارع معها، وغير



بعيد عن الطريق انتصب دو خان التتري كربلاى، بعلم روسي على سطحه ولافتة مكتوب عليها بالطباشير: الدوخان اللطيف وكانت بجواره حديقة صغيرة محاطة بسياح مجدول، وضعت فيها طاولات وأرائك، ووسط الخرج البائس الشائك انتصبت شجرة سرو وحيدة، جميلة وداكنة ووقف كربلاى، التتري الصغير الخفيف الحركة، مرتدياً قميصاً أزرق ومريلة بيضاء على الطريق، وأمسك ببطنه وهو ينحني بشدة محيياً العربات المارة، ويبتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء البراقة.

وصاح به صامويلنكو: مرحبا يا كربلاى سنبتعد قليلاً، أما أنت فلتحضر إلى هناك الساور والكراسى بسرعة وهز كربلاى رأسه الحليق ودمدم بشيء ما، لم يسمعه سوى ركاب العربات الأخيرة عندنا سمك السلطان يا صاحب المعالي.

فقال له فون كورين: - هاته، هاته.

ابتعدت العربات حوالي خمسمائة خطوة عن الدوخان ثم توقفت واختار صامويلنكو مرجاً صغيراً تناثرت فيه بعض الصخور التي تصلح للجلوس عليها، وتمدد جذع شجرة أسقطتها العاصفة، بجذور منزوعة متشعبة وإبر صفراء جافة ومن هنا امتد عبر النهر جسر متهاك من جذوع الأشجار، وعلى الشاطئ الآخر، في المقابل تماماً



انتصبت على أربع دعائم حظيرة لتجفيف الذرة، تشبه كوخ الحكايات الأسطوري المقام على سيقان دجاج ومن باب الحظيرة تدلى سلم صغير إلى الأرض.

كان الانطباع الأول لدى الجميع أنهم، كما خيل إليهم، لن يستطيعوا الإفلات من هنا فحيثما نظروا، ومن جميع الجهات، تكتلت الجبال مطبقة عليهم، ومن ناحية الدوخان وشجرة السرو الداكنة زحفت عليهم بسرعة ظلال المساء، ولهذا بدا وادي النهر الأسود، الضيق المتعرج، أكثر ضيقاً، والجبال أكثر ارتفاعاً وتناهت زمجرة النهر المستمرة وأزيز الجنادب المتصل.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وهي تشهق بعمق من شدة الانبهار: ساحر انظروا يا أولاد إلى هذا الجمال يا للهدوء.

- بالفعل جميل قال لايفسكي الذي أعجبه المنظر، ثم لسبب ما شعر فجأة بالحزن عندما نظر إلى السماء وإلى الدخان الأزرق المتصاعد من مدخنة الدوخان، وكرر نعم، جميل.

وقالت ماريا قسطنطينوفنا بصوت مغرورق بالدموع: صف هذا المنظر يا إيفان أندريتش فسألها لايفسكي: وما الداعي؟ الانطباع أفضل من أي وصف فهذه الثروة من الألوان والأصوات، التي يحصل



عليها أي شخص من الطبيعة عن طريق الانطباعات يثرثر بها الكتاب بصورة قبيحة مطموسة المعالم.

أهكذا؟ سأله فون كورين ببرود، وقد اختار لنفسه أكبر حجر قرب المياه، ومضى يتسلقه ليجلس عليه وكرر وهو يحدق في عيني لايفسكى مباشرة: أهكذا؟ وروميو وجولييت؟ وليل أوكرانيا عند بوشكين مثلاً؟ على الطبيعة أن تأتي وتحنى عرفاناً.

ربما وافقه لايفسكى الذي زهد كسلاً في النقاش والمعارضة ولكنه قال بعد فترة قصيرة وعلى العموم ما هي روميو وجولييت في الحقيقة؟ إنه حب جميل شاعري، مقدس إنها ورود يريدون بها إخفاء العفن من تحتها فروميو حيوان كالأخرين جميعاً.

عن أي موضوع يدور الحديث فإنك تحصره في ال... والتفت فون كورين إلى كاتيا ولم يكمل جملته فسأله لايفسكى في ماذا أحصره؟.

- عندما يقول لك أحد مثلاً: ما أجمل عنقود العنب ترد عليه: نعم، ولكن ما أقبحه عندما يمضغونه ويهضمونه في المعدة لأي غرض تقول ذلك؟ ليس هذا جديداً وعموماً فهو أسلوب غريب.

كان لايفسكى يعرف أن فون كورين لا يحبه، ولذلك كان يخشاه ويشعر بنفسه في حضرته كما لو كان المكان ضيقاً على الجميع وكان أحداً ما



يقف خلف ظهره فلم يرد بشيء، وابتعد وشعر بالأسف لأنه جاء..

وأصدر صامويلنكو أوامره: يا سادة، هيا لإحضار حطب للنار.

وتفرقوا كل إلى جهة، ولم يبق في مكانه سوى كيريلين وأتشميانوف ونيكوديم ألكسندريتش وأحضر كربلاى كراسى، وفرش سجادة على الأرض ووضع عدة زجاجات نبيذ وكان مفتش الشرطة كيريلين، ذلك الرجل الوسيم، الذي يرتدي المعطف الرسمي أياً كان الطقس، يشبه بقامته المتكبرة ومشيته المهمة، وصوته الأَجَش، الأَبَح قليلاً، مفتشى الشرطة المحليين الشبان وكان تعبير وجهه حزيناً ناعساً، كأنما أيقظوه من النوم توا رغماً عنه.

وسأل كربلاى وهو يلفظ على مهل كل كلمة: ما هذا الذي أحضرته أيها الحيوان؟ لقد أمرتك أن تحضر نبيذ كفاريلى، فماذا أحضرت أيتها السحنة التترية؟ هه؟ من؟.

فقال نيكوديم ألكسندريتش بوجل وأدب: لدينا خمر كثير يا يجور أليكسييتش ماذا؟ ولكني أريد أن يكون هنا خمري أنا.

إنني مشترك في النزهة وأعتقد أن لي مطلق الحق في أن أساهم بنصيبى أعتقد أحضر عشر زجاجات كفاريلى ولماذا كل هذه الكمية؟ دهش نيكوديم ألكسندريتش الذي كان يعرف أن كيريلين لا



يملك نقوداً.

فصاح كيرلين عشرين زجاجة ثلاثين فهمس له أتشميانوف لا بأس، دعه أنا سأدفع كانت ناديجدا فيودوروفنا في مزاج مرح، عابت وكانت تود لو تقفز، وتقهقه، وتصرخ، وتشاكس، وتتدلل وبدت لنفسها في فستانها الشيت الرخيص ذي البقع الزرقاء وحذائها الأحمر، ونفس القبعة القش، صغيرة، بسيطة خفيفة ورقيقة كفراشة ركضت على الجسر المتهالك وحدقت دقيقة في الماء لكي يدور رأسها، ثم صرخت وجرت وهي تضحك إلى الشاطئ الآخر نحو حظيرة التجفيف، وخيل إليها أن جميع الرجال، بمن فيهم كربلاي معجبون بها وعندما اتحدت الأشجار بالجبال والعربات بالخيل في الظلمة الهابطة بسرعة، وومض ضوء في نوافذ الدوخان، صعدت على الدرب الملتوى بين الصخور والخمائل الشائكة، وتسلفت الجبل وجلست على صخرة وفي الأسفل كانت النار مشتعلة، وبجوارها تحرك الشمس مشمراً عن ساعديه.

دار ظله الطويل حول النار في نصف دائرة كان يضع الحطب في النار ويقلب في القدر بملعقة مثبتة إلى عصا طويلة وسعي صامويلنكو بجوار النار بوجه نحاسي أحمر، كما يفعل في مطبخه، وهو يزأر بوحشية: أين الملح يا سادة؟ هل نسيتموه؟ ما لكم جلستم



هكذا كالإقطاعيين وأنا وحدي الذي أعمل؟ وعلى جذع الشجرة الملقي
جلس لايفسكى ونيكوديم ألكسندريتش متجاورين وهما ينظران إلى
النار ساهمين.

وكانت ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا وكوستيا يستخرجون آنية
الشاي والأطباق من السلال ووقف فون كورين عاقداً يديه على
صدره، وواضعاً إحدى قدميه على حجر على الشاطئ قرب المياه
تماماً وهو يفكر في شيء ما وتحركت على الأرض بقع حمراء من
النار مع الظلال بجوار أشباح الناس المظلمة، وارتعشت على الجبل
وعلى الأشجار، وعلى الجسر، وعلى حظيرة التجفيف وكان الشاطئ
الآخر الشديد الانحدار المليء بالحفر مضاء كله، يومض وينعكس
في النهر بينما مزقت المياه المتدفقة الهادرة انعكاساته إربا.

ومضى الشمس ليحضر السمك الذي كان كريلاي ينظفه ويفسله
عند الشاطئ، لكنه توقف في منتصف الطريق وتطلع حوله، وفكر: يا
إلهي، ما أجمل هذا ناس وأحجار ونار، وغسق، وشجرة مشوهة، ولا
شيء أكثر، ولكن ما أجمله.

وظهر على الشاطئ الآخر بجوار حظيرة التجفيف أناس غرباء
ولأن الضوء كان يومض ودخان النار يتجه إلى تلك الناحية لم يكن
من الممكن تمييز هؤلاء الأشخاص كلهم دفعة واحدة، بل كان يظهر



على أجزاء تارة قبعة فراء كثة ولحية بيضاء، وتارة قميص أزرق، وتارة خرق تتسدل من الكتفين إلى الركبتين وخنجر بعرض البطن، وتارة وجه شاب أسمر بحاجبين أسودين، كثيفين ومحددين كأنها رسما بقلم الفحم وجلس خمسة منهم حلقة على الأرض، أما الخمسة الآخرون فاتجهوا إلى حظيرة التجفيف ووقف أحدهم في الباب وظهره إلى النار، عاقداً يديه خلفه، وراح يروي شيئاً ما، يبدو شيئاً جداً، لأنه عندما أضاف صامويلنكو حطباً فتأججت النار وتطاير منها الشرر وأضاءت حظيرة التجفيف بنور ساطع، لاح واضحاً من باب الحظيرة وجهان هادئان، ينبآن عن الاهتمام الشديد، بينما استدار الجالسون حلقه وأخذوا يصغون إلى الرواية وبعد ذلك بقليل شرع الجالسون يغنون بصوت خافت أغنية بطيئة منغمة، كأغنية الصيام الكبير في الكنسية وفكر الشماس وهو يصغي اليهم فيما سيحدث له بعد عشر سنوات عندما يعود من البعثة كبير كهنة شاب، مبشر، مؤلف معروف وذو ماض رائع، وسوف يعينونه أرشميندريتا، ثم مطراناً، ويقوم بالصلاة في كاتدرائية يخرج إلى منصة المذبح، في قلنسوة الأسقف الذهبية وشارته، ويهل على الجموع بنور شموعه ويعلن بصوت مجلجل: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض فيرد الأطفال بصوت ملائكي: إلها المقدس.



وتردد صوت صامويلنكو: - أين السمك يا شماس؟.

وعاد الشماس إلى النار وتصور المسيرة الدينية في يوم حار من شهر يوليو، على طريق مترب: في المقدمة يسير الفلاحون حاملين الرايات، والفلاحات والبنات حاملات الأيقونات، ومن ورائهن الصبيان المرتلون ثم القندلفت، معصوب الخد وفي شعره القش ويمضي الموكب بالترتيب: هو الشماس في المقدمة، ثم يتبعه القسيس في قلنسوة وبصليب، ومن ورائهم الفلاحون والفلاحات والصبيان مثيرين الغبار؛ وفي وسط هذا تسير زوجة الشماس وزوجة القسيس على رأسيهما منديلان ويغني المرتلون، ويعول الأطفال، وتصيح طيور السان، وتصيح القبرات وهاهم أولاء قد توقفوا ليرشوا بالماء المقدس قطع بقر وتابعوا سيرهم ثم صلوا طلباً للمطر، راكعين على ركبهم وبعد ذلك الطعام، والأحاديث.

وفكر الشماس: وهذا أيضاً جميل.

صعد كيريلين وأتشميانوف على الدرب إلى الجبل وتخلف أتشميانوف فتوقف، أما كيريلين فاقترب من ناديجدا فيودوروفنا وقال وهو يؤدي التحية العسكرية: مساء الخير مساء الخير نعم قال كيريلين وهو يتطلع إلى السماء ويفكر.



- ماذا نعم؟ سألته ناديجدا فيودوروفنا بعد أن صمتت قليلاً وقد لاحظت أن أتشميانوف يراقبها فشرع الضابط يقول ببطء: وإذا ذبل هكذا ذبل حبنا من قبل أن تتفتح أزهاره، كما يقال كيف تريدني مني أن أفهم هذا؟ هل هو نوع من الدلال من جانبك، أم أنك تعتبريني أهبل يمكن أن تفعلني به ما يحلو لك؟.

كانت غلطة دعني وشأني قالت ناديجدا فيودوروفنا بحدة وهي تنظر إليه برعب في هذا المساء الرائع الساحر وتسأل نفسها بدهشة: أمن المعقول أنه كانت هناك لحظة أعجبت فيها بهذا الإنسان وكان قريباً إليها؟.

هكذا قال كيريلين، ووقف قليلاً في صمت، ثم فكر وقال طيب فلننتظر حتى يعتدل مزاجك، أما الآن فأود أن أؤكد لك أنني رجل محترم، ولن أسمح لأحد بأن يشك في ذلك لن يلعب بي أحد.

ورفع يده بالتحية العسكرية وابتعد شاقاً طريقه بين الخمائيل وبعد ذلك بقليل اقترب أتشميانوف متردداً وقال بلكنة أرمنية خفيفة: مساء جميل اليوم؟.

كان وسيم التقاطيع، يلبس حسب الموضة، ويتصرف ببساطة، كشاب مهذب، ولكن ناديجدا فيودوروفنا لم تكن تحبه لأنها كانت



مدينة لأبيه بثلاثمائة روبل وضايقتها أيضاً أنهم دعوا إلى النزهة صاحب الدكان، كما ضايقتها أنه تحدث إليها بالذات في هذا المساء الذي كانت تشعر فيه بطهارة روحها.

وقال بعد صمت: - عموماً النزهة موفقة فأمنت موافقة: نعم ثم قالت بلا اكترات وكأنها تذكرت دينها الآن فقط نعم، أخبرهم في محلكم بأن إيفان أندريتش سيأتي قريباً ويسدد الثلاثمائة روبلاً ولا أذكرهم.

- أنا مستعد أن أقدم ثلاثمائة روبل أخرى، فقط من أجل ألا تذكرنا كل يوم بهذا الدين ما الداعي لهذه التوافه؟ فضحكت ناديجدا فيودورفنا وواتتها فكرة مضحكة: فلو لم تكن قويمة الخلق، لو أنها شاءت، لاستطاعت في لحظة أن تتخلص من الدين لو أنها مثلاً، أدارت رأس هذه الأحمق الشاب الجميل وبالفعل كم كان ذلك سيبدو مضحكاً وغيباً وفضيلاً وفجأة أحست برغبة في أن تجعله يقع في غرامها، فتنهبه، ثم تهجره، وتتنظر ما الذي يحدث بعد ذلك. وقال أتشميانوف بخجل:

- اسمحي لي أن أقدم لك نصيحة أرجوك أن تحذري كيريلين إنه يقول عنك في كل مكان أشياء فظيعة لا يهمني أن أعرف ما الذي يقوله عني كل أحمق قالت ناديجدا فيودوروفنا ببرود وتولاها القلق



وفجأة فقدت فكرتها المضحكة باللعب بأتشميانوف الشاب الجميل كل سحرها وقالت ينبغي أن نهبط إنهم يدعوننا .

كان حساء السمك قد أصبح جاهزاً في الأسفل وملأوا به الأطباق وأخذوا يأكلون بخشوع، مثلما يحدث في النزعات الخلوية فقط واعترف الجميع بأن الحساء لذيذ جداً، وأنهم لم يأكلوا أبداً في البيت شيئاً بهذه اللذة وكما يحدث في جميع النزعات فقد ضلت الأيدي طريقها وسط المناديل الكثيرة واللفائف والأوراق المهملة المشبعة بالدهن والمتقلبة مع الريح، ولم يعرف أحد أين كأسه أو أين قطعة خبزه، وسكبوا الخمر على السجادة وعلى حجورهم، وبعثروا الملح، وكان الظلام محيطاً بهم، ولم تعد النار تشتعل بقوة كما في السابق، بينما تكاسل كل منهم عن النهوض وإلقاء الحطب فيها وشرب الجميع خمراً، وحتى كوستيا وكاتيا أعطوا كلاهما نصف كوب منه وشربت ناديجدا فيودوروفنا كوباً، ثم آخر، وثملت، ونسيت كيريلين .

وقال لايفسكى وقد داخله المرح من الخمر: نزهة فاخرة، مساء ساحر، ولكني أفضل على ذلك كله شتاء جيد وعلى فراء الياقة قد لمعت ذرات الثلج الفضية .

فرد فون كورينللكل ذوقه الخاص فشعر لايفسكى بالحرج كان حر النار يلفحه في ظهره، وكراهية فونكورين في صدره ووجهه هذه



الكراهية من رجل قويم ذكي، التي تتطوي فيما يبدو على سبب وجيه، كانت تسبب له المهانة والضعف، ولما لم يكن قادراً على مواجهتها فقد قال بنبرة مدهانة:

- أنا أحب الطبيعة بشغف وآسف أنني لست عالماً طبيعياً إنني أغبطك فقالت ناديجدا فيودوروفنا: أما أنا فلا آسف ولا أغبط أنا لا أفهم كيف يمكن الاهتمام جدياً بالحشرات والهوام بينما الشعب يعاني. كان لايفسكي يشاطرها هذا الرأي ولم تكن لديه أية معرفة بالعلوم الطبيعية، ولذلك لم يستطع أن يسلم بتلك اللهجة الواثقة وهيئة العلماء وذوى الفكر العميق لأناس يدرسون شوارب النمل أو سيقان الصراصير، وكان دائماً يشعر بالحنق لأن هؤلاء الناس، على أساس الشوارب والسيقان وشيء ما اسمه البروتوبلازما ولسبب ما كان يتصورها في هيئة محارة بحرية يتصدون لحل قضايا تشمل أصل الإنسان وحياته ولكن الكذب تبدى له في كلام ناديجدا فيودوروفنا، فقال من أجل أن يعارضها فقط: العبرة ليست في الهوام، بل في الاستنتاجات بدأوا يستقلون العربات، استعداداً للعودة، في ساعة متأخرة، في حوالى الحادية عشرة جلسوا جميعاً ما عدا ناديجدا فيودوروفنا وأتشميانوف اللذين كانا يتسابقان على الشاطئ الآخر للنهر ويقهقهان وصاح بهما صامويلنكو: - أسرعوا يا سادة.



الجزء الثالث

فقال فون كورين بصوت خافت: ما كان ينبغي تقديم الخمر للسيدات. ومضى لايفسكى نحو ناديجدا فيودوروفنا، مرهقاً من النزهة ومن كراهية فون كورين ومن أفكاره الخاصة، وعندما أمسكت به من كلتا يديه وهي تلهث وتقهقه مرحة، سعيدة، وتحس بنفسها خفيفة كالريشة، ووضعت رأسها على صدره، تراجع لايفسكى خطوة إلى الوراء وقال بصرامة: أنت تتصرفين مثل الغانية.

كان ما قاله فظلاً جداً، حتى إنه أحس بالإشفاق عليها وقرأت هي في وجهه الغاضب المتعب الكراهية والإشفاق والحنق على نفسه، فأحست فجأة بالخور وأدركت أنها بالغت، وسلكت مسلكاً مستهتراً، فمضت حزينة، وهي تشعر بأنها ثقيلة، بدينة، فظة وثملة، فجلست مع أتشميانوف في أول عربة خالية صادفتها وجلس لايفسكى مع كيريلين، وعالم الحيوان مع صامويلنكو، والشماس مع السيدات وتحرك الموكب.

وراح فون كورين يقول وهو يتدثر بمعطف خفيف وقد أغمض عينيه:

هذه هي النسانيس أسمعتم؟ إنها لا تريد أن تشغل نفسها بالحشرات والهوام لأن الشعب يعانى هكذا تنظر جميع النسانيس إلى أمثالنا يا لها من قبيلة ذليلة، ماكرة، أربها السوط والقبضات



حتى الجد العاشر إنها ترتعد وتتملق وتطلق البخور للقوة فقط، ولكن ما إن تخرج النسناسة إلى أفق حر، حيث لا يوجد من يقبض عليها، حتى تتنمر وتفصح عن نفسها انظر إليها كم تبدو جريئة في معارض الصور والمتاحف والمسارح، أو عندما تتحدث عن العلم أنها تتنفخ، وتحرن، وتسب، وتنتقد وحتما تنتقد، فيا لها من سمة للعبيد؟ فلنصخ السمع، وستجد أنهم يسبون ذوي المهن الحرة أكثر مما يسبون المحتالين، وهذا لأن ثلاثة أرباع المجتمع من العبيد، من مثل هذه النسانيس إن العبد لا يمكن أن يمد يده إليك ليشكرك بإخلاص على أنك تعمل.

فقال صامويلنكو متثائباً.

- أنا لا أدري ماذا تريد؟ لقد رغبت هذه المسكينة ببساطتها في أن تتحدث معك عن أشياء ذكية، أما أنت فتسرع بإصدار الأحكام أنت غاضب منها لسبب ما، وبالمرّة غاضب منها ولكنها امرأة رائعة.

- أوه، كفاك إنها خلييلة عادية، منحلة ومبتذلة اسمع يا ألكسندر دافيدتيش أنت عندما ترى امرأة بسيطة، لا تعاشر زوجها، ولا تفعل شيئاً سوى الضحكات والقهقهات، فإنك تقول لها: دعيك من هذا، واعملى فلماذا تجبن هنا وتخشى أن تقول الحقيقة؟ هل فقط لأن ناديجدا فيودوروفنا تعيش كخلييلة لموظف وليس لبحار؟.



فغضب صامويلنكو وقال: - وماذا أفعل لها؟ أأضربها؟

- لا تتافق الرذيلة إننا نلعن الرذيلة فقط في السر، وهذا يشبه التلويح بالقبضة داخل الجيب أنا عالم حيوان أو اجتماع، وكلاهما شيء واحد، وأنت طبيب والمجتمع يثق بنا ومن واجبنا أن نشير له إلى الضرر الرهيب الذي يتهدهد ويتهدد الأجيال المقبلة من وجود سيده مثل ناديجدا إيفانوفنا هذه فقال صامويلنكو مصححاً: ناديجدا فيودوروفنا وما الذي ينبغي على المجتمع أن يفعله؟

- المجتمع؟ هذا شأنه هو في اعتقادي أن أسلم وأقصر طريق هو العنف فقال ينبغي إعادتها إلى زوجها، فإذا لم يقبلها ترسل إلى الأشغال الشاقة أو إلى مؤسسة إصلاحية ما.

أف زفر صامويلنكو، وصمت قليلاً، ثم سأله منذ أيام قلت أن أناسا مثل لايفسكى ينبغي القضاء عليهم خبرني، لو أن الدول يعنى لنفرض أن الدولة أو المجتمع كلفك بالقضاء عليه، فهل كنت تجرؤ؟
- ولما اهتزت ذراعي.

وصل لايفسكى ونادجادا فيودوروفنا إلى البيت ودلفا إلى غرفتهما المظلمة الخائقة المملة وكانا كلاهما صامتين أشعل لايفسكى شمعة، وجلست ناديجدا فيودوروفنا، ودون أن تنزع المانتو أو القبعة،



رفعت إليه عينين حزينتين مذنبتين وفهم أنها تنتظر منه شرحاً، ولكن الشرح سيكون مملاً، عقيماً، ومرهقاً، كما كان يشعر بانقباض لأنه لم يتمالك نفسه وتفوه بعبارة خشنة ووقعت يده في جيبه بالصدفة على الرسالة التي كان يزعم في كل يوم أن يقرأها لها، ففكر بأنه لو أطلعها الآن عليها فسوف يحول ذلك انتباهها إلى ناحية أخرى وفكر: حان الوقت لاستيضاح علاقتنا فلأعطاها لها، وليكن ما يكون وأخرج الرسالة وأعطاها لها اقرئي هذا يخصك.

وبعد أن قال هذه العبارة مضى إلى غرفة مكتبة واستلقي على الكنبة في الظلام بلا وسادة وقرأت ناديجا فيودوروفنا الرسالة، وخیل إليها أن السقف هبط والجدران اقتربت منها فجأة أصبح المكان ضيقاً ومظلماً ومرعباً فرسمت علامة الصليب بسرعة وتمتمت: ارحمه يا رب ارحمه يارب وأجهشت بالبكاء ونادته: - فانيا إيفان أندريتش ولم تسمع جواباً وظننت أن لايفسكى جاء ووقف خلف مقعدها، فشهقت كطفل وهي تقول: لماذا لم تقل لي من قبل إنه مات؟ ما كنت ذهبت إلى النزهة، ولما ضحكت بهذه الفظاعة كان الرجال يقولون لي كلاماً مبتذلاً يا للخطيئة يا للخطيئة أنقذني يا فانيا، أنقذني أنا جننت أنا ضعت.

وسمع لايفسكى شهادتها كان يحس باختناق لا يطاق، بينما دق



قلبه بعنف ونهض في كآبة، ووقف في وسط الغرفة، وتحسس في الظلام بحثاً عن كرسي المكتب وجلس.

وهذا سجن فكر في نفسه - ينبغي أن أذهب لا أستطيع وكان الوقت متأخراً على لعب الورق، ولم يكن في المدينة مطاعم فرقد من جديد، وسد أذنيه لكي لا يسمع الشهقات، وفجأة تذكر أنه من الممكن الذهاب إلى صامويلنكو وحتى لا يمر بجوار ناديجدا فيودوروفنا خرج من النافذة إلى الحديقة، وعبر السياج إلى الشارع كان الجو مظلماً وكانت هناك سفينة وصلت لتوها، ويبدو من أنوارها أنها سفينة ركاب كبيرة وقرقعت سلسلة المرساة ومن الشاطئ تحرك ضوء أحمر بسرعة نحو السفينة كان ذلك زورق الجمارك.

الركاب يغطون في النوم داخل الكبائن فكر لايفسكي وهو يغبط طمأنينة الآخرين.

كانت نوافذ بيت صامويلنكو مفتوحة وأطل لايفسكي في إحداها، ثم في الأخرى: كان الظلام والسكون يلفان الغرف.

ونادي: - ألكسندر دافيديتش، هل أنت نائم؟ ألكسندر دافيديتش وتردد سعال وصيحة جزع:

من هناك؟ أي شيطان؟ - إنه أنا يا ألكسندر دافيديتش عفواً



فتح الباب بعد قليل، ومض ضوء مصباح ناعم، وظهر صامويلنكو الضخم، متشحاً كله بالبياض، وفي طرطور أبيض.

ماذا حدث؟ سأل وهو يلهث إثر النوم ويحك جسمه انتظر، سأفتح لا تتعب نفسك، سأدخل من النافذة ودلف لايفسكي من النافذة، واقترب من صامويلنكو، وأمسك بذراعه وقال بصوت متهدج: ألكسندر دافيديتش، أنقذني أتوسل إليك، أستحلفك، افهمني أرجوك وضعي مضم ولو استمر يوماً أو يومين فسأشئق نفسي كالكلب.

- مهلا عن أي شيء تتحدث؟ - أشعل شمعة.

- أوه، أوه تنهد صامويلنكو وهو يشعل الشمعة يا إلهي، يا إلهي الساعة الثانية يا أخي.

فقال لايفسكي وهو يشعر بارتياح كبير من الضوء ووجود صامويلنكو: اعذرنى، ولكني لا أستطيع البقاء في البيت أنت يا ألكسندر دافيديتش صديقي الوحيد، أقرب الأصدقاء أملي كله فيك وسواء شئت أم لم تشأ أنقذني من أجل الله لا بد أن أسافر من هنا بأي حال أقرضنى نقوداً فتنهد صامويلنكو وهو يحك جسمه:

- يا إلهي، يا إلهي بدأت أنعس فسمعت صفارة سفينة وصلت، ثم جئت أنت هل تريد مبلغاً كبيراً؟ - على الأقل ثلاثمائة روبل يجب أن



أترك لها مائة، ومائتان لى للطريق أنا مدين لك بحوالى أربعمائة،
ولكني سأرسلها لك كلها.

قبض صامويلنكو بيد واحدة على كلى سالفيه، وباعد بين ساقيه
واستغرق في التفكير - هكذا - دمدم مفكراً ثلاثمائة نعم ولكني
لا أملك هذا المبلغ ينبغي أن أقترض من أحد ما فقال لايفسكي
وهو يرى في وجه صامويلنكو أنه يرغب في إعطائه النقود وحتما
سيعطيه: اقترض من أجل الله، اقترض وسأردها لك حتماً سأرسلها
من بطرسبرج بمجرد وصولي كن واثقاً من ذلك ثم قال منتعشاً اسمع
يا ساشا، هيا نشرب بعض الخمر؟.

- هكذا هذا ممكن وذهباً إلى غرفة الطعام سأل صامويلنكو
وهو يضع على الطاولة ثلاث زجاجات وطبقاً به خوخ: - وماذا عن
ناديچدا فيودوروفنا؟ هل هي ستبقى؟ فقال لايفسكى وهو يشعر
بموجة سعادة مفاجئة سأدبر كل شيء، سأدبر كل شيء سأرسل لها
نقوداً فيما بعد فتأتي إلى وهناك نستوضح علاقتنا في صحتك يا
صديقي.

مهلا قال صامويلنكو اشرب هذا أولاً هذا من كرمتى وهذه
الزجاجة من كرمة نفايدزه، وهذه من أختولوف جرب الأنواع الثلاثة
وقل لي بصراحة نبيذى يبدو حامضاً قليلاً هه؟ أليس كذلك؟



نعم لقد خففت عني يا ألكسندر دافيديتش شكراً لك دبت في الروح- حامض؟ الشيطان يعلم، أنا لا أعرف ولكنك رجل رائع، ساحر وتطلع صامويلنكو إلى وجهه الطيب الشاحب المنفعل، وتذكر رأي فون كورين بضرورة القضاء على أمثال هؤلاء، فبدا له لايفسكى طفلاً ضعيفاً عاجزاً، في مقدور أي شخص أن يهينه ويقضى عليه فقال له: عندما ترجع تصالح مع أمك هذا عيب نعم، نعم، ضروري وصمتاً قليلاً وبعد أن شربا أول زجاجة قال صامويلنكو: هلا تصالحت مع فون كورين كلاكما شخصان ذكيان، رائعان، بينما تتعاملان كالذئاب نعم، إنه شخص رائع، ذكي - قال لايفسكى مؤمناً، وكان مستعداً الآن أن يمتدح الجميع ويغفر لهم إنه رجل ممتاز، ولكني لا أستطيع أن أصادقه كلا إن شخصياتنا جد مختلفة أنا شخصية ذابلة، ضعيفة، خاضعة، وربما في لحظة صفاء مددت له يدي، ولكنه سيشيخ بوجهه عني باحتقار وجرع لايفسكى الخمر وتمشي من ركن إلى ركن، ثم استطرد واقفاً في وسط الغرفة أنا أفهم فون كورين جيداً إنه شخصية صلبة، قوية، طاغية هل سمعت، إنه يتحدث دائماً عن البعثة، وليست هذه كليات فارغة إنه بحاجة إلى صحراء، إلى ليل مقمر ومن حوله ينام في الخيام وفي العراء رجاله الجوع والمرضى الذين عذبتهم المسيرات الطويلة القوزاق، والأدلة والحالون، والطبيب، والقسيس، وهو وحده الذي لا ينام، ومثل ستانلي، يجلس



على كرسى سفرى ويشعر بأنه ملك الصحراء وسيد هؤلاء الناس ويسير، يسير، يسير إلى جهة ما، ورجاله يثنون ويتساقطون الواحد تلو الآخر، بينما هو يمضى في سيره، وفي النهاية يلاقي هو أيضاً حتفه، ولكنه يبقى رغم ذلك طاغية وملك الصحراء، لأن الصليب على قبره يبدو مرثياً للقوافل من بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً مهيمناً على الصحراء إن ما يؤسفني هو أن هذا الشخص ليس في الخدمة العسكرية كان من الممكن أن يصبح قائداً ممتازاً، عبقرياً بوسعه أن يغرق خيوله في النهر ويصنع من الجثث جسوراً، وهذه الجسارة في الحرب أهم من أية تحصينات وتكتيكات أوه، كم أفهمه جيداً قل لي: لماذا يتسكع هنا؟ ما الذي يبغيه؟.

- إنه يدرس حيوانات البحر فتهد لايفسكى قائلاً: لا، لا يا أخي لا لقد أخبرني أحد العلماء المسافرين ونحن في السفينة أن البحر الأسود فقير فيما يخص عالم الحيوانات، وأن الحياة العضوية في أعماقه مستحيلة بسبب وفرة كبريتيد الأيدروجين فيما جميع علماء الحيوان الجادون يعملون في المحطات البيولوجية في نابولي، ولكن فون كورين مستقل وعنيد إنه يعمل في البحر الأسود لأن أحداً لا يعمل هنا لقد قطع صلته بالجامعة، ولا يريد أن يقيم علاقات بالعلماء والزملاء لأنه قبل كل شيء طاغية، ثم بعد ذلك عالم حيوان وسترى



أنه سيبلغ شأواً بعيداً إنه منذ الآن يحلم بأنه عندما يعود من البعثة فسوف يطهر جامعاتنا من الدسائس والضحالة ويلوى قرون العلماء الطغاة وهو قوى أيضاً في العلم مثلما هو في الحرب إنه يعيش في هذه المدينة العفنة للصيف الثاني لأنه من الأفضل أن تكون الأول في قرية على أن تكون الثاني في مدينة فهو هنا ملك وصقر إنه يطبق على جميع السكان بقبضة حديدية وينيخ عليهم بهيبته لقد أجبر الجميع على الخضوع له، وهو يتدخل في شئون الآخرين، وكل شيء يهمه، والجميع يخشونه أما أنا فأنزلق من تحت مخلبه، وهو يشعر بذلك ويمقتني ألم يقل لك إنه يجب القضاء على أو إرسالني إلى أعمال السخرة؟ فضحك صامويلنكو قائلاً: بل يفضحك لايفسكي هو الآخر وشرب خمرًا وقال وهو يضحك ويمز بالخوخ.

ومثله العليا أيضاً طغيانية فالبسطاء العاديون عندما يعملون لخير الجماعة فإنهم يقصدون بذلك أقرباءهم: أنا، أنت، أي الإنسان باختصار ولكن بالنسبة لفون كورين فالناس كلاب وأشياء تافهة، أتفه من أن يكونوا غاية حياته إنه يعمل، وسيذهب في بعثة، وسيدق هناك عنقه لا باسم حب الأقرباء، بل باسم مفاهيم مجردة كالإنسانية والأجيال القادمة، وسلالة البشرية المثالية فهذا هي السلالة البشرية؟ إنها أوهام، سراب لقد كان الطغاة دائماً ذوى أوهام إنني أفهمه جيداً



يا أخي أنا أقدره ولا أنكر قيمته فالعالم يقوم على أناس من أمثاله، ولو أن العالم ترك لنا فقط لصنعنا به، رغم كل طيبتنا ونوايانا الحميدة، ما فعل الذباب بهذه اللوحة نعم وجلس لايفسكى بجوار صامولينكو وقال بحدس صادق: أنا إنسان تافه، فارغ، ساقط، والهواء الذي أتنفسه، وهذا الخمر، والحب، وباختصار هذه الحياة كنت أشتريها حتى الآن بالكذب والفراغ والجبن حتى الآن كنت أخدع الناس وأخدع نفسي، وأعاني من ذلك، وكانت معاناتي رخيصة ومبتذلة إنني أحنى ظهري بهيبة أمام كراهية فون كورين، لأنني أحياناً أكره نفسي وأحتقرها .

وعاد لايفسكى فتمشي من ركن إلى ركن بانفعال وقال: إني سعيد لأنني أرى عيوبي وأعيها فسوف يساعدي ذلك على أن أبعث أنساناً آخر آه يا عزيزي لو كنت تدري بأي شغف وأي شوق أنتظر تجددى وأقسم لك إنني سأصبح إنساناً، سأصبح لست أدري هل هي الخمر التي تحرك لساني الآن، أم أن الأمر هو كذلك في الواقع، إلا أنه يخيل إلى أنني منذ زمن بعيد لم أمر بلحظات مشرقة، صادقة كتلك التي أمر بها الآن عندك .

فقال صامولينكو: - أن أن ننام يا صاحبي .

- عم، نعم عفواً سأنصرف حالا وبحث لايفسكى عن عمرته وهو يتخبط بين قطع الأثاث والنوافذ، ثم دمدم متهدأ: شكراً شكراً



الحنان والكلمة الطيبة أسمى من الصدقة، أنت رددت إلى روعي وعشر على عمرته فتوقف، ونظر إلى صامويلنكو نظرة مذنبية، وقال بصوت ضارع ألكسندر دافيديتش ماذا؟ اسمح لي يا عزيزي أن أبيت عندك على الرحب والسعة ولم لا؟ ورقد لايفسكي على الكنبه، وظل طويلاً يحادث الدكتور وبعد النزهة بحوالى ثلاثة أيام جاءت مارييا قسطنطينوفنا إلى ناديجدا فيودوروفنا فجأة، ودون أن تحيي أو تتزع قبعتها أمسكت بكلتا يديها وضمتها إلى صدرها وقالت بانفعال شديد:

- آه يا عزيزتي، كم أنا منفعله، مذهولة لقد أبلغ دكتورنا العزيز اللطيف بالأمس نيكوديم ألكسندريتش بأن زوجك توفي قولى لى يا عزيزتي، خبرينى هل هذا صحيح؟.

فأجابت ناديجدا فيدوروفنا: نعم، صحيح، لقد توفي.

- هذا فظيع، فظيع يا عزيزتي ولكن رب ضارة نافعة لقد كان زوجك، في الغالب، رجلاً مدهشاً، رائعاً، قديساً، ومثل هؤلاء مطلوبون في السماء أكثر مما على الأرض.

وارتعشت كل الخطوط والنقط في وجه مارييا قسطنطينوفنا كأنها توابت تحت جلده إبر صغيرة، فابتسمت ابتسامة لوزية وقالت بانهييار وهي هكذا، فأنت حرة يا عزيزتي بوسعك الآن أن ترفعي



رأسك عالياً وتتظري في عيون الناس بجرأة ومنذ الآن يبارك الله والناس ارتباطك بإيفان أندريتش هذا ساحر إنني أرتجف من الفرحة، ولا أجد ما أقوله يا عزيزتي، سأكون خاطبتك لقد أحببنا كما أنا ونيكوديم ألكسندريتش، فلتسمحا لنا بأن نبارك ارتباطكما الشرعي الطاهر متى، متى تفكرين في عقد القران؟.

فقال ناديجدا فيودوروفنا وهي تحرر يديها: أنا لم أفكر في ذلك مستحيل يا عزيزتي لقد فكرت، فكرت فضحكت ناديجدا فيودوروفنا وقالت: أي والله لم أفكر وما الداعي لعقد القران؟ أنا لا أرى في ذلك أية ضرورة سنعيش كما كنا نعيش فارتاعت ماريا قسطنطينوفنا: ماذا تقولين يا إلهي، ماذا تقولين؟ لن تكون الأمور أفضل بعقد قراننا بالعكس ستصبح أسوأ سنفقد حريتنا فصرخت ماريا قسطنطينوفنا وهي تتراجع وتشيح بيديها: - يا عزيزتي، يا عزيزتي، ماذا تقولين أنت متهورة عودي إلى رشدك أكبحي نفسك.

- ما معنى أن أكبح نفسي؟ أنا لم أعش بعد وأنت تقولين أكبحي نفسك تذكرت ناديجدا فيودوروفنا أنها لم تعش بعد بالفعل فقد تخرجت من المعهد وتزوجت برجل لم تحبه، ثم ارتبطت بلايفسكي وعاشت معه طوال الوقت على هذا الساحل الممل المقفر في انتظار شيء أفضل فهل هذه حياة؟.



وفكرت في نفسها: ولكن من الواجب عقد القران، ثم تذكرت كيريلين وأتشميانوف فتضرجت خجلاً، وقالت: كلا هذا مستحيل وحتى لو ركع إيفان أندريتش على ركبتيه طالباً منى هذا لرفضت جلست ماريا قسطنطينوفنا حوالي دقيقة على الكنبة، صامتة، حزينة، جادة، وهي تحدد في نقطة واحدة، ثم نهضت وقالت بيرود: وداعاً يا عزيزتي اعذريني على إزعاجك ورغم أن هذا صعب على لكني ينبغي أن أقول لك إن كل شيء انتهى بيننا من هذه اللحظة، ورغم كل احترامي لإيفان أندريتش فإن باب بيتي مغلق أمامكما.

قالت ذلك بمهابة احتفال، وكانت هي نفسها تزرع تحت وطأة نبرتها الاحتفالية وارتعش وجهها مرة ثانية، واكتسب تعبيراً ناعماً لوزياً، ثممدت كلتا ذراعيها إلى ناديجدا فيودورفنا المذعورة المرتبكة وقالت بضراعة: يا عزيزتي، اسمحي لي أن أكون أمك أو شقيقتك الأكبر ولو لدقيقة واحدة سأكون صريحة معك كأم وشعرت ناديجدا فيودورفنا في داخلها بدفء وفرحة وشفقة على نفسها كما لو أن أمها بعثت بالفعل ووقفت أمامها فهمت نحو ماريا قسطنطينوفنا باندفاع وعانقتها، وألصقت وجهها بكتفها وأجهشتا بالبكاء معاً جلستا على الكنبة وظللتا بضع دقائق تتشجان دون أن تنظر إحداهما إلى الأخرى وغير قادرتين على نطق كلمة واحدة.



ثم شرعت ماريا قسطنطينوفنا تقول: يا طفلي العزيزة، سوف أقول لك حقائق قاسية، ولن أشفق عليك اعملى معروفاً، اعملى معروفاً.

ضعي ثقتك في يا عزيزتي تذكري أنني الوحيدة من بين كل النساء هنا التي استقبلتك، لقد روعتني من أول يوم، ولكني لم أقو على أن أعاملك بلا اكتراث كما يعاملك الجميع وكنت أقاسي من أجل إيفان أندريتش العزيز الطيب وكأنه ابني شخص شاب، في أرض غريبة، عديم الخبرة، ضعيف، بلا أم، فأخذت أقاسي وأقاسي وكان زوجي يعارض التعرف به، ولكني أفتعته جعلته يعدل عن رأيه وأصبحنا نستقبل إيفان اندريتش، وأنت معه بالطبع، وإلا لشعر بالإهانة وأنا عندي ابنة وابن وأنت تدركين كم هي سريعة التأثير عقول الأطفال وقلوبهم البريئة ومن شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأجدر له لو علق في عنقه حجر الرحي وزج في لجة البحر استقبلك وأنا أرتعش خوفاً على أطفالى أوه، عندما تصبحين أما ستفهمين خوف الأم وكان الجميع يدهشون من استقبالي لك كسيدة محترمة، عفواً، ويلمحون الى ثم بالطبع القيل والقال، والظنون كنت في قرارة نفسي أدينك، ولكنك كنت بائسة، تعيسة، متهورة، فكنت أعاني من الشفقة عليك فسألت ناديجدا فيودوروفنا وبدنها كله يرتجف: - ولكن لماذا؟ لماذا؟ ماذا فعلت بهم؟.



- أنت ارتكبت خطيئة رهيبة لقد خنت العهد الذي أعطيته لزوجك أمام المذبح أنت أغويت شاباً رائعاً لو لم يلقاك، فربما اتخذ له شريكة حياة شرعية من أسرة طيبة من محيطه، وكان الآن مثل الجميع أنت قضيت على شبابه لا تجادلي، لا تجادلي يا عزيزتي أنا لا أصدق أن الرجل هو المسؤول عن خطايا النساء دائماً هن المخطئات الرجال في الحياة المنزلية مستهترون، يعيشون بعقولهم لا بقلوبهم، ولا يفهمون الكثير، لكن المرأة تفهم كل شيء عليها يتوقف كل شيء لقد وهبت الكثير، إذن فلتحاسب على الكثير آه يا عزيزتي، لو أنها كانت في هذه الناحية أضعف أو أغبي من الرجال لما أئتمنها الرب على تربية البنين والبنات وفوق ذلك يا عزيزتي فقد عبرت حد الخطيئة ونسيت كل خجل ولو كانت أخرى مكانك لتوارت عن الناس، ولأغلقت عليها باب بيتها، ولما رآها الناس إلا في معبد الرب، شاحبة، متشحة بالسواد، باكية، وقال كل واحد بحسرة صادقة: يا الهي، هذا الملاك الخاطئ عائد إليك ثانية ولكنك يا عزيزتي نسيت أي تواضع، وعشت حياة سافرة، متهورة، كأنما تفتخرين بالخطيئة، كنت تعبتين وتقهقهين، وكنت أرتعش من الرعب وأنا أنظر إليك، وأخشى أن يرسل الرب صاعقة من السماء على بيتنا وأنت عندنا وصاحت ماريا قسطنطينوفنا وقد لاحظت أن ناديجدا فويدوروفنا تهم بالكلام لا تجادلي يا عزيزتي، لا تجادلي ضعي ثقفتك في ولن



أخدعك، لن أخفي عن أنظار روحك حقيقة واحدة فلتسمعيني إذن يا عزيزتي إن الله يصم كبار الخاطئين، وكنت أنت موصومة تذكري كيف كانت فساتينك كلها فظيعة كانت ناديجدا فيودوروفنا تقدر فساتينها دائماً على التقدير، ومن ثم كفت عن البكاء وتطلعت إليها بدهشة فاستطردت ماريا قسطنطينوفنا تقول:- نعم فظيعة كان في وسع أي إنسان أن يحكم على سلوكك من واقع ثيابك المنتقاة الزاهية كان الجميع عندما يتطلعون إليك يتضحكون ويهزون أكتافهم، أما أنا فكنت أقاسي، أقاسي ثم إنك، واعدريني يا عزيزتي، لست نظيفة عندما التقينا في كشك الاستحمام، جعلتني أرتجف كانت ملابسك الخارجية محتملة يعني ولكن الجونيلة الداخلية والقميص إنى أحمر خجلاً يا عزيزتي ولا أحد يعقد لإيفان أندريتش المسكين ربطة عنقه كما يجب، وكان واضحاً من ملابس المسكين وحذائه أن أحداً لا يهتم به في البيت، وهو دائماً لديك جوعان، هذا العزيز، وبالفعل، إذا لم يكن هناك في البيت من يهتم بإعداد الشاي والقهوة، فستضطرين رغمًا عنك إلى إنفاق نصف مرتبك في المقصف أما عندك في البيت فشيء رهيب، رهيب لا أحد في المدينة كلها لديه ذباب، أما عندك فلا مهرب منه، وكل الآنية والأطباق سوداء وعلى النوافذ وعلى الطاولات، انظري، غبار وذباب ميت، وأكواب ما الداعي للأكواب هنا؟ وحتى الآن يا عزيزتي لم تنظف المائدة ويخجل المرء من دخول



غرفة نومك الملابس ملقاة في كل ركن، وعلى الجدران تعليقين شتى الأشياء الكاوتشوك، وهناك أنية ما ياعزيزتى الزوج لا ينبغي أن يعرف شيئاً، وعلى الزوجة أن تكون أمامه نظيفة طاهرة كملك أنا أستيقظ كل يوم في الفجر وأغسل وجهي بالماء البارد لكي لا يلاحظ زوجي نيكوديم ألكسندريتش عليه أثر للنوم.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تتحب: هذه أمور تافهة لو كنت سعيدة، ولكني تعيسة جداً فتهدت ماريا قسطنطينوفنا وهي لا تكاد تقوى على منع نفسها من البكاء: نعم، نعم، أنت تعيسة جداً وستواجهين في المستقبل مصيبة رهيبة الشيخوخة والوحدة، والأمراض، ثم الحساب في يوم القيامة فظيع، فظيع القدر نفسه يمد لك الآن يد العون، وأنت تتحينها برعونة اعقدي قرانك، وبسرعة.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا: نعم ضرورى، ضرورى ولكن هذا مستحيل وما السبب؟ مستحيل آه لو تدرين.

أرادت ناديجدا فيودوروفنا أن تحدثها عن كيريلين، وعن لقاءها مساء أمس في المرفأ بأتشميانوف الشاب الجميل، وكيف واتتها فكرة مضحكة مجنونة بالتخلص من دين الثلاثمائة روبل، وكيف كان ذلك مضحكاً للغاية، وكيف عادت إلى البيت في ساعة متأخرة وهي تشعر بنفسها ساقطة، مرتزقة بلا رجعة لم تكن هي نفسها تعرف



كيف حدث ذلك وأرادت الآن أن تقسم أمام ماريا قسطنطينوفنا بأنها سترد الدين حتماً، لكن النحيب والخجل منعها من الكلام.

ثم قالت: سأرحل فليبق إيفان أندريتش، أما أنا فسأرحل إلى روسيا وعلى أي شيء ستعيشين هناك؟ فليس لديك شيء سأعمل في الترجمة أو أو افتتح مكتبة.

- دعيك من الأوهام يا عزيزتي المكتبة بحاجة إلى نقود حسناً، سأتركك الآن، فاهدئي وفكري، وتعالى إلى غداً مرحلة سيكون هذا ساحراً حسناً وداعاً يا ملاكى هاتى أقبلك وقبلت ماريا قسطنطينوفنا ناديجدا فيودوروفنا في جبينها ورسمت عليها علامة الصليب وخرجت في هدوء كان الظلام قد حل، فأشعلت أولاً الضوء في المطبخ ومضت ناديجدا فيودوروفنا إلى غرفة النوم وهي تواصل البكاء، ورقدت على السرير وبدأت تخضها حمى شديدة ونزعت فستانها وهي راقدة وداسته تحت قدميها، وانطوت على نفسها كالكعكة تحت البطانية شعرت بظماً ولم يكن هناك من يقدم لها الماء.

سأسدد قالت لنفسها، وخيل إليها في الهديان أنها تجلس بجوار إحدى المريضات، وأنها هي نفسها تلك المريضة سأسدد من الحماسة الظن بأن النقود هي السبب في ما حدث سأسافر وأرسل له النقود من بطرسبرج في البداية مائة ثم مائة ثم مائة وجاء لايفسكي



في ساعة متأخرة من الليل فقالت له ناديجدا فيودوروفنا: في البداية مائة ثم مائة.

- هلا أخذت الكينا قال لها ثم فكر: غداً الأربعاء، تقلع السفينة ولن أسافر فيها إذن سيكون على أن أعيش هنا إلى السبت.

ونهضت ناديجدا فيودوروفنا في السرير على ركبتيها وسألته وهي تبتسم وترر عينيها من ضوء الشمعة: ألم أقل شيئاً الآن؟ لا شيء ينبغي استدعاء الطبيب غداً نامى وأخذ وسادة ومضى إلى الباب بعد أن استقر قراره على السفر وترك ناديجدا فيودوروفنا، أصبحت تثير فيه الشفقة والشعور بالذنب وكان يحس في حضورها بقليل من تأنيب الضمير، كما في حضور فرس مريضة أو عجوز قرروا إعدامها وتوقف عند الباب والتفت إليها.

- لقد كنت متضايقاً أثناء النزهة وأغلظت القول اعذريني أرجوك قال ذلك ومضى إلى غرفة مكتبه، وورقد، ولكنه لم يستطع طويلاً أن ينام في اليوم التالي، بعد أن جاء صامويلنكو مرتدياً، بمناسبة العطلة الرسمية، حلته الرسمية الكاملة، بالكتفيات والأوسمة، وجس نبض ناديجدا فيودوروفنا، ونظر إلى لسانها ثم خرج من غرفة النوم، سألته لايفسكي الواقف بجوار العتبة في قلق: ماذا هناك؟ ماذا كان وجهه ينم عن الخوف والقلق البالغ والأمل فقال صامويلنكو: اطمئن ليس



هناك شيء خطر حمي عادية فكثير لايفسكى بنفاد صبر: أنا لا
أسألك عن هذا هل حصلت على النقود؟

- اعذرني يا عزيزي - همس صامويلنكو وهو يتطلع نحو الباب
ويشعر بالحرج - أرجوك اعذرني لا أحد لديه نقود زيادة جمعت
حتى الآن من هذا خمسة ومن ذاك عشرة كل المتحصل مائة وعشرة
سأتحدث اليوم إلى بعض الأشخاص اصبر قليلاً فهمس لايفسكى
وهو يرتعد من نفاد الصبر: لكن أقصى موعد يوم السبت بحق كل
القديسين، قبل السبت إذا لم أسافر يوم السبت فلست بحاجة إلى
شيء أبدا لا أفهم كيف لا يكون لدى الدكتور نقود؟

- هذه مشيئتك يا ربى همس صامويلنكو بسرعة وتوتر حتى أن
شيئاً صر في حلقه سحبوا مني كل ما عندي، هم مدينون لي بسبعة
آلاف، وأنا مدين للجميع هل الذنب ذنبي؟.

- إذن فستحصل عليها حتى السبت؟ نعم؟ سأحاول أتوسل إليك يا
عزيزي بحيث تكون النقود في يدي صباح الجمعة وجلس صامويلنكو،
وكتب وصفة من الكينا بمحلول ومنقوع الراوند ، وكل ذلك في مزيج
واحد، وأضاف إليه قليلاً من شربات الورد حتى لا يكون مرأً، ثم انصرف.
منظره يبدو كأنك قادم لتلقي القبض على قال فون كورين



عندما رأى صامويلنكو يدخل عليه في حلته الرسمية.

- كنت مارا من هنا فقلت لنفسي: فلأعرج لأرى عالم الحيوان قال صامويلنكو وهو يجلس إلى طاولة كبيرة صنعها عالم الحيوان بنفسه من ألواح بسيطة مرحباً يا أبانا المقدس وأوماً برأسه إلى الشمس الذي كان جالساً بجوار النافذة ينسخ شيئاً ما سأجلس دقيقة ثم أركض إلى البيت لأمر بإعداد الغداء حان الوقت ألم أعطلك؟.

أبدا قال عالم الحيوان وهو يفرش على الطاولة أوراقاً مكتوبة بخط دقيق إننا نقوم بالنسخ هكذا أوه، يا إلهي، يا إلهي تنهد صامويلنكو وتناول من فوق الطاولة بحذر كتاباً معضراً كان يستقر فوقه عنكبوت ميت جاف، وقال يا سلام تصور مثلاً أن خنفسة خضراء تسيير الأمر من أمورها، وإذا بها تقابلني الطريق هذا الملعون إنني أتصور مدى رعبها؟ نعم، طبعاً.

- هل منح السم ليحمي به نفسه من الإعدام؟ - نعم، ليحمي نفسه، وليهاجم هكذا، هكذا، هكذا كل شيء في الطبيعة يا أحبائي حكيم ومفهوم وتنهد صامويلنكو ولكني لا أفهم التالي اشرح لي أنت، أيها الرجل النادر الذكي هناك، أتدرى، حيوانات صغيرة، لا تزيد عن حجم العرسة، وتبدو جميلة المظهر، ولكنها، وأقول لك، في غاية اللؤم والخسة ويسير مثل هذا الحيوان في الغابة مثلاً، وإذا



به يرى عصفوراً، فيمسكه ويلتهمه ويواصل سيره، فيرى في العشب عشاً به بيض، ورغم أنه لا يريد أن يأكل بعد، فهو شبعان، لكنه مع ذلك يكسر بيضة ويبعث الأخرى بمخلبة بعيداً عن العش ثم يقابل ضفدعة فيبدأ في اللهو بها ويقتل الضفدعة ثم يمضي وهو يلحق شواربه فتقابله خنفسه فيهوى على الخنفسه بمخلبه يسير وهو يفسد ويدمر كل شيء في طريقه يقتحم جحور الحيوانات الأخرى، ويدمر أعشاش النمل عبثاً، ويقرقض القواقع وإذا صادفته عرسه اشتبك معها في عراقك، وإذا رأى ثعباناً صغيراً أو فأرة فلا بد أن يسعى إلى خنقها وهكذا طول النهار قل لي إذن، ما الحاجة إلى مثل هذا الحيوان؟ ولماذا خلق؟ فقال فون كورين: أنا لا أعرف عن أي حيوان تتحدث يبدو أنك تقصد أحد أكلة الحشرات حسناً، فإذا؟ لقد وقع العصفور في يده لأنه غير حذر وقد حطم العش مع البيض لأن الطائر ليس حاذقاً، وصنع عشه بصورة سيئة ولم يموهه جيداً أما الضفدعة فيبدو أن لديها عيباً في الصبغة اللونية، وإلا لما استطاع أن يكتشفها وهكذا دوالي كإن حيوانك لا يقضى إلا على الضعفاء وغير الحاذقين، أي باختصار من لديهم عيوب لا ترى الطبيعة ضرورة في نقلها إلى الخلف ولا يبقى على قيد الحياة إلا الأكثر مهارة، المحاذرون، الأقوياء، والمتطورون وهكذا فإن حيوانك، دون أن يدرك ذلك، يخدم أهداف الرقي العظيمة.



- نعم، نعم، نعم، نعم بالمناسبة يا أخي قال صامويلنكو متبسطاً أعطني مائة روبل سلفاً حسناً هناك حيوانات طريفة جداً من بين أكلة الحشرات مثلاً حيوان الخلد يقال عنه إنه نافع لأنه يقضي على الحشرات الضارة ويحكى أن أحد الألمان أرسل إلى الأمبراطور غليوم الأول معطف فراء من جلود الخلد، ويقال إن الأمبراطور أمر بتوبيخه لأنه أهلك هذا العدد الكبير من الحيوانات النافعة بينما لا يقل الخلد في قسوته عن حيوانك، وعلاوة على ذلك فهو ضار للغاية؛ لأنه يلحق بالمراعي أضرار بالغة.

وفتح فون كورين علبة وأخرج منها ورقة بمائة روبل واستطرد قائلاً وهو يغلط العلبة: القفص الصدري لدى الخلد قوى جداً، مثلما لدى الوطواط وعظامه وعضلاته متطورة إلى درجة رهيبية، وفمه مسلح بصورة خارقة ولو كان بحجم الفيل لأصبح حيواناً مدمراً لا يهزم ومن الطريف أنه عندما يلتقي خلدان تحت الأرض، يشرعان فوراً، وكأننا عن اتفاق، في حفر فسحة والغاية من هذه الفسحة أن تعطيهما مجالاً أكبر للحركة أثناء العراك وما إن يحفراها حتى يشتبكا في قتال ضار، ويتقاتلان إلى أن يسقط الأضعف فيهما ثم قال فون كورين وقد خفض نبرة صوته خذ المائة روبل، ولكن بشرط ألا تكون من أجل لايفسكى فانفجر صامويلنكو: فلتكن حتى من أجله



ما دخلك أنت؟.

- لا أستطيع أن أعطيك نقوداً من أجل لايفسكي أنا أعرف أنك تحب إعطاء القروض، ولو طلب منك كريم اللص قرضاً لأعطيته، ولكن اعذرني، أنا لا أستطيع أن أساعدك في هذا الاتجاه فنهض صامويلنكو وقال وهو يلوح بذراعه اليميني: نعم، أنا أطلب من أجل لايفسكي نعم من أجل لايفسكي ولا يملك أي شيطان أو عفريت الحق في أن يعلمني كيف ينبغي أن أتصرف في نقودي أنت لا تريد أن تعطيني؟ نعم؟ وقهقهه الشماس فقال عالم الحيوان: دعك من الانفعال وفكر بروية إن البر بسيد مثل لايفسكي هو في رأيي عمل أحقق، مثل ري الأعشاب الضارة أو إطعام الجراد فصرخ صامويلنكو وفي رأيي أننا ملزمون بمساعدة أقربائنا.

في هذه الحالة فلتساعد هذا التركي الجائع الذي ينام هناك بجوار السور فهو عامل، وأكثر ضرورة ونفعاً من صاحبك لايفسكي أعطه المائة روبل هذه أو تبرع لى بمائة روبل من أجل البعثة.

- إنني أسألك، هل ستعطيني النقود أم لا؟ قل لى بصراحة: ما حاجته إلى النقود؟ هذا ليس سرّاً إنه بحاجة إلى السفر يوم السبت إلى بطرسبرج فقال فون كورين ببطء هكذا إذن آها مفهوم وهي، هل ستسافر معه أم ماذا؟ ستبقى هنا مؤقتاً سيرتب أموره في بطرسبرج



ثم يرسل إليها نقوداً، وعندئذ ستسافر فقال عالم الحيوان: يا للبراعة وضحك ضحكاً قصيراً رفيعاً يا للبراعة يا للتدبير المحكم واقترب من صامويلنكو بسرعة، ووقف أمامه وجهاً لوجه، وحدق في عينه وسأله: قل لي بصراحة: هل كف عن حبها؟ نعم؟ قل: كف عن حبها؟ نعم؟ نعم نطق صامويلنكو وتصبب عرقاً يا للدناءة قال فون كورين وظهر على وجهه الإحساس بالاشمئزاز واحدة من اثنتين يا ألكسندر دافيديتش: إما أنك متواطئ معه، أو أنك، لا مؤاخذاً، أهبل ألا تفهم حقاً أنه يضحك عليك كأنك طفل، بطريقة في غاية الانحطاط؟ أليس واضحاً كالشمس أنه يريد التخلص منها وتركها هنا؟ وستبقى عالية عليك، ومن الواضح كالشمس أنه سيكون عليك أن تسفرها إلى بطرسبرج على حسابك أمن المعقول أن صديقك الرائع قد أعماك بفضائله إلى هذه الدرجة فأصبحت لا ترى حتى أبسط الأشياء؟ فقال صامويلنكو وهو يجلس: - هذه مجرد افتراضات.

- افتراضات؟ إذن فلماذا يسافر وحده وليس معها؟ ولتسأله لماذا لا تسافر هي أولاً وهو بعدها؟ هذا المحتال اللئيم خار صامويلنكو فجأة وقد صدمته الشكوك والريب المفاجئة بخصوص صديقه، فهبطت نبرته وقال وهو يتذكر الليلة التي بات فيها لايفسكي عنده: ولكن هذا مستحيل إنه يعاني جداً وماذا يعني ذلك؟ اللصوص



والمخربون أيضاً يعانون فقال صامويلنكو مفكراً لنفرض حتى إنك على حق لنفرض ولكنه شاب، في أرض غريبة طالب، ونحن أيضاً طلبة، ولا يوجد هنا أحد غيرنا يمكن أن يسانده.

- تساعده في صنع الدنئات، فقط لأنكما كنتما في أوقات مختلفة طلاب جامعة، وكلاكما لم تفعلوا هناك شيئاً ما هذا الهراء.

مهلاً، دعنا نفكر بأعصاب باردة أعتقد أنه من الممكن أن تفعل هكذا قال صامويلنكو مفكراً وهو يلعب أصابعه سأعطيهِ النقود، ولكني سأخذ منه كلمة شرف نبيلة بأن يرسل في طلب ناديجدا فيودوروفنا بعد أسبوع وسيعطيك كلمة شرف، بل وستدمع عيناه، وسيصدق نفسه، لكن ما قيمة هذه الكلمة؟ لن يفي بها، وعندما ستلقاه بعد عام أو عامين في شارع نيفسكى متأبط ذراع حب جديد، سيبرر لك ذلك بأن الحضارة أفسدته، وبأنه نسخة من رودين دعك منه، اعمل معروفاً ابتعد عن القذارة ولا تتقب فيها بكلتا يديك.

ففكر صامويلنكو دقيقة ثم قال بحسم: ومع ذلك سأعطيهِ النقود كما تشاء أنا لا أستطيع أن أرفض رجاء الشخص على أساس الافتراضات وحدها.

- عظيم جداً فلتهنأ به فرجاه صامويلنكو بوجل: أعطني إذن



المائة روبل - لن أعطيك.

وحل الصمت خار صامويلنكو تماماً واكتسب وجهه ملامح الذنب والاستحياء والتزلف وكان من الغريب أن ترى هذا الوجه البائس الخجول كطفل لرجل ضخيم يحمل الكتفيات والأوسمة وقال الشماس وهو ينحي القلم

- قداسة الأسقف المحلى يطوف على أبرشيته لا في عربة بل على ظهر حصان منظره وهو راكب على الحصان مؤثر للغاية بساطته وتواضعه مفعمتان بعظمة نورانية.

فسأل فون كورين الذي سره تغير مجرى الحديث هل هو شخص طيب؟ وكيف لا؟ لو لم يكن طيباً فهل كانوا يرسمونه أسقفاً؟ فقال فون كورين يوجد بين الأساقفة أشخاص طيبون جداً وموهوبون المؤسف فقط أن الكثيرين منهم يعييبهم أنهم يتصورون أنفسهم رجال دولة فبعضهم يمارس الترويس، والبعض الآخر ينتقد العلوم ليس هذا من شأنهم الأفضل لو ترددوا أكثر على إداراتهم الدينية رجل الدنيا لا يستطيع أن يحكم على الأساقفة لماذا يا شماس؟ الأسقف شخص مثلي تماماً فغضب الشماس وتناول القلم: مثلك وليس مثلك لو كنت مثله لحلت بك البركة ولأصبحت أسقفاً وما دمت لست أسقفاً فمعناه أنك لست مثله فقال صامويلنكو بضيق كف عن الهراء يا



شماس وقال مخاطباً فون كورين اسمع، لقد وجدت حلاً لا تعطني المائة روبل هذه أنت ستطعم عندي ثلاثة أشهر أخرى حتى الشتاء، إذن فلتعطني مقدماً عن هذه الأشهر الثلاث- لن أعطيك أي تحويل الأشخاص من غير الروس إلى روس.

طرف صامويلنكو بعينيه وتضرج، وسحب بحركة آلية الكتاب ذا العنكبوت وتطلع إليه، ثم نهض وتناول قبعته وشعر فون كورين بالشفقة عليه فقال وهو يركل بقدمه في غضب إحدى الأوراق إلى الركن: فلتحاول أن تعيش وتصنع شيئاً بمثل هؤلاء السادة فلتفهم أن هذه ليست طيبة قلب، ليس حباً، بل جبناً، تسبياً، ساء ما يفعله العقل تدمره قلوبكم المترهلة العاجزة عندما كنت تلميذاً ومرضت بالتيفود، اطعمتني خالتي فطراً مخللاً رافة بحالي فكدت أموت فلتفهم أنت وخالتي أن حب الشر لا ينبغي أن يكون في القلب أو في الجوانح أو في الخصر، بل هنا.

وخبط فون كورين على جبينه ثم قال: خذ وألقى بالورقة ذات المائة روبل فقال صامويلنكو بوداعة وهو يطوى الورقة: عبثاً تغضب يا كوليا إنني أفهمك تماماً، ولكن ضع نفسك في مكاني أنت امرأة عجوز ليس إلا فقهقه الشماس وقال فون كورين بحرارة: سامع يا ألكسندر دافيديتش، رجاء أخيراً عندما تعطى النقود لذلك النذل



أعرض عليه هذا الشرط: فإما أن يسافر مع سيدته، وإما يسفرها أولاً، وبغير ذلك لا تعطه لا مجال للتخرج معه هكذا قل له وإذا لم تقل فأقسم لك بشرفي إنني سأذهب إليه في مكتبه وأسحبه على الدرج، ولن أعرفك بعد ذلك فلتعلم هذا فقال صامويلنكو: حسناً، لو سافر معها أو أرسلها قبلة فسيكون ذلك أفضل له بل سيكون مسروراً لذلك طيب، وداعاً.

ودع برقة وخرج، ولكن قبل أن يغلق الباب خلفه التفت إلى فون كورين وأصبح وجهه مرعباً، وقال إنهم الألمان الذين أفسدوك يا أخي نعم الألمان في اليوم التالي، الخميس، احتفلت ماريا قسطنطينوفنا بعيد ميلاد ابنها كوستيا ودعى الجميع لتناول الكعكة ظهراً، ولشرب محلول الشيكولاته مساء وعندما وصل لايفسكي وناديجدا فيودوروفنا في المساء، مال فون كورين، الذي كان جالساً في غرفة الجلوس يشرب محلول الشيكولاته، على صامويلنكو وسأله: هل تحدثت معه؟

- ليس بعد.

- انتبه، لا تتخرج معه أنا لا أفهم وقاحة هؤلاء السادة إنها يعلمون جيداً نظرة هذه الأسرة إلى علاقتهما غير الشرعية ومع ذلك يقحمان أنفسهما هنا فقال صامويلنكو: لو راعيت كل تحيز مغرض فسيكون عليك ألا تخرج إلى أي مكان وهل اشمئزاز العامة من علاقة الحب



غير المشروعة ومن الانحلال تحيز مغرض؟.

طبعاً تحيز مغرض وحقد فالجنود عندما يرون فتاة خليعة يقهقهون ويصفرون، فلتسألهم من يكونون هم؟.

ليس عبثاً يصفرون فعندما تخنق البغايا أطفالهن الحرام ويمضين إلى الأشغال الشاقة، وعندما تلقى أنا كارنينا بنفسها تحت عجلات القطار، وعندما يلوثون الأبواب بالقطران في القرى، وعندما لسبب ما يعجبني وإياك في كاتيا طهارتها، وعندما يشعر كل منا بالحاجة المبهمة إلى الحب الطاهر، رغم أنه يعلم أن مثل هذا الحب غير موجود فهل هذا كله تحيز مغرض؟ إن هذا يا أخي هو الشيء الوحيد الذي تبقى من قانون الانتخاب الطبيعي، ولولا هذه القوة المجهولة التي تنظم العلاقة بين الجنسين لأراك السادة آل لايفسكى الويل، ولتفسخت البشرية في غضون عامين.

دخل لايفسكى غرفة الجلوس وسلم على الجميع، وابتسم بتزلف وهو يصافح فون كورين وانتظر فرصة مناسبة وقال لصامويلنكو: عفواً يا ألكسندر دافيديتش، أريدك في كلمتين.

ونفض صامويلنكو، وضمه إليه من خصره، وذهبا معاً إلى غرفة مكتب نيكو ديم ألكسندر يتش وقال لايفسكى وهو يقضم أظافره: غداً



الجمعة هل حصلت على ما وعدتني به؟

- حصلت فقط على مائتين وعشرة الباقي سأحصل عليه اليوم أو غداً كن مطمئناً فتنهد لايفسكى وارتعشت يدها من الفرحة: الحمد لله لقد أنقذتني يا ألكسندر دافيديتش، وأقسم لك بالله، بسعادتي، بكل ما تريد، إنني سأرسل إليك هذه النقود بمجرد وصولي وديني القديم سأرسله كان من العادات القديمة في الريف إذا ظهر أن العروس لم تكن عذراء أن يلوثوا باب بيتها بالقطران الأسود فقال صامويلنكو وهو يمسك بزرار لايفسكى ويتضرج اسمع يا فانيا اعذرني إذا كنت أتدخل في شئونك العائلية، ولكن لماذا لا تسافر مع نادي جدا فيودوروفنا؟.

- يا لك من غريب، وهل هذا ممكن؟ لا بد أن يبقى أحدنا، وإلا جن جنون الدائنين فأنا مدين لأصحاب المحلات بحوالي سبعمائة روبل، أو أكثر انتظر، سأرسل لهم النقود، وأسد أفواههم، وعندها ستسافر هي أيضاً من هنا.

- طيب ولماذا لا تسفرها هي أولاً؟ فقال لايفسكى بجزع: آه يا إلهي، وهل هذا ممكن؟ إنها امرأة، فما الذي ستستطيع أن تفعله هناك؟ ما الذي تعرفه؟ سيكون هذا مجرد تعطيل وتبيد للنقود بلا معنى.

فقال صامويلنكو في نفسه: معقول، ولكنه تذكر حديثه مع فون



كورين فأطرق وقال عابساً: أنا لا أستطيع أن أوافقك على رأيك فيما إن تسافر معها، وإما أن تسفرها أولاً، وإلا فلا أعطيك النقود هذا آخر كلام عندي وتقهقر بظهره وناخ به على الباب، وخرج إلى غرفة الجلوس محمراً، في غاية الارتباك وفكر لايفسكي وهو يعود إلى غرفة الجلوس: الجمعة الجمعة الجمعة وقدموا له كوب شيكولاته، ولسعت الشيكولاته الساخنة شفثيه ولسانه ومضى يفكر:

إلى الجمعة الجمعة السبب ما لم تترك كلمة الجمعة ذهنه، فلم يفكر في شيء آخر سوى الجمعة، وأصبح واضحاً له فقط، ولكن ليس في رأسه، بل في مكان ما تحت قلبه، أنه لن يستطع السفر يوم السبت ووقف أمامه نيكوديم ألكسندريتش مهندياً، بصدغين ممشطين، وراح يرجوه تفضل كل، لو تكرمت وعرضت ماريا قسطنطينوفنا على الضيوف علامات كاتيا المدرسية وهي تقول ببطء أصبحت الدراسة الآن صعبة جداً، جداً يطالبونهم بأشياء كثيرة فتتن كاتيا: ماما ولا تعرف أين تخفي وجهها من الخجل والمديح وشاهد لايفسكي أيضاً العلامات وامتدحها وقفزت أمام عينيه مواد الدين، واللغة الروسية، والسلوك، والخمسات والأربعات، وبدا له ذلك كله، بالإضافة إلى الجمعة التي ألحت عليه، وصدغى نيكوديم ألكسندريتش الممشطين، وخذى كاتيا الأحمرين، بدا له وحشة لا تحد ولا تقهر حتى إنه كاد



يصرخ بأساً، وسأل نفسه: أحقاً، أحقاً لن أسافر؟ ووضعوا طاولتي لعب متجاورتين وجلسوا ليلعبوا ساعي البريد وجلس لايفسكى أيضاً الجمعة الجمعة فكر وهو يبتسم ويخرج قلما من جيبه - الجمعة.

وأراد أن يفكر في أمره وفي الوقت نفسه خاف من التفكير كان مخيفاً أن يعترف بأن الدكتور كشف خداعه الذي أخفاه طويلاً وبعناية عن نفسه ففي كل مرة فكر فيها في مستقبله لم يكن يترك الحرية الكاملة لأفكاره سيستقل القطار ويرحل وبهذا تحل قضية حياته، ولم يكن يترك أفكاره تمضي إلى أبعد وكضوء كاب بعيد في حقل كانت تومض في رأسه أحياناً فكرة، بأنه في مكان ما، بإحدى حارات بطرسبرج، في المستقبل البعيد، سيضطر إلى كذبة صغيرة لكي يفترق عن ناديجدا فيودوروفنا ويسدد الديون سيكذب مرة واحدة فقط، ثم يأتي التجدد الشامل وهذا حسن: فيكذبة صغيرة سيشتري الحقيقة الكبيرة أما الآن، وعندما ألمح الدكتور بصراحة فجة إلى خداعه حين رفض طلبه، فقد أصبح واضحاً لديه أنه سيلجأ إلى الكذب لا في المستقبل البعيد فحسب، بل اليوم وغداً، وبعد شهر، وربما حتى إلى آخر العمر وبالفعل، فلكى يرحل سيكون عليه أن يكذب على ناديجدا فيودوروفنا وعلى الدائنين وعلى رؤسائه وبعد ذلك، ولكي يحصل في بطرسبرج على نقود، سيضطر إلى



الكذب على أمه فيقول لها إنه انفصل فعلاً عن ناديجدا فيودوروفنا ولن تعطيه أمه أكثر من خمسمائة روبل، إذن فقد خدع الدكتور أيضاً، لأنه لن يكون قادراً على إرسال النقود إليه في وقت قريب وبعد ذلك، وعندما تأتي ناديجدا فيودوروفنا إلى بطرسبرج، سيكون عليه أن يلجأ إلى سلسلة كاملة من الأكاذيب الصغيرة والكبيرة لكي ينفصل عنها ومن جديد الدموع، الملل، والحياة المقرفة، والندم، إذن فلن يكون هناك أي تجدد الخداع ولا شيء سواه وارتفع في خيال لايفسكى تل كامل من الأكاذيب ولكي يقفز من فوقه دفعة واحدة ولا يلجأ إلى الكذب على دفعات، لا بد من الإقدام على خطوة حاسمة، كأن ينهض مثلاً، دون كلمة واحدة، ويرتدي قبعته، ويرحل فوراً بدون نقود، ودون كلمة واحدة ولكن لايفسكى كان يشعر بأن هذا مستحيل بالنسبة له الجمعة الجمعة فكر لايفسكى الجمعة كانوا يكتبون رسائل قصيرة، ويطوونها نصفين، ويضعونها في قبعة نيكوديم ألكسندرريتش الأسطوانية القديمة، وعندما يتجمع منها عدد كاف، يقوم كوستيا، الذي يمثل دور ساعي البريد، بالطواف على المائدة وتوزيعها عليهم وكان الشماس وكاتيا وكوستيا، الذين تلقوا رسائل مضحكة ويحاولون كتابة رسائل أكثر إضحاكاً، كانوا في قمة الإعجاب نحن بحاجة إلى أن نتحدث قرأت ناديجدا فيودوروفنا في الرسالة تبادلنا النظر مع ماريّا قسطنطينوفنا فابتسمت هذه ابتسامة لوزية وأومات برأسها



وعم نتحدث؟ فكرت ناديجدا فيودوروفنا إذا لم يكن من الممكن أن أروى كل شيء فلا معنى للحديث.

قبل أن تخرج إلى الزيارة عقدت للايفسكى ربطة عنقه، فملاً هذا العمل التافه روحها بالرقرة والحزن وأوحى إليها القلق المرتسم على وجهه، ونظراته الشاردة، وشحوبه، والتغير غير المفهوم الذي طرأ عليه في الأيام الأخيرة، وكتمانها عنه سرراً رهيباً شنيعاً، وارتعاش يديها عندما كانت تعقد ربطة عنقه كل ذلك أوحى إليها بسبب ما بأنه لم يبق لهما إلا وقت قصير للحياة معاً وأخذت تتطلع إليه كما تتطلع إلى أيقونة، بخوف وندم، وهي تقول في خاطرها: سامحني، سامحني وكان أتشميانوف جالساً قبالتها إلى الطاولة ولا يحول عنها عينيه السوداوين العاشقتين وأثارتهما الرغبات، فخجلت من نفسها وخافت من أنه حتى الكآبة والحزن لن يمنعها من الاستسلام للشهوة المدنسة، إن لم يكن اليوم فغداً، وإنها، كالكسكير المدمن، لم تعد قادرة على التوقف ولكي لا تمضي في هذه الحياة المشينة لها، والمهينة للايفسكى، فقد قررت أن ترحل سوف تضرع إليه باكية أن يدعها ترحل، فإذا عارض فسوف تتركه خفية ولن تخبره بما حدث فتبقى ذكراها لديه طاهرةً أحبك، أحبك، أحبك قرأت في الورقة إنها من أتشميانوف وستعيش في مكان ناء، وستعمل، وترسل إلى لايفسكى



من مجهول بالنقود والقمصان المطرزة، والتبغ، ولن ترجع إليه إلا في الشيخوخة وفي حالة ما إذا مرض مرضاً خطيراً واحتاج إلى من يرعاه وعندما يعلم في الشيخوخة بالأسباب التي جعلتها ترفض أن تصبح زوجته وتتركه، فسوف يقدر تضحيتها ويغفر لها أنفك طويل يبدو أنها من الشماس أو من كوستيا وتخيلت ناديجدا فيودوروفنا كيف ستعانق لايفسكى بشدة عند الوداع، وتقبل يده، وتقسم له بأنها ستظل تحبة طوال العمر، وكيف ستفكر بعد ذلك كل يوم، وهي تعيش في المكان النائي، بين أناس غرباء، بأن لديها صديقاً، حبيباً، طاهراً، نبيلاً، سامياً، يحفظ لها ذكرى طاهرة إذا لم تحدد لي اليوم موعداً فسأخذ إجراءتي، وأؤكد لك بشرفي الناس المحترمون لا يعملون بهذه الصورة، ينبغي أن تفهمي ذلك هذه من كيريلين.

وصلت لايفسكى رسالتان، ففض إحداهما وقرأ: لاتسافر أيها الغالى من يا ترى كاتب هذا؟ فكر لايفسكى بالطبع ليس صامويلنكو وليس الشماس لأنه لا يعرف أنني أريد أن أسافر أهو فون كورين إذن؟.

كان عالم الحيوان منكباً على الطاولة يرسم هرماً وخيل إلى لايفسكى أن عينيه تبتسمان وفكر لايفسكى: يبدو أن صامويلنكو ثرثر عفواً وفي الرسالة الثانية، التي كانت مكتوبة بنفس الخط المكسر، بحروف ذات ذيول طويلة وزخارف، قرأ: هناك شخص لن يسافر يوم



السبت وفكر لايفسكى: بسخريه سخيفة الجمعة، الجمعة وصعد شيء ما إلى حلقه فتحسس لايفسكى باقة قميصه وسعل، ولكن بدلاً من السعال انطلق من حلقة الضحك هاهاها قهقهه لايفسكى هاهاها وفكر ما هذا، ما الذي أضحكني؟ هاهاها.

وحاول أن يكبح نفسه، و سد فمه براحته، ولكن الضحك ضغط على صدره وعنقه، لم تستطع يده أن تسد فمهما أغبي هذا مع ذلك فكر وهو يتلوى من الضحك هل جنت أم ماذا؟.

تعالى الضحكات أكثر فأكثر وتحولت إلى ما يشبه نباح كلب صغير وأراد لايفسكى أن ينهض ويغادر الطاولة ولكن قدميه لم تطاوعاه، بينما قفزت يده اليمنى بصورة غريبة ورغماً عنه فوق الطاولة، وأخذت تلتقط الأوراق بعصية وتعصرها ورأى أمامه عيوناً مندهشة، ووجه صامويلنكو الجاد المذعور، ونظرة عالم الحيوان المليئة باستهزاء بارد وتقرز، فأدرك أنه أصيب بحالة هستيريا.

يا للخزي، يا للفضيحة - فكر لايفسكي وهو يشعر بدفع الدموع على وجهه آه، آه، يا للعار لم يحدث لي هذا أبداً من قبل وهاهم أولاء قد رفعوه من تحت إبطيه وقد أسندوا رأسه من الخلف، وجروه إلى مكان ما وها هو ذا كوب يلمع أمام عينيه ويصطدم بأسنانه، فينسكب الماء على صدره وها هي ذي غرفة صغيرة في وسطها



سريان متجاوران مغطيان بغطائين نظيفين أبيضين كالثج وتهالك على أحدهما وانخرط في النحيب لا بأس، لا بأس قال صامويلنكو هذا يحدث هذا يحدث.

كانت ناديجدا فيودوروفنا متثلجة الأطراف من الخوف، وبدنها كله يرتجف وهي تتوقع حدوث شيء رهيب ووقفت بجوار السرير تسأل لايفسكى: ماذا بك؟ ماذا؟ قل لي أرجوك وفكرت: أيكون كيريلين قد كتب له شيئاً ما؟ فقال لايفسكى وهو يضحك ويبيكى: لا شيء اخرجني من هنا يا عزيزتي لم يكن وجهه يعبر عن الكراهية أو الاحتقار، إذن فهو لا يعلم بشيء واطمأنت ناديجدا فيودوروفنا قليلاً وخرجت إلى غرفة الجلوس.

لا تقلقي يا عزيزتي قالت لها مارييا قسطنطينوفنا وهي تجلس إلى جوارها وتمسك يدها هذا سيمر الرجال أيضاً ضعفاء مثلنا نحن الخاطئات أنتما الاثنان تمران الآن بأزمة هذا مفهوم تماماً حسناً يا عزيزتي، إنني انتظر الرد هيا نتحدث فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تصغي إلى نحيب لايفسكى: كلا، لن نتحدث عندي انقباض أسمحي لي أن أذهب فقالت مارييا قسطنطينوفنا بجزع: ماذا تقولين يا عزيزتي أظنني حقاً أنني أتركك تذهبين بدون عشاء؟ فلنأكل أولاً ثم اذهبي في رعاية الله فهمست ناديجدا فيودوروفنا عندي انقباض



وتشبثت بذراع المقعد بكلتا يديها حتى لا تسقط عنده تشنج قال فون كورين بمرح وهو يدلّف إلى غرفة الجلوس، ولكنه أخرج عندما رأى ناديجدا فيودوروفنا فخرج وعندما انتهت الهستيريا جلس لايفسكي على السرير الغريب وفكر: يا للعار، تملكني البكاء كطفل لا بد أنني مضحك ومقزز فلأنصرف من الباب الخلفي ولكن سيكون معنى ذلك أنني أولى أهمية كبيرة لهذه الهستيريا من الأفضل تحويل الأمر إلى مزحة وتطلع في المرآة، ثم جلس بعض الوقت، وخرج إلى غرفة الجلوس ها أنا ذا قال مبتسماً كان يشعر بخجل مضمّن، وأحس أن الآخرين يعانون أيضاً من الخجل في حضوره فقال وهو يجلس ما أغرب ما يحدث أحياناً كنت جالساً وفجأة، أتدرون، أحسست بالألم رهيب يخزني في جنبي ألم لا يطاق، فلم تتحمل أعصابي وحدث هذا الأمر السخيف نحن في عصر القلق، فيم العمل؟.

أثناء العشاء كان يشرب الخمر ويتحدث، ويزفر أحياناً بتوتر وهو يمسح على جنبه كأنما ليظهر أن الألم لم يزياله تماماً ولم يصدقه أحد، سوى ناديجدا فيودوروفنا، ورأى هو ذلك في حوالي الساعة العاشرة ذهبوا للتنزه في البوليفار وخافت ناديجدا فيودوروفنا أن يتحدث كبريلين إليها، فحاولت طوال الوقت أن تظل إلى جوار ماريّا قسطنطينوفنا والأولاد أحست بالضعف من الخوف والضيق، وأدركها



التعب وهي تشعر باقتراب نوبة الحمي، فسارت تجرجر قدميها، ولكنها لم تتصرف إلى البيت لأنها كانت واثقة من أن كيريلين أو أتشميانوف، أو الاثنين معاً سيبتعانها وسار كيرلين خلفها مع نيكوديم ألكسندريتش وهو يندندن بصوت خافت: لن أسمح باللعب بي لن أسمح.

انعطفوا من البوليفار إلى المقصف، ثم ساروا على الشاطئ، وظلوا ينظرون طويلاً إلى مياه البحر الفوسفورية المضيئة ومضى فون كورين يشرح هذه الظاهرة على أن أذهب للعب أنهم في انتظاري قال لايفسكى وداعاً ياسادة وأنا معك، انتظر قالت ناديجدا فيودوروفنا وتأبطلت ذراعه وودعا الجماعة وانصرفا وودع كيريلين أيضاً وقال إنه في نفس اتجاهها، وسار إلى جوارهما فليكن ما يكون فكرت ناديجدا فيودوروفنا فليكن.

وخيل إليها أن كل الذكريات السيئة خرجت من رأسها وتسير في العتمة إلى جوارها وتلهث بتوتر، أما هي، فكانت كالذبابة التي وقعت في حبر، تسير بصعوبة في الشارع وتلوث جنب لايفسكى ويده بالسواد وفكرت: لو أقدم كيريلين على ارتكاب عمل سيئ فلن يكون هو المذنب في ذلك، بل هي ألم يكن هناك زمن لم يتحدث فيه أي رجل معها كما يتحدث كيرلين، وهي نفسها التي قطعت ذلك الزمن كما يقطع الخيط وقضت عليه دون رجعة فمن المذنب في ذلك؟ لقد



أعمتها رغباتها فأخذت تبتسم لرجل غريب عنها تماماً، فقط لأنه فخم الهيئة وفارع الطول، وأضجرتها بعد لقائين اثنين فهجرته، أفلا يحق له لهذا السبب فكرت الآن أن يعاملها كما يحلو له؟.

وتوقف لايفسكى عن السير وقال: هنا يا عزيزتي سأودعك سيوصلك إيليا ميخايليتش وانحني لكيريلين، ومضى بسرعة بعرض البوليفار، وعبر الشارع إلى منزل شيشكوفسكى، حيث لاح الضوء في النوافذ، وتناهى بعد ذلك صوت باب السياج وهو يغلقه خلفه وبدأ كيريلين يقول: فلتسمحي لي أن أستوضح منك أنا لست صبياً، لست أحد هؤلاء الأتشكسوف أو لاتشكاسوف، زاتشكسوف أنا أطالبك باهتمام جاد دق قلب ناديجدا فيودوروفنا بعنف ولم ترد بشيء فمضى كيريلين يقول: في البداية فسرت تحوّلك الحاد في التعامل معي بأنه دلال أما الآن فأرى أنك ببساطة لا تجيدين معاملة الناس المحترمين لقد أردت ببساطة أن تلعبيني، مثلما تلعبين بهذا الصبي الأرمني، ولكني رجل محترم وأطالب بأن أعامل كرجل محترم وهكذا فأنا تحت أمرك أنا عندي انقباض قالت ناديجدا فيودوروفنا وبكت، ولكي تخفي دموعها حولت وجهها.

- أنا أيضاً عندي انقباض، ولكن ماذا يترتب على ذلك؟.

وصمت كيريلين قليلاً، ثم قال بوضوح وببطء: أكرر لك يا سيدتي:



إنه إذا لم تحددني إلى اليوم لقاء، فسوف أثير اليوم فضحية.

دعني اليوم أرجوك قالت ناديجدا فيودوروفنا وهي لا تتعرف على صوتها إذا كان ربيعاً يثير الشفقة يجب أن ألقنك درساً اعذرني على هذه اللهجة القاسية، ولكن من الضروري أن ألقنك درساً نعم، للأسف ينبغي أن ألقنك درساً أنا أطلب لقائين : اليوم وغداً بعد غد أنت حرة تماماً ويمكنك أن تمضي إلى حيث تشائين ومع من تريدين اليوم وغداً.

اقتربت ناديجدا فيودوروفنا من باب سور بيتها وتوقفت وهمست وبدنها كله يرتجف وهي لا ترى أمامها شيئاً في الظلام سوى سترة بيضاء.

- اتركني أرجوك أنت على حق، أنا امرأة فظيعة أنا مذنب، ولكن اتركني أرجوك ولمست يده الباردة فانتفضت أتوسل إليك فزفر كيريلين قائلاً: وأسفاه، وأسفاه ليس في نيتي أن أتركك، أريد فقط أن ألقنك درساً، أجعلك تفهمين وعلاوة على ذلك يا مدام فأنا لا أثق كثيراً في النساء أنا عندي انقباض أصغت ناديجدا فيودوروفنا إلى صخب البحر المنتظم، ونظرت إلى السماء المرصعة بالنجوم، فأحست بالرغبة في الانتهاء من كل هذا بسرعة، والتخلص من الإحساس اللعين بالحياة ببحرها ونجومها ورجالها وحماها فقالت ببرود: فقط ليس عندي في البيت خذني إلى أي مكان فلنذهب إلى



مريدوف أفضل مكان، أين هذا؟ قرب الجسر القديم.

مضت في الشارع بسرعة، ثم انحرفت إلى حارة تفضي إلى الجبال كان الجو مظلماً وهنا وهناك تناثرت على أرض الشارع خطوط ضوء شاحبة من النوافذ المضاء، فخيل إليها أنها كالذبابة، تارة تسقط في الحبر، وتارة أخرى تخرج منه إلى النور وسار كبريلين خلفها وفي أحد الأماكن تعثر وكاد أن يسقط فضحك وفكرت ناديجدا فيودروفنا: إنه سكران سيان سيان فليكن وبعد فترة قصيرة ودع أتشميانوف أيضاً الجماعة، ومضى في إثر ناديجدا فيودروفنا لكي يدعوها لنزهة في قارب، اقترب من بيتها، ونظر عبر الحديقة: كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ولا ضوء فيها.

ونادى ناديجدا فيودروفنا ومررت دقيقة، فنادى ثانية من هناك؟ سمع صوت أولجا ناديجدا فيودروفنا موجودة؟ لا لم تأت بعد.

همه غريبة غريبة جداً فكر أتشميانوف وقد بدأ يشعر بقلق شديد لقد انصرفت عائدة إلى البيت وتمشي في البوليفار، ثم في الشارع، وأطل في نوافذ دار شيشكوفسكى كان لايفسكى يجلس إلى الطاولة بدون سترة ويحرق في أوراق اللعب باهتمام.

- غريبة، غريبة دمدم أتشميانوف، وأحس بالخجل عندما تذكر



الهستيريا التي أصابت لايفسكى إذا لم تكن في البيت فأين هي؟
وذهب ثانية إلى بيت ناديجا فيودر وفنا، ونظر إلى النوافذ
المظلمة هذا خداع، خداع فكر وهو يتذكر أنها هي التي وعدته
بالتزهر معه مساء في القارب عندما التقى بها ظهر اليوم عند آل
بيتو جوف.

كانت نوافذ المنزل الذي يقطنه كيريلين مظلمة، وجلس شرطى
على الأريكة قرب البوابة مستغرقاً في النوم وعندما نظر أتشميانوف
إلى النوافذ وإلى الشرطي أدرك كل شيء وقرر أن يعود إلى بيته،
ومضى، ولكنه وجد نفسه من جديد بالقرب من بيت ناديجا
فيودروفنا وهنا جلس على الأريكة، ونزع قبعته وهو يشعر برأسه
يحترق من الغيرة والحنق.

كانت ساعة كنيسة المدينة لا تدق إلا مرتين في اليوم: في الظهر
وفي منتصف الليل وبعد أن دقت معلنة منتصف الليل بقليل تنهى
صوت خطوات مستعجلة.

- إذن غدا مساء عند مريدوف ثانية سمع أتشميانوف فغرف
صوت كيريلين في الثامنة إلى اللقاء وظهرت ناديجا فيودروفنا
بجوار حديقة المنزل ولم تلاحظ أتشميانوف وهو جالس على الأريكة



فمرت بجواره كالظل، وفتحت باب السور وتركته مفتوحاً ودلفت إلى البيت وأشعلت في غرفتها شمعة، ونزعت ثيابها بسرعة، ولكنها لم تذهب إلى الفراش، بل جثت على ركبتها أمام الكرسي، واحتضنته، وألصقت جبينها به وعاد لايفسكي إلى البيت والساعة تدور في الثالثة قرر لايفسكي ألا يكذب دفعة واحدة بل على أجزاء، فتوجه في اليوم التالي إلى صامويلنكو ليطلب نقوداً ليرحل يوم السبت من كل بد كان من المستحيل أن يبقى في المدينة بعد نوبة الهستيريا بالأمس، التي أضافت إلى حالته النفسية السيئة إحساساً حاداً بالخجل فإذا ما أصر صامويلنكو على شروطه فكر لايفسكي فسيوافقها عليها ويأخذ النقود، ثم يقول له غداً، في لحظة الرحيل الأخيرة أن ناديجدا فيودوروفنا رفضت أن تسافر وسيعمل في المساء على إقناعها بأنه يفعل كل ذلك من أجل مصلحتها أما إذا رفض صامويلنكو، الواقع تحت تأثير فون كورين الواضح، أن يعطيه النقود بتاتاً، أو تقدم بشروط جديدة، فإن لايفسكي سيرحل اليوم مباشرة على سفينة بضائع أو في قارب شراعي إلى نوفي أفون أو نوفوروسيسك، ويرسل من هناك برقية ذليلة إلى أمه، ويبقى هناك إلى أن ترسل له أمه أجرة الطريق.

عندما وصل إلى بيت صامويلنكو وجد في غرفة الجلوس فون كورين



كان عالم الحيوان قد جاء لتوه لتناول الغداء، وكالعادة فتح الألبوم وراح يتفحص الرجال ذوي القبعات الأسطوانية والنساء ذوات القلنسوات.

وفكر لايفسكى عندما رآه: جاء في غير وقته يمكن أن يفسد الأمر مرحباً مرحباً أجاب فون كورين دون أن ينظر إليه ألكسندر دافيديتش موجود؟ نعم في المطبخ توجه لايفسكي إلى المطبخ، ولكنه رأى من الباب أن صامويلنكو مشغول بإعداد السلطة، فعاد إلى غرفة الجلوس وجلس كان يشعر في حضرة عالم الحيوان دائماً بالحرج، أما الآن فكان يخشى أنه سيضطر إلى الحديث عن نوبة الهستيريا ومر أكثر من دقيقة في صمت وفجأة رفع فون كورين عينيه إلى لايفسكى وسأله: كيف حالك بعد نوبة الأمس؟ فأجاب لايفسكى وهو يتضرج: رائع في الواقع لم يحدث شيء يذكر حتى الأمس كنت أعتقد أن الهستيريا لا تصيب إلا السيدات، لذلك ظننت في البداية أنك أصبت بالرقاص.

فابتسم لايفسكى بتزلف وفكر: يا لها من عدم لباقة من جانبه إنه يعلم جيداً أنني في حالة صعبة وقال وهو لا يزال يبتسم: نعم، كانت حادثة مضحكة لقد أخذت أضحك اليوم طول الصباح المفارقة في نوبة الهستيريا أنك تعلم أنها سخيفة، وتسخر منها في نفسك، وفي الوقت نفسه تنتحب إننا في عصرنا القلق هذا عبيد أعصابنا فهي



أسيادنا وتفعل بنا ما تشاء وفي هذا الصدد فقد أسدت الحضارة
إلينا خدمة كخدمة الدب لصاحبه.

كان لايفسكى يتحدث ويشعر بالضيق من أن فون كورين يصغى
إليه بجدية واهتمام، ويحقد فيه بإمعان دون أن تطرف عيناه، وكأنه
يدرسه وأحنقه من نفسه أنه رغم كل نفوره من فون كورين، لم يستطع
أبداً أن يمسح عن وجهه ابتسامته المتزلفة ومضى يقول:

وإن كان على أن أعترف بأنه كانت هناك أسباب مباشرة للنوبة،
وأسباب لها ما يبررها لقد تدهورت صحتي بشدة في الآونة الأخيرة
أضف إلى ذلك الملل، والإفلاس المستمر وعدم وجود ناس أو
اهتمامات مشتركة.

وضعي في سوء ما بعده سوء فقال فون كورين: نعم، وضعك بلا
مخرج هذه الكلمات الهادئة الباردة، التي لا يعرف أن كانت تنطوي
على سخرية أم على نبوءة متطفلة، أهانت لا يفسكى وتذكر نظرة
عالم الحيوان بالأمس، المليئة بالسخرية والاشمئزاز، فصمت قليلاً،
ثم سأل وقد كف عن الابتسام: ومن أين عرفت بوضعي؟

- أنت تحدثت عنه بنفسك الآن، ثم إن أصدقاءك يبدون تعاطفاً
حاراً معك، إلى درجة أننا لا نسمع طوال اليوم إلا عنك.



- أي أصدقاء؟ تقصد صامويلنكو؟ - نعم، وهو أيضاً .

- أرجو من ألكسندر دافيديتش، وعموماً من أصدقائي، أن يقللوا من اهتمامهم بي .

- ها هو ذا صامويلنكو بنفسه، فلتطلب منه أن يقلل من اهتمامه بك قدمدم لايفسكى: أنا لا أفهم لهجتك هذه وتملكه إحساس كأنما أدرك الآن فقط أن عالم الحيوان يكرهه ويحتقره ويهزأ به، وأن عالم الحيوان هو أخبث وألد أعدائه فقال بصوت خافت وهو لا يقوى على الكلام بصوت عال من الكراهية التي ضغطت على صدره وعنقه كرهبته في الضحك أمس وفر هذه اللهجة لشخص آخر غيري ودخل صامويلنكو بدون سترة، عرقان، أحمر من جو المطبخ الخانق وقال: أه، أنت هنا؟ مرحباً يا عزيزي هل تغديت؟ لا تتكلف وقل: تغديت؟ فقال لايفسكى ناهضاً:

- ألكسندر دافيديتش إذا كنت قد قصدتك في طلب شخصي فإن هذا لايعني أنني أعفيتك من مسئولية أن تكون متواضعاً وتحترم أسرار الآخرين فدهش صامويلنكو: - ماذا هناك؟ فمضى لايفسكى يقول رافعاً صوته ومبدلاً قدميه من شدة الانفعال: إذا لم يكن لديك نقود، فلا تعط، ارفض الطلب، ولكن ما الداعي للصراخ في كل حارة بأن وضعى بلا مخرج وخلافه؟ أنا لا أطيق أعمال الخير هذه، عندما تساوى



الأعمال درهماً والأقوال قنطاراً يمكنك أن تتفاخر بأعمال خيرك هذه كما يحلو لك، ولكن أحداً لم يعطك الحق في إفشاء أسراري.

- أية أسرار؟ - سأل صامويلنكو بدهشة وقد بدأ يغضب إذا كنت قد جئت للتشاجر فلتذهب عد فيما بعد.

وتذكر القاعدة التي بمقتضاها ينبغي على المرء، إذا غضب من قريبه، أن يعد في ذهنه إلى المائة، وعندئذ يهدأ فبدأ يعد بسرعة واستطرد لايفسكى: - أرجوك ألا تهتم بي لا تلق إلى بالأ وما دخل الآخرين بي وبحياتي؟ نعم، أنا أريد أن أسافر نعم، أنا أستدين، وأسكر، وأعاشر زوجة رجل آخر، وعندي هستيريا، أنا مبتدل، ولست عميق التفكير كبعضهم، ولكن ما دخل الآخرين بذلك؟ فلتحترموا الفرد.

فقال صامويلنكو وقد عد إلى الخامسة والثلاثين: اعذرنى يا صاحبي، ولكن فقاطعه لايفسكى: احترموا الفرد هذه الأقاويل المستمرة في حق الآخرين، هذه الآهات والتأوهات، هذه المراقبة المستمرة والسمع، هذا العطف الودي إلى الشيطان يقرضونني النقود ويعرضون على شروطاً كأنني طفل يزدروني الشيطان يعلم مثل ماذا لا أريد شيئاً صاح لايفسكى مترنجاً من الانفعال وخاف أن تتابه الهستيريا مرة أخرى إذن فلن أسافر يوم السبت ومضى هذا الخاطر في ذهنه أنا لا أريد شيئاً أرجوكم فقط أن ترحموني من وصايتكم أنا



لست طفلاً ولست مجنوناً، فأرجو أن ترفعوا عنى هذه المراقبة.
ودخل الشماس، وعندما رأى لايفسكى شاحباً يشيح بيديه،
ومتوجهاً بخطابه الغريب إلى صورة الأمير فورونتسوف، وقف بجوار
الباب متمسراً واستطرد لايفسكى يقول: إن استراق النظر الدائم
إلى ما في داخلي يهين كرامتي الإنسانية، لذا أرجو من المخبرين
المتطوعين أن يكفوا عن تجسسهم كفى.

ماذا قلت؟ سأل صامويلنكو وقد عد إلى المائة، واقترب من
لايفسكى بوجه محتقن فكرر لايفسكى متناولاً قبعته وهو يكاد يختنق
- كفي فقال صامويلنكو ببطء أنا طبيب روسي من النبلاء ومستشار
دولة ثم صرخ بصوت مرتعش مشدداً على الكلمة الأخيرة أنا لم أكن
جاسوساً أبداً ولن أسمح لأحد بإهانتي احرص

لم يسبق للشماس أبداً أن رأى الدكتور مهيباً، منتفخاً، محتقناً
ورهيباً بهذا الشكل، فسد فمه بيده وركض إلى المدخل وانفجر
هناك بالضحك وكان من خلال ضباب رأى لايفسكى كيف نهض فون
كورين، ووضع يديه في جيبي سرواله، ووقف في وضع يوحي وكأنها
ينتظر ما الذي سيحدث بعد ذلك وبدا هذا الوضع الهادي للايفسكى
وقحاً ومهيناً إلى أقصى درجة وصرخ صامويلنكو: اسحب كلامك



أرجوك فأجاب لايفسكى، الذي لم يعد يذكر ما هو الكلام الذي قاله: دعني وشأني أنا لا أريد شيئاً أريد فقط أن تتركني وشأني أنت وأبناء اليهود الألمان هؤلاء وإلا فسأخذ إجراءتى سوف أتعارك فقال فون كورين خارجاً من وراء الطاولة: الأمر الآن مفهوم السيد لايفسكى يريد قبل السفر أن يرفه عن نفسه بمبارزة بوسعي أن أتيح له هذه المتعة يا سيد لايفسكى، لقد قبلت التحدي.

التحدي؟ قال لايفسكى بصوت خافت مقترباً من عالم الحيوان وناظراً بحقد إلى جبينه الأسمر وشعره المجعد التحدي حسن تفضل إنني أكرهك أكرهك

- سعيد جداً غداً في الصباح المبكر قرب كريلاي، مع كل التفاصيل التي ترضى ذوقك أما الآن فأعرب من هنا.

فقال لايفسكى بصوت خافت وهو يلهث: أكرهك من زمان أكرهك المبارزة نعم أبعد من هنا يا ألكسندر دافيديتش أو أذهب أنا إنه سيعضني أطفأت لهجة فون كورين الهادئة ثائرة الدكتور، فعاد إلى وعيه فجأة واسترد رشده، فأمسك بخصر لايفسكى بكلتا يديه، وأبعده عن عالم الحيوان ودمدم بصوت رقيق متهدج من الانفعال: يا أصدقائي يا أصدقائي الطيبين لا داعى تشاجرتهم وكفى كفى يا



أصدقائي الطيبين وعندما سمع لايفسكى صوتاً ناعماً، ودوداً أحس بأنه قد وقع في حياته الآن توا شيء لم يسبق له مثيل، شيء رهيب، وكأنما كاد يدهسه قطار وأوشك أن يبكي، فأشاح بيده، واندفع من الغرفة راكضاً.

وأحس بوقع كراهية الآخرين لى، وأظهر نفسي أمام شخص يكرهني في أبأس وأحقر وأعز صورة، أوه يا إلهي ما أصعب ذلك فكر لايفسكى بعد فترة، وهو جالس في المقصف، وقد أحس كأنما على جسده بقعة صداً من وقع كراهية الغير التي عاناها لتوه يا إلهي ياله من شيء فج.

وأنعشته المياه الثلجة والكونياك وتصور بوضوح وجه فون كورين الهادئ المتغطرس، ونظرته بالأمس، وقميصه الذي يشبه السجادة، وصوته، ويديه البيضاء فتلملت في قلبه كراهية ثقيلة، كراهية مستعرة، جوعى، تطالب بالإشباع وطرح في خياله فون كورين أرضاً وراح يدوسه بقديمه وتذكر ماحدث بأدق التفاصيل، وأدهشه من نفسه كيف رضي بأن يبتسم بتزلف لشخص تافه، وعموماً كيف يقيم وزناً لرأي أناس حقراء، لا يعرفهم أحد، يعيشون في مدينة تافهة، ربما ليست مذكورة حتى في الخرائط، مدينة لا يعلم بوجودها أي شخص محترم في بطرسبرج ولو أن هذه المدينة الحقيرة غابت



فجأة في جوف الأرض أو احترقت لقرأوا في روسيا هذا النبأ بنفس الملل الذي يقرأون به إعلاناً عن بيع أثاث مستعمل وأن يقتل غداً فون كورين أو يتركه حياً هو أمر غير مجد وغير طريف بنفس الدرجة على حد سواء فليطلق النار على ساقه أو ذراعه، وليجرحه، ثم يضحك منه بعد ذلك وهو يختفى بألامه المكبوتة في غمرة الناس التافهين مثله كما تختفى الحشرة المقطوعة الساق وسط العشب.

ذهب لايفسكي إلى شيشكوفسكى وروى له كل ما حدث، ودعا أن يكون شاهده ثم ذهباً معاً إلى مدير إدارة البريد والبرق ووجها إليه الدعوة أن يكون شاهداً، ثم بقيا عنده للغداء وأثناء الغداء مزحوا كثيراً وضحكوا وسخر لايفسكى من أنه لا يعرف تقريباً كيف يطلق النار وسمى نفسه رامي البلاط ووليام تل.

وقال: - ينبغي تلقين هذا السيد درساً وجلسوا ليلعبوا الورق بعد الغداء وكان لايفسكي يلعب ويشرب الخمر ويفكر بأن المباراة عموماً شيء سخيّف وأخرق، لأنها لا تحل القضية بل تزيدّها تعقيداً، ولكن أحياناً لا يمكن الاستغناء عنها في هذه الحالة مثلاً فليس من المعقول أن يذهب إلى القاضي ويشكو فون كورين والناحية الأخرى الجيدة في المباراة القادمة أنه سيكون من المستحيل عليه بعدها أن يبقى في المدينة وثل قليلاً، وسرى عنه اللعب فأحس بأنه في حالة



طيبة ولكن عندما غربت الشمس وهبط الظلام تملكه القلق لم يكن ذلك خوفاً من الموت، فقد ترسخت في نفسه أثناء الغداء واللعب لسبب ما ثقة بأن المباراة لن تنتهي بشيء كان ذلك خوفاً من شيء مجهول سيقع في حياته لأول مرة صباح الغد، وخوفاً من الليل المقبل كان يعلم أنها ستكون ليلة طويلة، مسهدة، وأنه سيكون عليه أن يفكر لا في فون كورين وكراهيته فحسب، بل وفي ذلك التل من الأكاذيب الذي كان عليه أن يجتازه والذي لم يكن لديه لا القدرة ولا المهارة للالتفاف من حوله وبدا كأنما داهمه المرض بغته، ففقد فجأة كل اهتمام باللعب والناس، وأخذ يتصرف بقلق ويرجو أن يدعوه ينصرف إلى البيت كان يريد أن يأوي إلى الفراش بسرعة ويكف عن الحركة ويرتب أفكاره في الليل وأوصله شيشكوفسكى ومدير البريد إلى داره، ثم ذهب إلى فون كورين لبحثنا أمر المباراة.

وجد لايفسكى قرب البيت أتشميانوف كان الشاب يلهث وبدا منفعلًا وقال للايفسكى: - إنني أبحث عنك يا إيفان أندريتش أرجوك هيا معي بسرعة إلى أين؟ هناك سيد لا تعرفه يريد أن يراك في أمر مهم جداً وهو يرجوك بشدة أن تأتي لدقيقة واحدة إنه يريد أن يقول لك شيئاً وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت.

كان أتشميانوف منفعلًا فتحدث ولكنه أرمنية شديدة بدت واضحة



في تحويره لنطق الكلمات وسأل لايفسكى: ومن هو؟ طلب ألا أذكر لك اسمه قل له إنني مشغول ليكن غداً إذا شاء فروع أتشميانوف: كيف هذا إنه يريد أن يقول شيئاً مهماً جداً بالنسبة لك مهماً جداً إذا لم تذهب فستقع مصيبة غريبة دمدم لايفسكى وهو لا يفهم لماذا يبدو أتشميانوف مضطرباً هكذا، وأية أسرار يمكن أن توجد في هذه المدينة المملة التي لا ضرورة لها عجيبة كرر وهو يفكر طيب، فلنذهب سيان انطلق أتشميانوف أمامه بسرعة وسار هو من خلفه عبرا الشارع ثم سارا في حارة وقال لايفسكى:

- يا له من شيء ممل حالاً، حالاً أصبحنا قريباً وعند الجسر القديم مرا في حارة ضيقة بين خرابتين مسيجتين، ثم دلنا إلى فناء كبير، واتجها إلى منزل صغير فسأل لايفسكى: - أليس هذا منزل مريدوف؟ - بلى فلماذا جئنا من الشوارع الخلفية، أنا لا أفهم؟ كان بإمكاننا أن نأتى من الشارع الرئيسي هناك أقرب.

- لا بأس، لا بأس.

بدا للايفسكى غريباً كذلك أن أتشميانوف قاده إلى المدخل الخلفي، وأشار بيده كأنما يدعوه إلى السير بهدوء وفي صمت هنا، هنا قال أتشميانوف وهو يفتح الباب بحذر ويدلف إلى المدخل



على أطراف أصابعه حاسب، حاسب، أرجوك قد يسمعونا وأصاخ السمع، واسترد أنفاسه بقوة، ثم قال هامساً: افتح هذا الباب وادخل لا تخف فتح لايفسكى الباب مندهشاً، ودخل غرفة بسقف منخفض ونوافذ مسدلة الستائر وكانت هناك شمعة مشتعلة على طاولة من تريدي؟ سأل صوت في الغرفة المجاورة - أهو أنت يا مريدوف؟ تحول لايفسكي إلى تلك الغرفة فرأى كيريلين وجواره ناديجا فيودورفنا لم يسمع ما قيل له، وتراجع بظهره، ولم يلحظ كيف أصبح في الشارع تبدد من قلبه كل شيء فجأة: كراهية فون كورين، والقلق وبينما كان عائداً إلى المنزل أخذ يهز ذراعه اليمني بحركة نافرة، وينظر تحت قدميه باهتمام محاولاً أن يسير على الأماكن المستوية وفي غرفة مكتبه في البيت أخذ يفرك راحتيه ويحرك كتفيه وعنقه على نحو أخرق، كأنما كانت السترة والقميص ضيقين عليه، وذرع الغرفة من ركن إلى ركن، ثم أشعل شمعة وجلس إلى المكتب إن العلوم الإنسانية التي تتحدث عنها لن ترضى الفكر الإنساني إلا عندما تلتقي في حركتها بالعلوم الدقيقة فتسير إلى جوارها ولست أدري هل سيلتقيان تحت عدسة المجهر، أم في منولوجات هاملت الجديد، أم في دين جديد، ولكنني أعتقد أن الجليد سيغطي وجه الأرض قبل أن يحدث هذا اللقاء إن أكثر المعارف الإنسانية ثباتاً وقدرة على



الحياة هي بالطبع تعاليم المسيح، ولكن انظر، حتى هي، كم يختلف فهمها إنها تعلمنا أن نحب جميع أقبائنا وتستثنى من ذلك الجنود والمجرمين والمجانين: فتسمح لنا بقتل المذكورين أولاً في الحرب، وبعزل أو إعدام المذكورين ثانياً، أما المذكورين ثالثاً فتحرم عليهم الزواج وهناك شراح آخرون يعلموننا أن نحب جميع الأقرباء بلا استثناء، دون تمييز بين ما لهم وما عليهم وحسب تعاليمهم، إذا جاءك مجرور أو قاتل أو صريع يطلب يد ابنتك فلتزوجها له وإذا هاجم الأوغاد أناساً أصحاء العقل والبدن، فيسلم لهم هؤلاء رؤوسهم إن هذه الموعظة بالحب من أجل الحب، مثل الفن من أجل الفن، لو قدر لها أن تصح سارية المفعول، لأفضت بالبشرية في نهاية المطاف إلى الفناء التام، ولتحقق عندئذ أكبر شر من الشرور التي وقعت في وقت ما على سطح الأرض إن الشروح كثيرة، وطالما هي كثيرة فإن الفكر الجاد لا يرضى بأي منها فيسارع إلى إضافة شرحه هو إلى هذه الكمية الكبيرة من الشروح ولذلك فلا تضع القضية أبداً، كما تقول، على أساس فلسفي أو على ما يسمى بالأساس المسيحي، فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى الابتعاد بك عن حل القضية.

أصغى الشمساس بانتباه إلى عالم الحيوان، ثم فكر قليلاً وسأله:

- القانون الأخلاقي المميز لكل فرد من البشر هل اخترعه



الفلاسفة، أم خلقه الله مع الجسد؟.

لا أدري ولكن هذا القانون عام لجميع الشعوب والعصور إلى درجة يبدو لي معها أنه ينبغي علينا الاعتراف بأنه مرتبط عضوياً بالإنسان إنه ليس ابتكاراً، بل هو موجود وسيوجد لن أقول لك إننا سنراه في وقت ما تحت عدسة المجهر، ولكن ارتباطه العضوي تثبته الآن بالفعل الدلائل الجلية: فجميع آلام المخ وكل ما يسمى بالأمراض النفسية تتعكس قبل كل شيء في فساد القانون الأخلاقي على حد علمي، حسناً، إذن فكما تريد المعدة أن تأكل يريد الشعور الأخلاقي منا أن نحب أقرباءنا هكذا؟ ولكن طبيعتنا تقاوم صوت الضمير والعقل بسبب حبها لذاتها، ولهذا تنور قضايا محيرة كثيرة فإلى من نلجأ لحل هذه القضايا إذا كنت لا تريد منا أن نضعها على أساس فلسفي؟.

فلتجأ إلى تلك المعارف الدقيقة القليلة التي هي بجورتنا ثق في جلاء الحقائق ومنطقها بالطبع هذا شحيح، ولكنه في المقابل ليس مزعزعاً ومبهماً كالفلسفة فلنفرض أن القانون الأخلاقي يتطلب أن تحب الناس حسناً، ليكون ينبغي إذن أن يكمن الحب في إزالة كل ما يلحق الضرر بالإنسان بهذه الصورة أو تلك ويهدده بالخطر في الحاضر والمستقبل ومعارفنا والحقائق الجلية تشير إليك بأن



الخطر الذي يتهدد البشرية يأتي من جانب الأشخاص المنحرفين خلقياً وبدنياً وإذا كان الأمر كذلك فلتقاوم المنحرفين فإذا لم تكن قادراً على رفعهم إلى المستوى السوى فستكون قادراً على التخلص من ضررهم، أي القضاء عليهم.

- إذن فالحب يكمن في أن ينتصر القوى على الضعيف؟- بلا جدال.

فقال الشماس بحرارة: - ولكن الأقوياء صلبوا يسوع المسيح.

- بل إن المسألة هي أن الضعفاء، لا الأقوياء، هم الذين صلبوه لقد أضعفت الحضارة الإنسانية الصراع من أجل الوجود، والانتخاب الطبيعي، وتسعى إلى جعلهما يقتربان من الصفر ومن هنا تجد هذا التكاثر السريع للضعفاء وتفوقهم على الأقوياء فلتتصور أنك تمكنت من أن تقنع النحل بالأفكار الإنسانية في صورتها الجينية غير المدروسة فما الذي سيترتب على ذلك؟ ستبقى على قيد الحياة ذكور النحل التي من المفروض أن تقتل، وسوف تلتهم العسل وتفسد النحلات وتخفقها، والنتيجة يتفوق الضعفاء على الأقوياء ويفني الأواخر وهذا ما يحدث الآن للبشرية، فالضعفاء يضطهدون الأقوياء ولدى المتوحشين، الذين لم تمسهم الحضارة بعد، تجد الأقوى، والأحكم والأقوم خلقاً يسير دائماً في المقدمة إنه الزعيم والحاكم



أما نحن المتحضرين فقد صلبنا المسيح وما زلنا نصلبه إذن فهناك شيء ما ينقصنا وهذا الشيء ينبغي أن نستعيده، وإلا فلن تكون هناك نهاية لهذه الأخطاء.

ولكن ما هو المعيار لديك للتمييز بين الأقوياء والضعفاء؟

- المعارف وجلاء الحقائق إن المجدورين والمصابين بتدرن العقد العنقية يعرفون بأمراضهم، أما المنحلون والمجانين فبتصرفاتهم.

- ولكن الخطأ محتمل - نعم، ولكن هل تخشى البلبل إذا كان الطوفان يتهددنا؟ فضحك شماس وقال هذه فلسفة.

أبداً لقد أفسدتك فلسفة المعهد الديني إلى درجة أنك تريد أن ترى في كل شيء مجرد ضباب فالعلوم المجردة، التي حشى بها رأسك الشاب.

إنها تسمى كذلك لأنها تجرد ذهنك من جلاء الحقائق انظر مباشرة في عيني الشيطان، فإذا كان شيطاناً فلتقل إنه شيطان، ولا تتطفل على كانت أو هيجل طلباً للتفسيرات وصمت عالم الحيوان قليلاً ثم استطرد: - اثنان في اثنين يساوي أربعة، والحجر هو حجر.

غدا ستكون لدينا مباراة سنقول إن هذه سخافة وحماقة، وإن المبارزات انتهى عهدا وأن المباراة الارستقراطية لا تختلف في



الواقع عن شجار سكر في حانة، ولكننا لن نتراجع، بل سنمضى ونتقاتل إذن فهناك قوة أقوى من أحكامنا إننا نصرخ بأن الحرب قرصنة وهمجية وفضاعة وقتل أشقاء، ولا نستطيع أن نرى الدم دون أن نصاب بالإغماء ولكن ما إن يهيننا الفرنسيون أو الألمان حتى نشعر فوراً بالحمية، ونصيح فوراً من صميم القلب ونهجم على العدو، وأما أنت فستبتهل إلى الرب أن يبارك سلاحنا، وستشير لبطولاتنا الإعجاب الشامل، والصادق في الواقع إذن فمرة أخرى هناك قوة، إن لم تكن أسمى، فهي أقوى منا ومن فلسفتنا وليس بإمكاننا أن نوقفها، كما لا نستطيع إيقاف هذه الغيمة القادمة من وراء البحر فلا تتفق إذن، ولا تهددها بقبضة داخل الجيب ولا تقل: أوه، هذا سخيف هذا قديم، هذا لا يتفق والكتاب المقدس، بل حدق مباشرة في عينيها، واعترف بشرعيتها الحكيمة، وإذا ما أرادت، مثلاً، أن تقضي على قبيلة ضعيفة، موبوءة، منحلة، فلا تعرقها بعقاقيرك وبمقتطفات من إنجيل أسىء فهمه توجد لدي ليسكو فشخصية دانيلا ذي الضمير الحى وقد وجد دانيلا خارج المدينة مجزوماً فأواه وأطعمه باسم المحبة والمسيح ولو كان دانيلا هذا يحب الناس حقاً لجر ذلك المجزوم بعيداً عن المدينة وألقى به في الخور، وذهب ليخدم الأصحاء أظن أن المسيح أوصانا بالحب العاقل



والمدرک والنافع فضحك الشمس وقال: يا لك من مخادع أنت لا تؤمن بالمسيح، فلماذا تذكره كثيراً في كلامك؟.

- كلا، بل أومن ولكن بالطبع على طريقتي الخاصة وليس على طريقتك آه يا شماس، يا شماس وضحك عالم الحيوان وأمسك بخصر الشمس وقال بمرح ماذا؟ هل تذهب معي غدا إلى المباراة؟.

- الرتبة لا تسمح، وإلا ذهبت وما معنى الرتبة؟ أنا مرسوم منحت بركة الله آه يا شماس، يا شماس كرر فون كورين ضاحكاً كم أحب الحديث معك فقال شماس: أنت تقول إن لديك إيماناً ما هو هذا الإيمان؟ أما أنا فعندى عم قس، يؤمن إلى درجة أنه عندما يذهب إلى الحقل في وقت الجفاف ليسأل الله مطراً يأخذ معه مظلة ومعطفاً جليداً لكيلا يبيله المطر في طريق العودة هذا هو الإيمان وعندما يتحدث عن المسيح يشع نوراً، وتبكي جميع النساء والرجال بحرقه ولو كان هنا لأوقف هذه الغيمة، ولجعل أية قوة تتحدث عنها تلوذ بالفرار نعم الإيمان يحرك الجبال.

وضحك شماس، وربت على كتف عالم الحيوان، واستطرد: هكذا بالضبط ها أنت ذا تدرس، وتكتشف أعماق البحر، وتميز بين الضعفاء والأقوياء، وتؤلف الكتب وتتحدى للمبارزة ومع ذلك يبقى



كل شيء كما كان ولكن قد يأتي شخص ما، عجوز ضعيف، فيتمتم باسم الروح القدس بكلمة واحدة، أو يقدم من الجزيرة العربية محمد جديد على متن جواد، شاهراً سيفه، فينقلب كل شيء لديك رأساً على عقب، ولا يبقى في أوروبا حجر على حجر.

- هذا يا شماس كلام في الهواء.

- الإيمان بلا عمل جسد ميت، أما العمل بلا إيمان فأسوأ من ذلك، ليس إلا مضيعة للوقت لا أكثر وظهر الدكتور على الكورنيش وعندما رأى شماس وعالم الحيوان توجه إليهما وقال وهو يلهث:- يبدو أن كل شيء جاهز الشهود: جفر وفسكى وفريكو سيمران صباحاً، في الساعة الخامسة كمتلبدت قال وهو ينظر إلى السماء أظلمت تماماً سيسقط المطر الآن وسأله فون كورين: ستأتي معنا كما آمل؟ كلا، أعوذ بالله يكفيني ما لقيته من عذاب سيذهب أوستيموفتش بدلاً مني لقد أخبرته بذلك ومض البرق بعيداً وراء البحر، وتردد هزيم رعد مكتوم وقال فون كورين.

- يا للجو الخائق قبل العاصفة أراهن أنك زرت لايفسكى وبكيت على صدره فأجاب الدكتور مرتبكاً: ولماذا أذهب إليه؟ مالي به.

قبل الغروب قطع البوليفار والشارع عدة مرات على أمل أن يرى



لايفسكى كان يشعر بالخجل من ثورته ومن نوبة الطيبة المفاجئة التي أعقبت ذلك أراد أن يعتذر للايفسكى بلهجة مزاحة يزجره ويطمئنه ويقول له إن المباراة شيء من مخلفات همجية القرون الوسطى، إلا أن العناية الإلهية هي التي أشارت إليه بالمبارزة كوسيلة للتصالح: فغداً سيتبادلان، هما الرجلان الرائعان، النادرا الذكاء الطلقات في الهواء فيقدر كل منهما نبل الآخر ويصبحان صديقين إلا أنه لم يصادف لايفسكى ولا مرة وردد صامويلنكو:

ولماذا أذهب إليه؟ لست أنا الذي أهنته بل هو الذي أهانني قل لي لو تكرمت، لماذا انقضض علي؟ أي سوء صنعت به؟ دخلت غرفة الجلوس وإذا فجأة، أهلاً، أنت جاسوس أما غريبة خبرني، كيف بدأت بينكما؟ ماذا قلت له إن وضعه بلا مخرج وكنت على حق الشرفاء والنصابون هم فقط الذين يستطيعون إيجاد مخرج من أي وضع أما من يريد أن يكون شريفاً ونصاباً في آن واحد، فليس لديه مخرج ولكن يا سادة، الساعة بلغت الحادية عشرة، وغداً علينا أن نستيقظ مبكراً وفجأة هبت الريح، وأثارت التراب على الكورنيش وزوبعت، وزارت فغطت على هدير البحر.

فقال الشمساس: عاصفة فلنذهب، عيوني امتلأت بالتراب وعندما مضوا تتهد صامويلنكو وقال وهو يشبث عمرته بيده: يبدو أنني لن



أنام الليل.

فضحك عالم الحيوان قائلاً: لا تقلق، كن مطمئناً، فلن تنتهي المباراة بشيء سيطلق لايفسكي النار في الهواء بساحة، فهو لا يستطيع بدون ذلك، أما أنا فلن أطلق النار عموماً فيما يبدو فلن أقدم للمحاكمة من جراء لايفسكي وأضيع الوقت لعبة لا تساوي ثمنها وبالمناسبة، ما هو الجزاء الذي يوقع بسبب المباراة؟.

- الاعتقال، وفي حالة وفاة الخصم السجن في القلعة حتى ثلاث سنوات قلعة بطرس وباول؟ كلا، في القلعة الحربية على ما أظن وإن كان ينبغي أن ألقن هذا الفتى در ساً.

ومضى البرق خلفهم فوق البحر، وأضاء للحظة أسطح المنازل والجبال وافترق الأصدقاء عند البوليفار وعندما اختفى الدكتور في الظلام وخفت وقع خطواته صاح فون كورين له: أخشى أن يعوقنا الطقس غداً محتمل جداً يا ليت هذا يكون؟ ليلة سعيدة ليلة ماذا؟ ماذا قلت؟

كان من الصعب تمييز ما يقال في صخب الريح والبحر وهزيم الرعد فصاح عالم الحيوان: لاشيء وأسرع إلى المنزل.

في ذهني المسحوق بالكآبة أفكارى الثقيل تزدهم والذكريات



صمتت أمامي وشريطها الطويل ينسحب أشعر باحتقار إذ قرأت في طية أيام عمري وارتجفت كم لعنت وبمر شكواى ذرفت أدمعي السخينة لكنني لم أمح تلك الأسطر الحزينة.

بوشكين سيان إذا ما قتلوه غداً أم سخرخوا به، أي تركوا له هذه الحياة، فهو في كلا الحالين قد انتهى وسواء قتلت هذه المرأة المجللة بالعار نفسها من اليأس والخزي أم أمضت في الشقاء بقية أيامها التعيسة، فهي في كلا الحالين قد انتهت.

هكذا كان لايفسكى يفكر وهو جالس إلى المكتب في ساعة متأخرة ولا يزال يفرك راحتيه وفجأة انفتحت النافذة واصطفقت، واندفعت إلى الغرفة دفقة ربح قوية فتطايرت الأوراق من فوق المكتب وأغلق لايفسكى النافذة، وانحنى ليجمع الأوراق من الأرض وأحس في جسده بشيء جديد، نوع من اضطراب الحركة لم يصبه من قبل، فلم يعد يتعرف على حركاته كان يسير في وجل، ويتدافع مرفقاه جانبا وتتقاذف كتفاه، وعندما جلس إلى المكتب عاد يفرك راحتيه لقد فقد جسده مرونته.

على المرء قبيل الموت أن يكتب إلى أقرب الناس وكان لايفسكى يذكر ذلك فتناول القلم وكتب بخط مرتعش: أماه



أراد أن يكتب إلى أمه بأن تأوي من أجل الله الرحيم الذي تؤمن به وتسيغ عطفها وحنانها على هذه المرأة البائسة التي سلبها شرفها، هذه المسكينة الوحيدة الفقيرة، وأن تنسي وتغفر كل، كل، كل شيء، لتكفر بالتضحية ولو عن جزء من خطيئة ابنها ولكنه تذكر كيف تخرج أمه، هذه العجوز الممتلئة الثقيلة الحركة، إلى الحديقة صباحاً في قلنسوة من الدانتلا، ومن خلفها تسير ربيبها مع كلب بولونيز، وكيف تصيح أمه في البستاني والخدم بصوت آمر، وكيف يبدو وجهها أبيضاً متغطرساً تذكر كل هذا فشطب الكلمة التي خطها .

لمع البرق بقوة في النوافذ الثلاث جميعاً، وتبعه دوى رعد هادر متدحرج، جاء في البداية مكتوماً، ثم بعد ذلك مجلجلاً صاخباً قوياً إلى درجة هزت زجاج النوافذ فأرسل رنيناً ونهض لايفسكى فاقترب من النافذة، وألصق جبينه بالزجاج كانت في الخارج عاصفة رعدية قوية جميلة وعند الأفق كان البرق يلقي من السحب إلى البحر أشرطه بيضاء بلا توقف فتضىء الأمواج السوداء العالية إلى مسافة بعيدة ومن يمين المنزل، ومن يساره، وربما أيضاً من أعلاه ومضت البروق - العاصفة دمدم لايفسكى أحس برغبة في أن يصلي لأحد ما أو لشيء ما، ولو للبرق أو للسحب يا عاصفتي الحبيبة وتذكر كيف كان يخرج في طفولته راكضاً إلى الحديقة ساعة العاصفة، حاسر الرأس،



ومن خلفه تركض فتاتان شقراوان بعيون زرقاء فيبللهم المطر كانوا يقهقهون من شدة الإعجاب، ولكن عندما تدوي قصفة رعد قوية تلتصق الفتاتان به باستسلام وبراءة، أما هو فيرسم علامة الصليب ويسارع إلى التمتمة: قدوس، قدوس، قدوس أوه، أين، أنت، في أي بحر غبت.

يا منابع الحياة الرائعة النقية؟ لم يعد يخاف العاصفة، ولا يحب الطبيعة، ولم يعد لديه إله، وكل الفتيات البريئات اللاتي عرفهن في وقت ما قد قضى عليهن هو وأترابه، ولم يغرس في حديقة داره طوال حياته شجرة واحدة ولم يزرع نبتة واحدة، وعاش بين الأحياء دون أن ينقذ ذبابة واحدة، بل كان يدمر، ويهلك، ويكذب يكذب ما الذي في الماضي ليس رذيلة؟ سأل نفسه وهو يحاول أن يتشبث بأية ذكرى مشرقة كما يتشبث الساقط في الهاوية بغصون الشجيرات المدرسة؟ الجامعة؟ لكن ذلك خداع كان يدرس بصورة سيئة وقد نسي ماتعلمه خدمة المجتمع؟ هذا أيضاً خداع، لأنه لم يكن يفعل شيئاً في الخدمة، بل كان يتقاضى الراتب دون وجه حق، وخدمته نفسها هي اختلاس حقير لا يقدم مرتكبه إلى المحكمة.

لم يكن بحاجة إلى الحقيقة، فلم يبحث عنها وكان ضميره غائباً أو صامتاً وقد سحرته الرذيلة والكذب كان كالغريب أو الأجير من



كوكب آخر لا يشارك في الحياة العامة للناس، غير مبال بالأمهم وأفكارهم وأديانهم ومعارفهم وبحثهم وصراعهم، ولم يقل للناس كلمة طيبة واحدة، ولم يكتب سطرًا مفيداً غير مبتذل واحداً، ولم يفعل مثقال ذرة خيراً للناس، بل كان يأكل خبزهم، ويشرب خمرهم، ويسرق زوجاتهم، يعيش على أفكارهم، ولكي يمرر حياته المزرية الطفيلية أمامهم وأمام نفسه سعى دائماً إلى أن يضفي على نفسه مظهر من هو أرفع وأفضل منهم كذب، كذب، كذب.

وتذكر بوضوح ما رآه مساء في منزل مريدوف، فأحس بانقباض لا يطاق من التقزز والكآبة نعم، كيريلين وأتشميانوف كريهان، ولكنهما يواصلان ما بدأه هو إنهما شريكاه وتلميذاه لقد سلب سيدة شابة ضعيفة وثقت به أكثر من ثقفتها بأخيها، سلبها زوجها، ومعارفها ووطنها وجاء بها إلى هنا، إلى القيظ والحمى والملل وكان عليها يوماً بعد يوم أن تعكس كما المرأة فراغه، وفساده وكذبه، وبهذا، بهذا وحده امتلأت حياتها الضعيفة الذابلة البائسة وبعد ذلك شبع منها وأبغضها، ولكن أعوزته الشجاعة أن يهجرها، فسعى إلى أن يكبلها بقوة بحبال كذبه كالعنكبوت أما الباقي فأكمله هذان الشخصان.

كان لايفسكى تارة يجلس إلى المكتب، وتارة يقترب من النافذة، ومرة يطفئ الشمعة ومرة يشعلها كان يلعن نفسه بصوت مسموع



ويبكي ويشكو ويسأل الصفح وجرى عدة مرات إلى المكتب في يأس ليكتب أماء.

لم يكن لديه من الأهل والأقارب أحد سوى أمه ولكن كيف كان بوسع أمه أن تساعد؟ وأين هي؟ وأراد أن يهرع إلى ناديجدا فيودوروفنا لكي يجثوا أمامها ويقبل يديها وقدميها ويتوسل ويطلب منها الصفح، ولكنها كانت ضحيته، وكان يخاف منها وكأنما هي ميتة.

وتتمم وهو يفرك راحتيه: ضاعت حياتي يا إلهي، لماذا لا أزال حيا؟ لقد دفع من السماء نجمة الكابي فهوى واختفى أثره في ظلام الليل ولن يعود إلى السماء، لأن الحياة تمنح مرة واحدة لا تتكرر ولو كان بمقدوره أن يسترجع الأيام والسنوات الماضية لاستبدل بكذبها الحقيقة وبالفراغ العمل، وبالملل الفرحة، ولأعاد الطهارة إلى من سلبهم إياها، ولوجد الله والعدالة، ولكن ذلك أيضاً مستحيل كاستحالة إعادة النجم الغارب إلى السماء من جديد ولأن ذلك مستحيل فقد تملكه اليأس.

عندما انتهت العاصفة كان جالساً بجوار النافذة المفتوحة يفكر بهدوء فيما سيحدث له في الغالب سيقبله فون كورين؛ فتفكير هذا الرجل الواضح البارد يجيز تصفية الضعفاء والتافهين فإذا خانه



تفكيره في اللحظة الحاسمة فستساعده الكراهية والإحساس بالتقزز اللذان يثيرهما فيه لايفسكى وإذا ما أخطأ فون كورين الهدف، أو جرحه فقط، أو أطلق النار في الهواء لكي يسخر من خصمه البغيض، في العمل حينئذ؟ وإلى أين يذهب؟ وسأل لايفسكى نفسه: أسافر إلى بطرسبرج؟ ولكن هذا معناه أن أبدأ حياتي القديمة التي ألعنها ومن يبحث عن الخلاص في تغيير المكان، كالطير المهاجر، فلن يجد شيئاً لأن الأرض كلها بالنسبة له واحدة أبحث عن الخلاص في الناس؟ فيمن منهم وكيف؟ فطيبة صامويلنكو وسماحته لا يعول عليها في الخلاص، مثلها مثل مرج الشماس أو كراهية فون كورين يجب أن يبحث عن الخلاص في نفسه فقط، فإذا لم يجده فلا داعي لتضييع الوقت، فليقتل نفسه وانتهى الأمر.

تردد وقع عربة وكان ضوء الفجر قد لاح ومرت العربة أمامه، وانحرفت وتوقفت بجوار المنزل وعجلاتها تصر فوق الرمل المبلل وكان يجلس في العربة شخصان فقال لهما لايفسكى من النافذة: انتظرا، ساتى حالاً أنا لست نائماً هل حان الوقت حقاً؟ نعم الساعة الرابعة، وإلى أن نصل.

ارتدي لايفسكى المعطف والعمره، ووضع السجائر في جيبه، ووقف متفكراً خيل إليه أنه ينبغي أن يفعل شيئاً آخر ومن الخارج



تتأهى حديث الشاهدين الخافت وشخير الخيول، فملأت هذه الأصوات المترددة في الصباح الرطب، والناس جميعاً نيام، والسماء لا تكاد تضيء، روح لايفسكى باكتئاب أشبه بهاجس سيئ ووقف مفكراً بعض الوقت، ثم ذهب إلى غرفة النوم.

كانت ناديجا فيدوروفنا مستلقية في سريرها، ممددة بطول جسدها ومغطاة بالحرام حتى رأسها لم تكن تتحرك فبدت، خاصة برأسها، أشبه بمومياء مصرية وسألها لايفسكى الصبح في سره وهو ينظر إليها في صمت، وفكر في أنه إذا لم تكن السماء خاوية وفيها إله حقاً، فسوف يصون هذه المرأة، وإذا لم يكن هناك إله، فلتهلك إذن، فلا داعي لأن تعيش.

وفجأة هبت وجلست في الفراش وسألت لايفسكى وهي ترفع نحوه وجهها الشاحب وتظر برعب: أهو أنت؟ هل انتهت العاصفة؟ انتهت وتذكرت ما حدث، فوضعت كلتا يديها فوق رأسها وارتجفت بدنها كله وقالت: كم أتعذب آه لو تدري كم أتعذب ومضت تقول وقد أغمضت عينيها كنت أنتظر أن تأتي وتقتلني، أو تطردني من البيت في العاصفة تحت المطر، ولكنك كنت تتباطأً تتباطأً.

عانقها باندفاع وقوة وانهاه على ركبتيها ويديها تقبيلاً، وبعد



ذلك، وبينما كانت تتمم له بكلمات ما وتتلفض من الذكريات أخذ يمسح شعرها، وأدرك وهو يحدق في وجهها أن هذه المرأة التعيسة الخاطئة هي الإنسان الوحيد القريب والحبيب لديه.

وعندما خرج من البيت وجلس في العربة أحس بالرغبة في العودة إلى البيت نهض الشمس، وارتدي ملابس، وأخذ عصاه الغليظة المعقدة وخرج من البيت في هدوء كان الجو مظلماً فلم ير الشمس في اللحظات الأولى عندما سار في الشارع حتى عصاه البيضاء ولم تكن في السماء نجمة واحدة، وبدا كأن المطر سيسقط ثانية وفاحت رائحة الرمل الرطب والبحر الخوف أن يهجم التشتشين فكر الشمس وهو يسمع كيف تدق عصاه على أرض الشارع وكيف تتردد هذه الدقات رنانة وحيدة في سكون الليل.

وعندما أصبح خارج المدينة بدأ يرى الطريق وعصاه وظهرت في السماء هنا وهناك بقع عكرة، وبعد قليل أطلت نجمة واحدة، وطرفت بعينها الوحيدة في وجل، كان الشمس يسير على الشاطئ الصخري المرتفع ولا يرى البحر، الذي كان غائباً في الأسفل، وأمواجه غير المرئية تضرب الشاطئ بكسل وتناقل وكأنها تتهد: أف وكم كانت بطيئة ضربت موجة، وعد الشمس حتى ثانی خطوات وعندئذ ضربت موجة أخرى، وبعد ست خطوات ضربت الثالثة هكذا لم يكن



يرى شيئاً، وفي الظلام تردد صخب البحر الكسول النعسان في ذلك الزمن البعيد بلا نهاية وغير المتصور، عندما كان روح الله يرف على فوضى الكون.

أحس الشماس بالرهبة وخاف في سره من أن يعاقبه الله لأنه يصاحب أناساً غير مؤمنين، بل يذهب حتى لمشاهدة مبارزتهم ستكون مبارزة تافهة، بلا سفك دماء، مضحكة، ولكن أياً كان الأمر فهي مشهد وثى، ولا يليق أبداً برجل دين أن يشهدها وتوقف وفكر: ألا ينبغي أن يعود؟ بيد أن حب الاستطلاع القوى المقلق تغلب على الشكوك، فواصل سيره وراح يهدئ نفسه: رغم أنهم ليسوا مؤمنين، إلا أنهم أناس طيبون، وستكتب لهم النجاة حتماً ستكتب لهم النجاة قالها بصوت مسموع وأشعل لفافه.

بأي معيار ينبغي أن تقيس فضائل الناس لكي نحكم عليهم بالعدل؟ تذكر الشماس عدوه، مفتش المعهد الديني، الذي كان يؤمن بالله، ولا يتقاتل في المبارزات، ويعيش عفيفاً، ولكنه في وقت ما كان يطعم الشماس خبزاً مخلوطاً برمل، وكاد أن يقطع له أذنه ذات مرة وإذا كانت الحياة البشرية قد رتبت بهذه الصورة غير الحكيمة بحيث كان الجميع في المعهد يحترمون هذا المفتش القاسي الغشاش الذي كان يسرق طحين العهدة، ويصلون من أجل صحته وخلصه، فهل من العدل أن



يتجنب أناساً مثل فون كورين ولايفسكى فقط لأنهما غير مؤمنين؟ وراح الشمساس يبحث هذه المسألة ولكنه تذكر كم كان منظر صامويلينكو اليوم مضحكاً فقطع عليه هذا حبل أفكاره أوه كم سيمضحك.

غداً تصور الشمساس كيف سيقبع تحت إحدى الحبائل ويسترق النظر، وعندما يشرع فون كورين غداً أثناء الغداء في التباهي بنفسه، فإن الشمساس سيقص عليه وهو يضحك كل تفاصيل المباراة وسيسأله عالم الحيوان: من أين عرفت كل شيء؟ فيرد عليه: تلك هي المسألة هكذا كنت جالساً في البيت ولكني أعرف.

وكم يكون طريفاً لو كتب وصفاً مضحكاً للمبارزة فسوف يقرأه حموه ويضحك، فحموه يفضل ألا تطعمه شيئاً ولكن قص عليه أو اكتب له أي شيء مضحكا تكشف أمامه وادى النهير الأصفر أصبح النهير من المطر أعرض وأشرس، ولم يعد يزمجر كما كان في السابق بل يزأر وبدأ الفجر يشرق وبدا الصباح الرمادي الكابي، والسحب الراكضة نحو الغرب لتلحق بغيمة العاصفة، والجبال المطوقة بالضباب، والأشجار المبللة بدا كل ذلك للشماس قبيحاً وغاضباً واغتسل من جدول، وقرأ صلوات الصباح، وهفت نفسه إلى الشاي والشطائر الساخنة بالقشدة التي يقدمونها عند حميه كل صباح وتذكر زوجته والعهد الذي لن يعود الذي تعزفه على البيانو



آية امرأة هي؟ لقد عرفوا الشمساس عليها، وخطبوها له، وزوجوه بها في أسبوع واحد، وعاش معها أقل من شهر ثم أرسلوه في مهمة إلى هنا، حتى إنه لم يعرف حتى الآن أي شخص هي ومع ذلك فهو يشعر بالملل بدونها وفكر: ينبغي أن أكتب لها رسالة.

ابتلت الراية فوق الدوخان وتهدلت، وبدا الدوخان نفسه بسقفه المبلل أدكن وأقصر مما كان عليه سابقاً وبجوار الباب وقفت عربية جر وكان كريلاي وشخصان أبخازيان، وامرأة تترية شابة في سروال فضفاض، ربما كانت زوجة كريلاي أو ابنته، ينقلون من الدوخان أجولة ما ويضعونها في العربة فوق عيدان الذرة الجافة وبجوار العربة وقف زوجان من البغال منكسى الرأس وبعد أن رصوا الأجولة أخذ الأبخازيان والتترية يغطونها بعيدان الذرة، بينما مضى كريلاي يسرج العربة على عجل وفكر الشمساس: يبدو أنه تهريب

وها هي ذي الشجرة الممددة ذات الإبر الجافة، وها هي ذي البقعة السوداء المتخلفة عن النار وخطرت له النزهة بكل تفاصيلها النار، وغناء الأبخازين، والأحلام المعسولة عن منصب الكاهن والموكب الدينى وأصبح النهر الأسود من المطر أشد سواداً وأعرض وعبر الشمساس بحذر الجسر الواهى الذي أصبحت الأمواج القذرة تطاله بذؤاباتها، وصعد على السلم إلى حظيرة التجفيف.



عقل رائع - فكر في فون كورين وهو يتمدد على القش عقل طيب، فليعطه الله الصحة لكن فيه قسوة ترى لماذا يكره لايفسكى، وذلك يكرهه؟ ولماذا سيقتاتلان في المباراة؟ لو أنهما عرفا منذ الطفولة تلك الفاقة التي عرفها الشماس، ولو أنهما تربيا وسط أناس أجلاف، غلاظ القلوب، جشعين، يعيرون بكسرة الخبز، أفضاظ خشنيين في المعاملة، يبصقون على الأرض ويتجشأون على الغداء وأثناء الصلاة، ولو لم تدلها منذ الطفولة ظروف الحياة الطيبة ودائرة الأصدقاء المختارين، إذن لتمسك كل منهما بصاحبه، ولغفر له عن طيب خاطر كل عيوبه، ولقدر فيه ما يتحلى به فيا أقل الناس المستقيمين، ولو ظاهرياً، في هذه الدنيا صحيح أن لايفسكى عابث، منحل، غريب، ولكنه لن يسرق، ولن يبصق على الأرض بصوت عال، ولن يؤنب زوجته: تلتهمين ولا تعملين، ولن يقدم على ضرب طفل باللجام أو يطعم خدمه قديداً عنفاً أفلا يكفي هذا لكي ننظر إليه بتسامح؟ وعلاوة على ذلك فهو أول من يعاني من عيوبه، كالجريح من جراحه وبدلاً من أن يببثوا، بسبب الملل و سوء فهم ما، كل في صاحبه عن التحلل والانقراض والوراثة وغيرها من الأشياء الصعبة الفهم، أفلا يجدر بهم أن يهبطوا إلى أسفل لكي يوجهوا كراهيتهم وسخطهم إلى هناك حيث تضج شوارع بأكملها بالأنين من الجهل الفظ والجشع



والتعبير والقدارة والسب وولولة النساء .

تردد وقع عربة فقطع على الشمساس حبل أفكاره وأطل من الباب فرأى عجلة فيها ثلاثة: لايفسكى وشيشكوفسكى ورئيس مكتب البريد والبرق وقال شيشكوفسكى: قف وهبط ثلاثهم من العجلة وتطلعوا بعضهم إلى بعض وقال شيشكوفسكى وهو ينفض عنه الوحل: لم يأتوا بعد حسناً إلى أن يبدأ الأمر هيا بنا نبحث عن مكان مناسب المكان هنا ضيق جداً .

ومضوا إلى أعلى النهر، وسرعان ما غابوا عن الأنظار وجلس الحوذي التتري في العجلة وأمال رأسه على كتفه ونعس وانتظر الشمساس حوالي عشر دقائق ثم خرج من حظيرة التجفيف، ونزع قبعته السوداء حتى لا يلاحظوه، وأخذ يتسلل على الشاطئ بين الخمائل وأعواد الذرة وهو ينكمش نحو الأرض ويتلفت وتساقطت عليه قطرات كبيرة من الأشجار والخمائل، وكان العشب والذرة مبللين .

- يا للعار دمدم وهو يللمم أطرافه المبللة الملوثة لو كنت أدرى لما جئت وسرعان ما سمع أصواتاً ثم رأي الناس كان لايفسكى يسير بسرعة غدوة ورواحاً في فسحة صغيرة وقد دس يديه في جيبيه وأحنى ظهره وقف شاهدها عند الشاطئ تماماً يلفان لفائف تبغ .



غريبة فكر الشمس مستغرباً مشية لايفسكى كأنه عجوز وقال
رئيس البريد وهو ينظر في ساعته: ياها من قلة ذوق من جانبهم
ربما كان التأخير في رأي العلماء شيئاً طيباً، أما في رأيي فهو سفالة
وأصغى شيشكوفسكى، ذلك الرجل البدين ذو اللحية السوداء ثم
قال: قادمون.

- أول مرة في حياتي أرى هذا يا للروعة قال فون كورين وقد
ظهر في الفسحة، ماذا كلتا يديه نحو الشرق انظروا: أشعة خضراء.
امتد من خلف الجبال ناحية الشرق شعاعان أخضران، وكان ذلك
جميلاً.

بالفعل كانت الشمس تشرق مرحباً واصل عالم الحيوان كلامه
مومئاً برأسه نحو شاهدي لايفسكى هل تأخرت؟

سار من خلفه شاهدها، بوبكو وجفروفسكى، اثنان من الضباط
الشبان جداً، من طول واحد، في سترتين بيضاوين، ثم الدكتور
أوستيموفتش، النحيل المنطوي، الذي كان يحمل في إحدى يديه لفة
ما، بينما وضع الأخرى خلف ظهره وكالعادة كان هناك عصا ممدودة
بطول ظهره وضع اللفة على الأرض ودون أن يحيي أحداً، أرسل يده
الثانية أيضاً وراء ظهره وأخذ يتمشى في الفسحة.



أحس لايفسكى بذلك التعب والحرج الذي ينتاب شخصاً ربما سيموت بعد قليل، ولذلك يستلفت أنظار الجميع وأراد أن يسرعوا بقتله أو بحمله إلى البيت كانت هذه أول مرة يرى فيها شروق الشمس وبدا له هذا الصباح الباكر، والأشعة الخضراء، والرطوبة، وهؤلاء الناس ذوو الأحذية المبللة، بدوا زائدين في حياته، لا لزوم لهم، وضايقوه لم يكن لكل هذا أية علاقة بالليلة التي مرت به، وبأفكاره وإحساسه بالذنب لذلك كان يود عن طيب خاطر لو انصرف دون انتظار المباراة وكان فون كورين بادی الانفعال، وحاول أن يخفي ذلك، متظاهراً بأنه مهتم أكثر شيء بالأشعة الخضراء وكان الشهود محرجين، يتبادلون النظرات، كأنما يتساءلون لماذا هم هنا وماذا يفعلون وقال شيشكوفسكى: أعتقد يا سادة أنه لا داعي للابتعاد أكثر المكان هنا لا بأس فوافق فون كورين نعم، طبعاً.

وحل الصمت وفجأة انحرف أوستيموفتش، الذي كان يتمشى، واتجه إلى لايفسكى وقال بصوت خافت وهو يزفر في وجهه: من المحتمل أنهم لم يتمكنوا بعد من إبلاغك بشروطي كل طرف يدفع الى خمسة عشر روبلا، وفي حالة وفاة أحد الخصمين يدفع الباقي على قيد الحياة الثلاثين روبل كلها كان لايفسكى يعرف هذا الرجل من قبل، إلا أنه رأى لأول مرة بوضوح عينيه الكابيتين، وشاربه



المتصلب وعنقه النحيل المسلول: مراب لا دكتور؟ وكان لأنفاسه رائحة لحم بقرى كريهة.

وفكر لايفسكى: ما أغرب ما يوجد في هذه الدنيا من أشخاص وأجاب: حسنا وأوماً الدكتور برأسه وعاد إلى مشيه، وكان واضحاً أنه ليس بحاجة أبداً إلى النقود، بل كان يطلبها بدافع الكراهية وأحس الجميع أنه قد حان الوقت للبدء، أو للانتهاء مما بدأ بالفعل، ولكنهم لم يبدأوا ولم ينهوا، بل ساروا ووقفوا ودخنوا وكان الضابطان الشابان، اللذان يشهدان مبارزة لأول مرة في حياتها، وأصبحا الآن لا يثقان كثيراً في هذه المبارزة المدنية التي لا ضرورة لها في رأيهما، كانا يتفحصان باهتمام سترتها ويمسحان أكمامها واقترب منها شيشكوفسكى وقال بصوت خافت: يا سادة، ينبغي علينا أن نبذل كل جهودنا من أجل ألا تقع هذه المبارزة يجب أن نصالحهما وتضرج ثم استطرد: بالأمس جاءني كيرلين واشتكى من أن لايفسكى ضبطه بالأمس مع نادي جدا فيودور وفنا، والذي منه فقال بويكو: نعم، نحن أيضاً نعرف ذلك.

- إذن وكما ترون لايفسكى يدها ترتعشان، و لن يقوى الآن حتى على رفع المسدس إن مقاتلته الآن غير إنسانية كمقاتلة ثمل أو محموم فإذا لم يتم التصالح فمن الضروري يا سادة أن نعمل شيئاً



ربما تأجيل المباراة بالشيطان، لو أني ما رأيت هذا.

- هلا تحدثت مع فون كورين؟

- أنا لا أعرف قواعد المباراة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها وربما ظن لو كلمته أن لايفسكى جبن ودفعتني إليه وعموما فليظن ما يشاء، سأكلمه توجه شيشكوفسكى إلى فون كورين بتردد وهو يعرج قليلاً كأنما تخدرت ساقه، وكانت هيئته كلها تطفح كسلاً وهو يسير ويزحر وشرع يقول وهو يتفحص الأزهار على قميص فون كورين باهتمام: إليك ما أريد أن أقوله يا سيدي هذا شيء سرى، بيننا أنا لا أعرف قواعد المباراة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها، وأتحدث لا كشاهد بل كإنسان نعم وماذا؟

- عندما يعرض الشهود التصالح، فعادة لا يصغي أحد إلى كلامهم، ويعتبر ذلك مسألة شكلية غرور وخلافه ولكني أرجوك لو تكلمت أن تنتبه إلى إيفان أندريتش إنه اليوم ليس في حالة طبيعية، ليس في وعيه كما يقال، وبأس لقد حلت به مصيبة إنني لا أطيق الأقاويل وتضرج شيشكوفسكى وتلفت حوله ولكن بسبب المباراة أجد من الضروري أن أبلغك فني مساء أمس وجد مدامه في بيت مريدوف مع أحد السادة باللقرنف دمدم عالم الحيوان وشحب وجهه،



وامتعض وبصق بصوت عال - أتفو.

ارتعشت شفته السفلى وابتعد عن شيشكوفسكى وهو لا يرغب في سماع المزيد، وبصق مرة أخرى بصوت عال وكأنه ذاق عن غير قصد شيئاً مرأً، وتطلع بكراهية إلى لايفسكى لأول مرة في هذا الصباح كان انفعاله وحرجه قد زايلاه فهز رأسه وقال بصوت عال:

- إنني أسألكم يا سادة، ماذا ننتظر؟ لماذا لا نبدأ؟.

تبادل شيشكوفسكى النظرات مع الضابطين وهز كتفيه ثم قال بصوت عال ودون أن يخاطب أحداً: يا سادة يا سادة نحن نعرض عليكم التصالح فقال فون كورين فلننته بسرعة من الشكليات لقد تحدثتم عن التصالح ما هي الشكليات الأخرى الآن؟ لتسرعوا يا سادة، فالوقت ضيق فقال شيشكوفسكى بنبرة مذنبه كشخص مضطر إلى التدخل في شؤون الآخرين: ولكننا نصر على التصالح مع ذلك وتضرج، ووضع يده على قلبه واستطرد ياسادة، نحن لا نرى علاقة سببية بين الإهانة والمبارزة ليس هناك شيء مشترك بين الإهانة التي يوجهها أحدنا للآخر أحياناً بسبب ضعفنا الإنساني، وبين المبارزة كلاكما شخصان جامعان، مثقفان، وبالطبع تعتبران المبارزة إحدى الشكليات البالية الجوفاء فحسب ونحن أيضاً ننظر إليها نفس النظرة



وإلا لما جئنا، لأننا لا نستطيع السماح في حضورنا بأن يطلق الناس النار بعضهم على بعض ومسح شيشكوفسكى العرق من فوق وجهه واستطرد صفيا يا سادة خلافكما، ومدا أيديكما لبعضكما البعض، ولنذهب إلى البيت لنحتفل بالصلح أقسم بشرفي يا سادة.

لزم فون كورين الصمت ولما لاحظ لايفسكى أنهم ينظرون إليه قال: - أنا ليس لدي شيء ضد نيقولاى فاسيليفتش إذا كان يعتبر أنني مخطئ فأنا على استعداد للاعتذار إليه وغضب فون كورين وقال:- من الواضح يا سادة أنكم ترغبون في أن يعود السيد لايفسكى إلى البيت رجلاً سمحاً، فارساً، ولكني لا أستطيع أن أتيتح لكم وله هذه المتعة لم يكن هناك داع للنهوض مبكراً والرحيل عشرة كيلومترات خارج المدينة لكي نشرب احتفالاً بالصلح ونمز، ولكي توضحوا لي أن المباراة هي إحدى الشكليات البالية المباراة هي المباراة ولا ينبغي أن تجعلوها أسخف وأزيف مما هي عليه فعلاً أنا أرغب في القتال.

وحل الصمت وأخرج الضابط بوبكر من الصندوق مسدسين مد أحدهما إلى فون كورين، والآخر إلى لايفسكى، ثم وقع ارتباك بعث المرح لفترة قصيرة في نفس فون كورين والشهود فقد اتضح أنه لا يوجد من بين جميع الحاضرين شخص واحد شهد مباراة طوال حياته ولم يكن أحد يعرف على وجه الدقة كيف ينبغي أن يقف



المتبارزان وما الذي يجب أن يقوله ويفعله الشهود ولكن بوبكر تذكر بعد قليل وأخذ يشرح لهم وهو يبتسم وسأل فون كورين مبتسماً:

- يا سادة، من الذي يذكر كيف وصف ليرمونتوف ذلك؟ وعند تورجيني فأيضاً تقاتل بازاروف مع شخص ما فقال أوستيموفتش بعجلة وقد توقف عن المشي: وما الداعي الآن للتذكر؟ قيسوا المسافة وانتهينا وخطا ثلاث خطوات كأنما يبين لهم كيف يقيسون وقاس بوبكر المسافة بالخطوات بينما شهر رفيقه سيفه خدش به الأرض عند نقطتي البدء لكي يحدد الخط الفاصل.

وشغل الحصان مكانيهما والصمت يخيم على الجميع حيوانات الخلد تذكر الشمس وهو قابع في الخميلة وقال شيشكوفسكى شيئاً ما، وعاد بوبكر فأوضح شيئاً ما، ولكن لايفسكى لم يسمعهما، أو بالأحرى سمعهما لكنه لم يفهم وعندما حان الوقت شد الزناد ورفع فوهة المسدس الثقيل البارد إلى أعلى ونسي أن يفك أزرار المعطف فأحس بضغط شديد على كتفه وتحت إبطه وارتفعت ذراعه بصعوبة بالغة وكأنما كان كمه مصنوعاً من الصفيح وتذكر كراهيته بالأمس لذلك الجبين الأسمر والشعر المجعد، وفكر بأنه حتى بالأمس، في سورة حقهه وغضبه، ما كان ليقوى على إطلاق النار على إنسان وخوفاً من أن تتطلق الرصاصة عفواً بطريقة ما فتصعب فون كورين



أخذ يرفع المسدس أعلى فأعلى، وأحس أن هذه الساحة المبالغ في إظهارها ليست لبقة ولا سمحاء، ولكنه لم يكن يعرف أو يستطيع أن يتصرف على نحو آخر وفكر لايفسكي وهو ينظر إلى وجه فون كورين الشاحب الباسم بسخرية، الذي كان فيما يبدو واثقاً منذ البداية من أن غريمة سيطلق النار في الهواء، فكر بأن كل شيء سينتهى الآن والحمد لله، وأنه عليه فقط أن يضغط بقوة على محرك المسدس.

وأحس بصدمة قوية في كتفه، ودوت طلقة، وتجاوب صداها في الجبال: باخ طاخ ورفع فون كورين الزناد، ونظر ناحية أوستيموفتش الذي كان يتمشى كما في السابق، عاقداً يديه خلف ظهره، غير مهتم بأي شيء وقال له عالم الحيوان: يا دكتور، أرجوك، لا تتمشى كالبندول بصرى يزوغ من حركتك وتوقف الدكتور وأخذ فون كورين يسدد نحو لايفسكي خلاص فكر لايفسكي.

فوهة المسدس، المصوب مباشرة إلى الوجه، وتعبير الكراهية والاحتقار في وقفة فون كورين وفي هيئته كلها، وهذا القتل الذي سيقدم عليه شخص شريف في وضح النهار على مرأى من أناس شرفاء، وهذا الهدوء، وتلك القوة المجهولة التي أجبرت لايفسكي على الوقوف ومنعته من الهرب كم يبدو ذلك كله غامضاً، غير مفهوم، ورهيباً وبدا الزمن الذي قضاه فون كورين في التسديد للايفسكي



أطول من تلك الليلة وتطلع إلى الشهود ضارحاً، إلا أنهم لم يتحركوا وكانوا شاحبين.

هيا أطلق، بسرعة فكر لايفسكى وشعر بأن وجهه الشاحب المرتعش البائس لا بد أن يثير في نفس فون كورين مزيداً من الكراهية سأقتله الآن فكر فون كورين وهو يسدد إلى جبين لايفسكى ويتحسس حرك المسدس بأصبعه نعم، طبعاً، سأقتله.

إنه سيقتله ترددت فجأة صرخة يائسة من مكان قريب جداً وعلى الفور دوت الطلقة وعندما رأى الجميع أن لايفسكى واقف في مكانه لم يسقط، نظروا إلى الجهة التي صدرت منها الصرخة فرأوا الشمس كان واقفاً بين أعواد الذرة على الشاطئ الآخر، شاحباً، مبللاً كله وملطخاً بالوحل وشعره المبلل ملتصق بجبينه وخديه، وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويلوح بقبعته المبللة وضحك شيشكوفسكى من الفرحة ثم بكى، وانتحى جانباً.

بعد ذلك بقليل التقى فون كورين بالشماس عند الجسر كان الشماس منفعلاً، يلهث ويتحاشى النظر في عيني فون كورين كان يشعر بالخجل من خوفه ومن ملابسه القذرة المبللة ودمدم الشماس: خيل إلى أنك كنت تريد أن تقتله كم أن هذا مناف للطبيعة الإنسانية



وإلى أية درجة هو غير طبيعي .

فسأله عالم الحيوان: ولكن كيف جئت إلى هنا؟ فأشاح الشماس بيده:

- لا تسأل أغواني الشيطان أن أذهب وها قد ذهبت، فكدت أموت من الخوف بين أعواد الذرة ولكن الحمد لله الآن، الحمد لله أنا راض عنك تماماً دمدم الشماس وجدنا العنكبوت سيكون راضياً أيضاً كم كان ذلك مضحكاً، كم كان مضحكاً ولكن أرجوك بشدة ألا تقول لأحد إنني كنت هنا، وإلا فإن الرؤساء سيصفعونني على قفائي في الغالب سيقولون كان الشماس شاهداً .

فقال فون كورين يا سادة، الشماس يرجوكم ألا تخبروا أحداً بأنكم رأيتموه هنا، قد يسبب له ذلك مشاكل .

وتهدد الشماس: كما أن هذا مناف للطبيعة الإنسانية أرجوكم أن تسامحني ولكن منظر وجهك جعلني أعتقد أنك ستقتله حتماً .

فقال فون كورين: راودني إغراء شديد بأن أقضي على هذا الوغد، ولكنك صرخت وأنا أصوب فأخطات الهدف ومع ذلك فهذه العملية كلها كريهة، غير معتادة، وقد أرهقتني يا شماس أحس بضعف شديد هيا، اركب .

- لا، أرجوكم دعني أعود ماشياً ينبغي أن أجفف ثيابي، فقد تبللت



تماماً.

وبردت - كما تشاء قال عالم الحيوان بصوت فاتر واهن وهو يجلس في العجلة مغمضاً عينيه كما تشاء.

وبينما كانوا يتحركون بجوار العربات ويستقلونها، وقف كريلاي بجوار الطريق وقد أمسك بطنه بكلتا يديه، وأخذ ينحني بشدة ويكشف عن أسنانه كان يظن أن السادة قد جاءوا للاستمتاع بالطبيعة وتناول الشاي فلم يفهم لماذا يستقلون العربات وتحرك الركب والجميع صامتون، ولم يبق بجوار الدوخان سوى الشمس.

وقال الشمس لكريلاي أدخل دو خان، اشرب شاي نفسي عايز يأكل كان كريلاي يتحدث الروسية جيداً، ولكن الشمس ظن أن التترى سيفهمه أسرع لو خاطبه بروسية ركيكة

- بيض ألقى، جبنه أعطى فقال كريلاي منحنيماً: تعال، تعال يا قسيس سأعطيك كل شيء عندنا جبن وعندنا خمر كل ماتشاء وسأله الشمس وهو يدخل الدوخان: كيف يسمى الإله بالترية؟ فقال كريلاي دون أن يفهمه: إلهك وإلهي واحد الإله واحد عند الجميع، ولكن الناس مختلفون منهم الروس، ومنهم الأتراك ومنهم الإنجليز الناس كثيرون والإله واحد حسناً إذا كان جميع الشعوب يعبدون



إلهاً واحداً، فلماذا إذن تعتبرون، أنتم أن المسيحيين المسلمين، هم أعداؤكم الأبديون؟.

فقال كربلاى قابضاً على بطنه بكلتا يديه:

- لماذا أنت زعلان؟ أنت قسيس وأنا مسلم أنت تقول: أريد أن أكل، وأنا أعطيك الغني فقط هو الذي يميز من هو ربك ومن هو ربي، أما الفقير فلا فرق لديه تفضل كلبين ما دار هذا الحديث الديني في الدوخان كان لايفسكى يتذكر وهو عائد في العربة إلى البيت كيف كان يشعر بالرهبة من الرحيل في الفجر، عندما كانت الطريق والصخور والجبال مبللة ومظلمة، وبدا له المستقبل المجهول رهيباً كالهوة التي لا يرى قرارها، أما الآن فكانت قطرات المطر العالقة بالعشب والصخور تشع في الشمس كالماسات، والطبيعة تبتسم بفرح، والمستقبل الرهيب أصبح وراء ظهره وأخذ ينظر بين الحين والحين إلى وجهش يشكوفسكى الباكي العابس، وإلى العربتين السائرتين في الأمام، حيث يجلس فون كورين وشاهداه والدكتور، وخيل إليه أنهم جميعاً عائدون من المقابر، حيث دفنوا لتوهم شخصاً صعباً بغيضاً كان ينغص على الجميع حياتهم انتهى كل شيء فكر لايفسكى في ماضيه وهو يحك رقبتة بأصابعه في حذر ظهر لديه ورم صغير في الناحية اليمني من رقبتة بجوار الياقة بطول وسمك الإصبع



الخنصر، وأحس بألم هناك وكأن أحداً مر بمكواة على عنقه وكان ذلك من أثر لفح الرصاصة.

وبعد أن وصل إلى البيت امتد بالنسبة له نهار طويل، غريب، عذب ومضى بحذر كالغيبوبة وأخذ كمن أطلق سراحه من سجن أو مستشفى يتفحص الأشياء المألوفة له منذ زمن بعيد ويدهش من أن الطاولات والنوافذ والكراسى وضوء النهار والبحر، تثير فيه فرحة طفولية حية لم يشعر بها منذ عهد بعيد ولم تفهم ناديجدا فيودوروفنا التي شحبت، وهزلت بشدة، صوته الوديع ومشيته الغربية وأسرعته تروي له كل ما حدث لها وبدا لها أنه على الأرجح لا يسمع ولا يفهم جيداً ما تقوله، وأنه لو عرف كل شيء فسيلعنها ويقتلها، أما هو فكان يسمعها ويمسح على وجهها وشعرها، ويحدق في عينيها ويقول:

- ليس عندي أحد سواك.

وبعد ذلك جلسا طويلاً في حديقة الدار متلاصقين، صامتين، أو تبادلوا بعض الجمل القصيرة المبتورة وهما يحلمان بصوت مسموع بحياتهما السعيدة المقبلة، وخيل إليه أنه لم يتحدث أبداً من قبل بمثل هذا الاسترسال والجمال مر أكثر من ثلاثة أشهر بقليل وحل اليوم الذي حدده فون كورين موعداً لرحيله هطل منذ الصباح الباكر مطر



غزير بارد وهبت رياح شمالية شرقية فارتفعت أمواج البحر عالياً وقيل إنه من المستبعد في جو كهذا أن ترسو السفينة في الميناء وكان من المفروض حسب جدول المواعيد أن تأتي في العاشرة صباحاً ولكن فون كورين، الذي خرج إلى الكورنيش في منتصف النهار وبعد الغداء، لم ير عبر المنظار شيئاً سوى الأمواج الرمادية والمطر الذي كان يحجب الأفق.

وفي آخر النهار توقف المطر وهدأت الرياح بدرجة ملحوظة وكان فون كورين قد استسلم لفكرة أنه لن يتمكن من الرحيل اليوم وجلس يلعب صامويلنكو الشطرنج ولكن عندما هبط الظلام أبلغهم جندي المراسلة أنه قد لاحت أضواء في البحر وشوهد صاروخ إشارة ونهض فون كورين على عجل وعلق الحافظة في كتفه وتبادل القبلات مع صامويلنكو والشماس، وبلا أي داع طاف بالغرف جميعاً، وودع الجندي والطاهية، وخرج إلى الشارع بإحساس كأنما نسي شيئاً ما عند الدكتور أو في شقته سار في الشارع بجوار صامويلنكو، وتبعه الشماس حاملاً صندوقان ومن خلف الجميع سار الجندي حاملاً حقيبتين ولم ير الأضواء الكايبية في البحر سوى صامويلنكو والجندي، أما الباقيون فحدقوا في الظلام ولم يروا شيئاً كانت السفينة تقف بعيداً عن الشاطئ.



- بسرعة، بسرعة قال فون كورين بعجلة أخشى أن تقلع.

وعندما مروا بجوار منزل بثلاث نوافذ، كان لايفسكى قد انتقل إليه عقب المباراة، لم يتمالك فون كورين نفسه وأطل في النافذة كان لايفسكى يجلس محنياً على المكتب، يكتب شيئاً ما وظهره إلى النافذة فقال عالم الحيوان بصوت خافت: إنني مندهش كيف كبح نفسه هكذا فتهنئ صامويلنكو: نعم، جدير بالدهشة هكذا يجلس من الصباح إلى المساء، يجلس ويعمل ويريد أن يسدد ديونه ويعيش يا أخي أبأس من شحاذ ومر نصف دقيقة في صمت وقف عالم الحيوان والدكتور والشماس قرب النافذة وهم لا يحولون أنظارهم عن لايفسكى وقال صامويلنكو هكذا لم يسافر المسكين من هنا أتذكر كيف كان يلح على السفر؟.

فردد فون كورين: نعم، كبح نفسه بشدة زواجه، وهذا العمل طول النهار من أجل لقمة الخبز، وهذا التعبير الجديد على وجهه، وحتى مشيته كل هذا غير مألوف إلى درجة أنني لا أعرف كيف أسميه وأمسك عالم الحيوان بكم صامويلنكو ومضى يقول بانفعال: أبلغه وأبلغ زوجته أنني قبيل رحيلي أبديت دهشتي بها وتمنيت لهما كل خير وأطلب منه ألا يذكرني بسوء إن كان يستطيع إنه يعرفني، يعرف أنه لو كان بوسعي أن أتتبعاً آنذاك بهذا التحول لأصبحت أصدق أصدقائه.



- ادخل وودعه كلا هذا محرج ولماذا؟ من يدري، فربما لا تراه بعد ذلك أبداً وفكر عالم الحيوان قليلاً، ثم قال: - هذا صحيح
طرق صامويلنكو النافذة بإصبعه طرقات خفيفة، فانقض
لايفسكى والتفت فقال صامويلنكو يافانيا، نيقولاى فاسيليتش يريد
أن يودعك إنه مسافر الآن نهض لايفسكى من أمام الكتب وذهب إلى
المدخل لكي يفتح الباب ودلف صامويلنكو وفون كورين والشماس
إلى البيت.

جئت لدقيقة واحدة - قال عالم الحيوان وهو ينزع خف حدائه في
المدخل، وقد أحس بالأسف لأنه استسلم لأحاسيسه ودخل إلى هنا
بدون دعوة وفكر كما لو كنت أفرض نفسي عليه هذا سخيف وقال وهو
يدخل في إثر لايفسكى إلى غرفته آسف على هذا الإزعاج، ولكني
مسافر الآن، وشعرت برغبة في أن أراك فمن يدري إن كنا سنلتقي
بعد سعيد جداً تفضل أرجوك قال لايفسكى ووضع الكراسي أمام
الضيوف بطريقة خرقاء، وكأنما يريد أن يسد عليهم الطريق، ووقف
في وسط الغرفة يفرك يديه وفكر فون كورين: كان ينبغي أن أترك
هؤلاء الشهود في الخارج، ثم قال بنبرة حازمة: لا تذكرني بسوء يا
إيفان أندريتش بالطبع لا يمكن نسيان الماضي، فهو محزن إلى درجة،
كما أنني لم آت إلى هنا لأعتذر أو لأؤكد أنني لم أكن مخطئاً لقد



تصرفت عن إخلاص ولم أغير معتقداتي منذ ذلك الحين صحيح أنني أرى الآن ولسروري البالغ أنني أخطأت بشأنك، ولكن قد يتعثر المرء على أرض مستوية، وذلك هو قدر الإنسان: إذا لم تخطئ في الشيء الرئيسي فستخطئ في الجزئيات لا أحد يعرف الحقيقة الأصلية.

فقال لايفسكى: - نعم، لا أحد يعرف الحقيقة حسناً، وداعاً أرجو من الله لك كل خير ومد فون كورين يده إلى لايفسكى، فشد هذا عليها وانحنى وقال فون كورين.

- لا تذكرني بسوء إذن أبلغ تحياتي إلى زوجتك وقل لها إنني أسفت جداً لعدم تمكني من توديعها إنها هنا.

مضى لايفسكى نحو الباب وقال متجهاً إلى الغرفة الأخرى: يا نادية، نيقولاي فاسيليتش يريد أن يودعك ودخلت ناديجا فيودوروفنا وقفت بجوار الباب ونظرت إلى الضيوف بوجل كان وجهها يعبر عن الفرع والإحساس بالذنب، وشدت يديها كتلميذة تصغي إلى توبيخ.

وقال فون كورين: إنني مسافر الآن يا ناديجا فيودوروفنا وقد جئت لأقول الوداع مدت له يدها بتردد، بينما انحنى لايفسكى.

وفكر فون كورين: يالهما من بائسين حقاً هذه الحياة تكلفها غالياً وسأل: سأكون في موسكو وبطرسبرج، ألا ترغبان في شيء أرسله



لكما من هناك؟.

- ماذا؟ قالت ناديجدا فيودوروفنا وتبادلت النظرات مع زوجها بقلق أعتقد لا شيء.

- نعم، لا شيء قال لا يفسكي وهو يفرك يديه أبلغ تحياتنا لم يدر فون كورين ما الذي يمكن أو ينبغي أن يقوله بعد، أما قبل أن يدخل إلى هنا فقد ظن أنه سيقول الكثير من الكلمات الطيبة والدافئة والمهمة وصافح لايفسكي وزوجته في صمت وخرج من عندهما بشعور مقبض وقال الشماس بصوت خافت وهو يسير خلفهم:

- يالهم من ناس يا إلهي، يالهم من ناس حقا يمناك يارب غرست هذا الكرم يا إلهي، يا إلهي أحدهم هزم الآلاف والآخر عشرات الآلاف وقال بإعجاب يا نيقولاي فاسيليتش، أتدري أنك انتصرت اليوم على ألد أعداء الإنسان على الكبرياء.

كفاك يا شماس أي منتصرين أنا وهو المنتصرون بيدون كالنسور، أما هو فبئس، وجل، ذليل، ينحني كالمعتوه وأنا وأنا حزين وتردد خلفهم وقع خطوات كان لايفسكي يلحق بهم ليودعه وفي المرفأ وقف جندي المراسلة مع الحقيبيتين، وغير بعيد عنه أربعة بحارة.

وقال صامويلنكو: يا للريح الباردة برررلابد أن العاصفة تعربد



الآن في البحر ليس وقتاً مناسباً للسفر يا كوليا .

- أنا لا أخشى دوار البحر- لا أقصد هذا أخشى أن يقلبك في البحر هؤلاء الأغبياء كان ينبغي أنت ركب زورق الوكالة وصاح في البحارة: أين قارب الوكالة؟ أقلع يا صاحب المعالي وقارب الجمارك؟ أيضاً أقلع وغضب صامويلنكو: ولماذا لم يبلغوني؟ هؤلاء الحمقى فقال فون كورين لا يهم، اطمئن حسناً، وداعاً ليحفظك الله وعانق صامويلنكو فون كورين ورسم عليه علامة الصليب ثلاثاً لا تتسنى يا كوليا اكتب سوف ننتظرك في الربيع القادم وداعاً يا شماس قال فون كورين شاداً على يد الشماس - شكراً لك على صحبتك، وعلى الأحاديث الممتعة فكر بخصوص البعثة فضحك الشماس وقال: - يا إلهي، ولو إلى آخر الدنيا؟ وهل أنا أعارض؟ وتعرف فون كورين في الظلام على لايفسكى فمد له يده في صمت وكان البحارة قد وقفوا في الأسفل ممسكين بالزورق الذي كان يصطدم بقوائم الرصيف، رغم أن حاجز الأمواج كان يحميه من الموج العالى وهبط فون كورين على السلم، وقفز في الزورق، وجلس إلى الدفة وصاح صامويلنكو له: اكتب لنا حافظ على صحتك لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة فكر لايفسكى وهو يرفع ياقة معطفه ويدس يديه في جيبيه ودار القارب مهمة من حول الرصيف وخرج إلى المياه المكشوفة واختفى بين



الأمواج، ولكنه قفز على الفور من هوة عميقة إلى تل مرتفع حتى بدا واضحاً ركابه بل حتى مجاديفه وقطع القارب حوالى ثلاث أذرع ثم ألقت به الأمواج إلى الوراء مقدار ذراعين وصاح صامويلنكو اكتب أي شيطان دفعك للرحيل في هذا الجو نعم، لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة فكر لايفسكي وهو ينظر بأسى إلى البحر الهائج المظلم ومضى يفكر: البحر يدفع القارب إلى الوراء يتقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء، ولكن البحارة عنيدون، يضربون بالمجاديف بلا كلل ولا يخشون الأمواج العالية ويمضى القارب إلى الأمام قدماً، وها هو ذا يختفى عن الأنظار، وما إن ينقضي نصف ساعة حتى يرى البحارة أضواء السفينة بوضوح، وبعد ساعة سيكونون عند سلم السفينة وهكذا الحياة يخطو الناس بحثاً عن الحقيقة خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء وتدفعهم الآلام والأخطاء وملل الحياة إلى الوراء، ولكن الشوق إلى الحقيقة والعزيمة الصلبة تدفعهم إلى الأمام قدماً ومن يدري؟ ربما يبلغون شاطئ الحقيقة الأصيلة وصاح صامويلنكو: مع السلامة وقال الشماس: لا حس ولا خبر طريق السلامة وأمطرت السماء رذاذاً.





المحتويات

5	مقدمة
7	حكاية مملة من مذكرات رجل عجوز
18	تاريخ المرض
102	عنبر رقم 6
186	المبارزة
512	الآباء والأبناء